كتابي

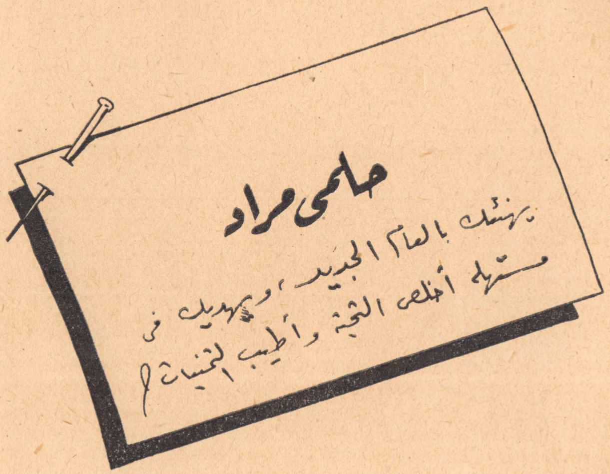


عندما تحقد المرأة

حلمي مراد

وكتب أخرى

٨ كتب
٨ قروش


حلمي مراد
يهنئك بالعام الجديد ، ويهديك في
مستهله أخلص التحية وأطيب التمنيات !

عندما تحقد المرأة

وكتب أخرى

كتب للمحرر

عندما تحب المرأة (مجموعة قصص مصرية)	الناشر « **كتب للجميع** »
اوسكار وايلد (حياته ، وفنه ، ومأساته)	الناشر « **البلاغ** »
قلوب تحترق أو (حذار من الشفقة) لستيفان زفايج	الناشر « **روايات الهلال** »
انا كارنينا لتولستوى	الناشر « **روايات الهلال** »
رسول القيصر (ميشيل ستروجوف) لجول فيرن	الناشر « **روايات الهلال** »
ذات الرداء الابيض لويلكى كولنز	الناشر « **روايات الهلال** »
ابنة البخيل (أوجينى جرانديه) لبلزاك	الناشر « **روايات الهلال** »
الفارس الخامس (ابن بورتوس) لاسكندر ديماس	الناشر « **روايات الهلال** »
الذئب الاغبر (مصطفى كمال)	الناشر « **كتاب الهلال** »
« **كتابى** » الاول : « **خطايا الحب** » وكتب اخرى	مارس سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » الثانى : « **قلب عذراء** » وكتب اخرى	ابريل سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » الثالث : «**الهاربة من الجنة**» وكتب اخرى	مايو سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » الرابع : « **حواء الجديدة** » وكتب اخرى	يونيو سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » الخامس : «**احدب نوتردام**» وكتب اخرى	يوليو سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » السادس : «**جريمة حب**» وكتب اخرى	اغسطس سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » السابع : «**عشيقة نابليون**» وكتب اخرى	سبتمبر سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » الثامن : «**مذكرات كيوبيد**» وكتب اخرى	اكتوبر سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » التاسع : « **صنم تحطم** » وكتب اخرى	نوفمبر سنة ١٩٥٢
« **كتابى** » العاشر : « **حديقة الله** » وكتب اخرى	ديسمبر سنة ١٩٥٢

كتابى

كتاب شهرى للقصة والثقافة الرفيعة

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

المكاتبات : ١٨ شارع العباسيين ، مصر الجديدة - تليفون ٦٥٦٠٨

الاشتراكات : عن ١٢ عددا : مصر والسودان : ١٠٠ قرش . سوريا ولبنان : ١١ ليرة سورية او لبنانية . الحجاز والعراق والاردن : ١١٠ قروش صاغ

الكتاب الحادى عشر - يناير ١٩٥٣

رمز الكتاب : مصباح الفكر عند الاغريق

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية

صديق العائلة!

قصة للمحرر

ممصرة عن قصة للكاتب الألماني :
« هرمان سودرمان »



« .. **ما أجمل** أن أعود فأجلس اليك ياسيدتى العزيزة مرة أخرى ، على هذا المقعد المريح ، فى هذا الهدوء الشامل ، كى نأخذ فى ذلك الحديث الممتع المتبادل الذى ألفناه .. حقا انى لاشكر الظروف التى هيأت لك أن تنفضى يدك من ضجيج العيد، وتعودى فتجدين بضعة من فراغ تجلسين فيه الى ..

« **العيد ؟.. يخيل الى أنه لم يخلق الا نكاية فينا نحن العزاب ، لاشعارنا بكآبة حياتنا العقيمة بغير بيت .. أعنى بغير هذا الشىء الذى هو مصدر البهجة لغيرنا بقدر ماهو مصدر الوحشة لنا نحن !..** لست أزعم اننا جميعا نعانى الوحدة فى حياتنا ، فان أكثرنا يعيشون مع أهلهم ، ويمارسون سعادة اسعاد الآخرين .. لكن متعة مشاركة الغير متعهم ينغصها عليهم ذلك الشوق المرير الذى يكابدونه ، الشبيه بحنين المرء الى وطنه .. وأعنى به حنين الاعزب الى الزواج !

« وأنت تسألينني : لماذا لم آت وأفتح قلبى لك ، وأفرغ محتوياته بين يديك ؟.. يالك من انسانة سخية بعطفها ، تغدقين العزاء بنفس السخاء الذى به تغدق أكثر بنات جنسك الحقد والضغينة الوضيعة !

«لكن المسألة ليست فى الواقع بالسهولة التى تحسبين ! .. أو تذكرين عبارة وردت فى قصة « عصافير الجنة » التى تفضلت فأرسلتها الى فى عطلة العيد ـ كأنما قد حدست حالتى النفسية وفهمتها على حقيقتها ؟!.. انها هذه العبارة التى تقول : «الاعزب الاصيل يأبى أن يتعزى .. فهو متى وجد نفسه شقيا فى حياته ، عمد الى الانغماس فى شقائه أكثر فأكثر ..!»

«وهذا العصفور «الاعزب» الذى تحدثت عنه القصة يذكرنى بذلك النوع من العزاب القدماء ، المزمنين ، الذين نطلق عليهم أصدقاء العائلة !٠٠ ولست أعنى بهم أولئك المحترفين تدمير العائلات ، الذين يتسللون بنواياهم الشريرة خلسة الى قلوب ضحاياهم ، فى الوقت الذى يكرم فيه رب البيت المضياف وفادتهم ! ٠٠ وانما أعنى ذلك الطراز من أصدقاء العائلة الاوفياء ، الذين يتخذ الواحد منهم مركز « العم » الطيب المتقدم فى السن ، الزميل القديم لرب البيت فى المدرسة ٠٠ الذى يهدهد الطفل على ركبتيه وهو يقرأ لامه بصوت مسموع ، فى احترام وتوقير ، القصة المنشورة فى صحيفة المساء ٠٠ مع حذف الفقرات غير اللائقة منها !

«٠٠ فأنا أعرف رجالا عزابا يكادون يكرسون حياتهم لخدمة أسرة ارتبطوا معها برباط صداقة وثيقة ٠٠٠ **رجالا يقضون أيامهم – متجردين من الرغبة – الى جوار امرأة عذبة ، تكن قلوبهم لها فى السر حبا يقرب من العبادة !**

« أراك تتشككين !٠٠ هل هى عبارة «متجردين من الرغبة» التى تعترضين عليها ؟ قد تكونين على حق ، ففى أعماق أخلص قلب أليف قد تعربد رغبة ضارية ، لا ينقصها غير اطلاقها من عقالها ٠٠ لولا أن صاحبها يحسن قمعها ٠٠!

« لكننى أود أن أسرد عليك قصة فى هذا الصدد ٠٠ قصة حديث جرى أخيرا – ليلة رأس السنة الجديدة – بين صديقين فى خريف العمر ٠٠ ولا تسألينى كيف وقفت على سر هذا الحديث ، ولا تقصى أمره على أحد ٠٠ هل اتفقنا ؟ اذن فاسمعى :

« ◆ **كانت** الغرفة التى جلسا فيها من الطراز القديم ، ذات سقف عال وأثاث عتيق ، كالذى نشاهده فى بيوت آبائنا ٠٠

وكان ضوء النجفة «الكريستال» يقع على منضدة مستديرة عليها غطاء أبيض ، صفت فوقه آنية الشراب وأقداحه ..

« وكان الرجلان كهلين ، من مخلفات الجيل الماضى .. وقد جلسا مستغرقين فى أفكارهما ، يتطلعان فى شرود الى بعيد بعينين كليلتين ونظرة خامدة جوفاء ، شأن المتقدمين فى السن .. وكان أحدهما ـ وهو رب البيت ـ رجلا عسكريا من رجال الجيش القدامى الذين أحيلوا الى الاستيداع ، كما يبين من نظرته ، وحاجبيه ، وشاربه المدبب ، وتقطيبه .. وقد جلس بلا حراك على مقعده «الهزاز» المختار .. أما الثانى ـ الذى جلس على الكنبة المجاورة ـ فكان طويلا نحيلا ، ضيق الكتفين ، عريض الجبهة ، شأن المفكرين .. لاينفك يجذب أنفاسا من سيجارته التى أوشكت أن تنتهى .. وكانت تلوذ بهامته خصلات من الشعر الابيض ، وتقيم بين تجاعيد وجهه ابتسامة ناعمة هادئة ، لاتستطيع غير سكينة اليأس أن ترسمها على الوجه المتغضن المسن !

« **وانقضت** دقائق وهما صامتان ، لايتبادلان كلمة .. والسكون الشامل حولهما لايقطعه غير حفيف أنفاس السيجارة ، ورشفة الشفاه من الكأس ، ودقات ساعة الحائط التى تحصى الزمن وراء ظهريهما ..

« ثم دقت الساعة التاسعة ، فقال الضيف فى صوت متهدج بعض الشىء :

ـ انها الساعة التى اعتادت فيها أن تستنهضنا لنتناول عشاء رأس السنة ..

« فأجاب الآخر بلهجته الصارمة التى أكسبته اياها روح الجندية :

ـ نعم .. بالضبط

فاستطرد الصديق :

ـ ماكان يخطر ببالى قط أن ليلة العيد تغدو كئيبة الى هذا الحد ٠٠ بدونها !

فأومأ الآخر برأسه ولم ينطق بكلمة ٠٠ بينما أردف الضيف الكهل :

ـ انها قد أعدت لنا عشاء رأس السنة أربعة وأربعين مرة !

ـ نعم ٠٠ منذ استقر بى المقام فى القاهرة ، وصرت تأتى لتؤنس ليالينا ٠٠

ـ فى مثل هذا الوقت من العام الماضى فقط كنا ثلاثتنا ما نزال معا ، أتم ما نكون سعادة وصفاء ٠٠ كانت هى تجلس فى ذلك المقعد المريح باسمة ٠٠ ثم نهضنا للعشاء ، وتحدثنا طويلا عن الموت ٠٠ وبعد شهرين حملوها فى صندوق الى القبر !٠٠ أتعلم ، اننى لم أعد أحتمل مجرد الاشارة العابرة الى الموت فى حديث ما ، منذ ماتت زوجتك ٠٠

ـ كم كانت امرأة طيبة !٠٠ كانت تعنى بى عناية فائقة ٠٠ عند ماكان يتحتم على أن أخرج الى عملى فى الخامسة صباحا كانت تنهض قبلى وتعد لى بنفسها قدحا من القهوة ٠٠ وهذا لايمنع أنه قد كانت لها أخطاؤها أيضا ، وخاصة حين كانت تشتبك معك فى حديث فلسفى ٠٠٠ أف »

ـ انك لم تفهمها قط ٠٠

« ألقى الصديق بهذه العبارة وقد اختلج على أركان فمه شبه امتعاض مكتوم ٠٠ وان كانت النظرة التى تركها تستقر على صديقه برهة طويلة قد جاءت وديعة حزينة ٠٠ كأنما كانت روحه مثقلة بشعور خفى بالاثم !

« وبعد فترة صمت ابتدر مضيفه قائلا :

ـ اسمع ياصادق ٠٠ يجب أن أبوح لك بشىء ٠٠ شىء مافتىء يقض مضجعى ، بحيث يخيل الى أنى لن أستطيع أن أمضى

الى القبر حاملا عبئه فوق كاهلى ٠٠ !

« فأجابه صادق وهو يقدم له سيجارة :

ـ اذن أفرغ مافى جعبتك ٠٠

ـ لقد وقع يوما شيء ، بيني وبين زوجتك !

ـ أرجوك أن لا تمزح يامنصور ٠٠

ـ بل انى جاد كل الجد ٠٠ ولقد حملت قلبى هذا السر أكثر من أربعين عاما ٠٠ واليوم آن لى أخيرا أن أتخفف من حمله ٠٠ !

« وعند هذا صاح الضابط القديم غاضبا :

ـ هل تقصد أن تقول ان زوجتى قد خانتنى ؟

فأجابه الصديق «الفيلسوف» بابتسامته الحزينة الهادئة :

ـ أو لا تخجل من هذا الظن ؟

« فغمغم صادق غمغمة غامضة ، ثم أشعل سيجارة ٠٠ بينما استطرد صديقه :

ـ بل انها كانت فى طهر الملائكة ٠٠ وانما نحن المذنبان ، أنت وأنا !٠٠ اصغ الى :

« **كان** ذلك منذ ثلاث وأربعين سنة ٠ كنت أنت ماتزال برتبة اليوزباشى ، وكانت قد انقضت على استقرارك فى القاهرة بضعة أشهر ٠٠ أما أنا فكنت حديث عهد بالتخرج من مدرسة المعلمين العليا ٠٠ ولعلك تذكر كم كنت أنت مستهترا عاتيا فى ذلك العهد ٠٠!

فعاد صادق يغمغم ، مؤمنا على عبارة صديقه الاخيرة ٠٠ ورفع يده المضطربة الى شاربه يفتل أطرافه المدببة ، ويصغى الى ذكريات صاحبه ، الذى استطرد :

ـ وكانت هناك مغنية جميلة ذات عينين واسعتين سوداوين وأسنان لؤلؤية ناصعة ٠٠ أتذكر ؟

ـ كيف لاأذكر « منيرة » ؟



كنت انت على صلة بتلك المغنية ..

« ورفت علـى وجه الكهل المغضن ابتسامة شاحبة ، بينما مضى ضيفه فى حديثه :

ـ كنت أنت على صـلة بتلك المغنية ، وكانت زوجتـك ترتاب فى الامر ، لكنها لم تشر اليه يوما بكلمة ، وانما قاست آلام مذلتها فى صمت ٠٠ ولم تلحظ أنت ذلك ، أما أنا فلحظته! ٠٠ كانت زوجتـك أول امرأة أعرفها بعد موت أمى ، وكانت قد أشرقت فى حيـاتى كنجمة ساطعة ٠ واعتـدت بدورى أن أنظر اليها كما أنظر الى نجوم السماء ! ٠٠ فلما رأيت كآبتهـا واتتنى الشجاعة على أن أسألها عما يمضها ٠٠ فابتسمت وقالت انها لم تسترد صحتها بعـد ! ـ وكانت قد وضعت ابنكما « صلاح » قبل ذلك بفترة وجيزة ، كما لعلك تذكر ٠٠

« ٠٠ ثم حلت ليلة رأس السنة ، فجئت الى منزلكم كعادتى فى نحو الساعة السابعة ٠٠ وجلست هى تطرز ، وأنا أقرأ لها الصحف فى انتظار قدومك ٠٠ ولكن مرت ساعات ، وأنت لم تحضر ! فبدأ صبرها ينفد واضطرابها يتزايد تدريجيا ٠٠ واضطربت أنا بدورى من حرج الموقف ، فقـد كنت أعرف العائق الذى أخرك ٠٠ وخشيت أن تنسى عشاء العيد التقليدى وأنت بين ذراعى تلك الغانية !

« ٠٠ ودقت الساعة الحادية عشرة ، فكفت زوجتك عن التطريز ، وأنا عن القراءة ٠٠ وخيم علينا سكون رهيب !٠٠ ثم

رأيت دمعة تتجمع في مقلتيها ، وتنحدر في بطء من بين أهدابها على القماش الذى تطرزه !٠٠ فجن جنونى ، وقفزت من مقعدى وأنا أزمع الخروج لاحضارك الى بيتك ٠٠ أحسست أننى قدير على انتزاعك من بين أحضان غانيتك !٠٠ ولكن فى اللحظة التالية وثبت زوجتك بدورها من على هذا المقعد ذاته الذى أجلس عليه الآن وصاحت بى والرعب يتمثل فى صوتها :

– الى أين أنت ذاهب ؟

– سأذهب لاحضر صادق ٠٠

« وعند ذلك كادت تبكى وهى تهتف بى مناشدة :

– أرجوك أن تبقى معى ، أنت على الاقل ٠٠ لاتتركنى !

ثم ارتمت على وأسندت ذراعيها على كتفى ، وأخفت وجهها الندى بالدموع فى صدرى ٠٠ فارتجف جسدى كله كالريشة فى مهب اعصار عنيف ٠٠ لم يكن قد سبق لامرأة أن التصقت بى على هذا النحو !٠٠ لكنى انتزعت نفسى من أمانيها ، وأخذت أهدىء من انفعال المرأة المستنجدة بى من عذابها ٠٠ وكانت فى أشد الحاجة الى مايهدئها ويريحها ٠٠

«وبعد قليل عدت أنت ٠٠ لكنك لم تلحظ البتة اضطرابى، فقد كانت وجنتاك فى لون الدم ، وفى عينيك علائم الانهاك الذى تخلفه سكرة الحب !



وأخفت وجهها الندى بالدموع فى صدرى ٠٠

❖

« ◆ **ومنذ** تلك الليلة تغيرت أنا !٠٠ تغيرا أثار قلقي الجدي ٠٠ فمنذ شعرت بذراعيها الناعمتين حول رقبتي ، وملأ أنفي عطر شعرها المتضوع ٠٠ هوت النجمة في عيني من سمائها ، فلم أعد أرى أمامي غير المرأة !٠٠ المرأة الجميلة التي تفوح حبا !٠٠ وأدركت أن نظراتي صارت تنضح حرارة وشوقا ، فسقطت في عيني نفسي ، وأحسست بمبلغ ضعفي ونذالتي ٠٠ ولكي أريح ضميري بالتكفير عن أفكاري الآثمة آليت على نفسي أن أسعى جاهدا كي أفرق بينك وبين خليلتك ، وأردك الى زوجتك ٠٠ ولحسن الحظ كنت أملك بعض المال الذي ورثته ، فأعطيتها منه المبلغ الذي طلبته ثمنا لهجرك !٠٠ »

« فقاطعه الضابط الكهل صائحا :

ـ اذن فقد كنت أنت المسئول عن خطاب الوداع المؤثر الذي فاجأتني به منيرة ، قائلة انها ـ بقلب كسير ـ تجد نفسها مضطرة لان تسلو حبي ؟

ـ نعم ، أنا المسئول عن ذلك الخطاب ٠٠ وقد كنت أحسب أنني أشتري بالمال الذي دفعته سكينة نفسي ٠٠ **لكني كنت مخطئا ، فان الاحلام الآثمة ظلت تذرع خيالي بلا انقطاع ، وخطرها يقوى يوما بعد يوم ٠٠ فحاولت اغراق همي في عملي ، وخصصته بأكثر وقتي ، ولكن دون جدوى ٠٠ فان السلام والسكينة استعصتا على ذهني ووجداني ٠٠**

« ٠٠ ومر عام كامل على هذا المنوال ٠٠ وأقبلت ليلة رأس السنة مرة أخرى ٠٠ فجلست على هذه الكنبة الى جوارها ٠ وفي هذه المرة كنت أنت في البيت ، ولكن مستغرقا في النعاس على كنبة أخرى في الغرفة المجاورة ، عقب حفلة صاخبة حضرتها في النادي في ذلك المساء ٠٠

« وفيما أنا جالس هكذا الى جانبها ، أنظر الى وجهها الشاحب الجميل ، عاودتني ذكرى ليـلة العيد الماضية بكل دقائقهـا وانفعالاتها الجارفة ٠٠ **فلم أستطع أن أبعد عن خاطرى أمنيـة الشعور مرة أخرى بذراعيها حول عنقى ، ورأسها فوق صدرى ٠٠ بل وشفتيها لصق شفتى ، وليكن مايكون !**

« والتقت نظراتنا برهة ، فبدا لى كأن تفاهما خفيا قد لمع فى عينيها !٠٠ وعند ذاك لم أستطع السيطرة لحظة أخرى على نفسى ، الامارة بالنعيم ٠٠ فهويت عند قدميها متخاذلا ، وأخفيت وجهى المحموم فى حجرها ٠٠!

« ومكثت على هذا الوضع ، بلا حراك ، لحظات ٠٠ أحسست بعدها بيدها الباردة تربت على رأسى ، وسمعتها تقول فى نعومة :

ـ كن عاقلا ٠٠!

« نعم ، فلأكن عاقلا ولا أغدر بالزوج النائم ـ فى ثقـة واطمئنان ـ فى الغرفة المجاورة !٠٠ واذ ذاك قفزت عـلى قدمى ونظرت حولى فى ارتباك وبلبلة ٠٠ فتناولت هى كتابا من فوق المنضدة ، وقدمته الى ٠٠!

« وأدركت قصدها ، ففتحت الكتاب ـ حيثما اتفق ـ وبدأت أقرأ بصوت مسموع ٠٠ ولست أدرى ماذا قرأت ، فان الحروف جعلت تتراقص أمام عينى ٠٠ لكن العاصـفة المصطخبة فى أعماقى لم تلبث أن سكنت شيئا فشيئا ٠٠ وعندما حان وقت العشاء وخرجت الينا من غرفتك بعينين تغالبان النعاس ، كى تتمنى لنا عاما سعيدا ٠٠ أحسست أنا كأن تلك اللحظة الآثمة قد انطرحت وراء ظهرى ، وصارت تمت الى الماضى البعيد !

« ٠٠ ومنذ تلك الليـلة استرددت شيئا من هدوئى ٠٠ أدركت أن زوجتك لا تبادلنى الحب ، فلم يبق ما أطمع فيـه منها غير ٠٠ الحنان والاشفاق !

❖

ثم مرت سنوات ٠٠ وكبر أبناؤكما ٠٠ وتزوجوا ٠٠ وشخنا ثلاثتنا ٠٠ فكففت أنت عن مجونك ، واقتصرت على حب امرأتك ٠٠

« أما أنا فلم أكف عن حبها ٠٠ فى قلبى ! كان مستحيلا على أن أسلوها ٠٠ لكن حبى اتخذ اتجاهات أخرى ، نبذ الشهوات الدنيوية وتطور الى صداقة روحية !٠٠ واعتدت أنت أن تسخر منا كلما سمعتنا نشتبك فيما سميته « أحاديث فلسفية » ٠٠ ولكن لو أنك وقفت على مبلغ اتحاد روحينا لاصابتك غيرة شديدة من سعادتنا ٠٠!

« أما الآن ، وقدماتت هى ـ ومن يدرى ، لعلنا نحن أيضا نلحق بها قبل حلول العيد القادم ! ـ فقد آن لى أن أزيح عن كاهل ضميرى سرى الدفين ، وأواجهك فى صراحة قائلا : « لقد أثمت فى حقك يوما ياصادق ٠٠ فاغفر لى ! »

« ومد الصديق الكهل يده الى مضيفه فى توسل ٠٠ لكن هذا أجابه فى حدة التأثر :

ـ هراء ٠٠ ليس فى اعترافك هذا أى جديد ، فقد علمت بالامر منذ دهر ٠٠ باحت لى هى به فى حينه !٠٠ ولكن بقى أن أبوح أنا لك بسرى ٠٠ سر ازدياد تهافتى على النساء ، على النحو الذى عرفته عنى منذ تلك الايام حتى أدركتنى الشيخوخة أخيرا : **فان « المرحومة » حين صارحتنى بذلك الموقف الذى كان بينكما فى مستهل تعارفنا ، أضافت اليه اعترافا آخر : بأنك الرجل الوحيد الذى أحبته فى حياتها ٠٠! »**



المهجورة

قصة قصيرة للكاتب الفرنسى الكبير

پول بورجيه



— ١ —

◆ الساعة الحادية عشرة مساء ٠٠ والريح الباردة فى الخارج تصفر صفيرها المخيف ، والثلج يهطل من السماء فيكسو الاشجار ، والمبانى ، والطرقات ٠٠

أما فى داخل البيت الذى يقطنه «الكونت ديسيف» بالقرب من (بارك مونسو) فلم يكن يسود فى تلك الليلة ـ ليلة عيد الميلاد ـ غير السكون الموحش ٠٠ سكون البيوت التى دخلها الموت فكساها بطابع الحداد الحزين ٠

لم يكن بين أهل باريس من يسمع اسم «ديسيف» الا ويذكر النهاية المفجعة لزوجته الكونتة الحسناء ، التى ماتت فى الربيع على أثر سقوطها من على ظهر جوادها ٠٠ والتى لن تفتأ تعاودنى ذكراها ليلة العرض الاول لرواية «أميرة بغداد» وهى جالسة فى مقدمة مقصورتها ، بطلعتها الساحرة : وجهها المستطيل الشاحب ، وعينيها السمراوين ، وشعرها الكستنائى الجميل ٠٠ لقد تركت المسكينة ثلاثة أطفال يتامى : ولدين ، أحدهما فى العاشرة ، والثانى فى الحادية عشرة ، وصبية فى الثامنة تدعى «سيمون» ٠٠ وكان الثلاثة يعيشون فى الطابق الثانى من البيت ، هما فى غرفة مشتركة ، وهى فى غرفة مجاورة ٠٠

وفى ليلة عيد الميلاد الرهيبة تلك ، التى كان بردها يهصر أبدان الاطفال الفقراء فى شوارع باريس وأزقتها ٠٠ كانت الطفلة المترفة تشكو بردا قارسا فى قلبها المكتئب ، برغم الدفء الذى يكتنف غرفتها ، والنار التى ظلت وقتا تشتعل فى المدفأة ، والستائر السميكة ذات الالوان الزاهية التى تغطى النوافذ ، والسجادة الفاخرة التى تكسو أرض الغرفة ٠٠ وسائر مظاهر الثراء والترف التى كانت الكونتة قد أحاطت بها طفلتها المحبوبة ٠٠٠ وبالرغم من ذلك كله فان الصغيرة تحس أنها شقية ، ولا تكف فى وحدتها الموحشة عن التفكير فى شقائها ،

وفى أسباب ذلك الشقاء ٠ ان شيئا هاما قد تغير فى حياتها منذ وفاة أمهـا ، وجو الحنان الدافىء الذى كانت تعيش فيه قدأدركته فجأة برودة الصقيع !٠٠ انه ليس موت أمها فى ذاته الذى يؤلمها ٠ ففى مثل سنها لاتعنى كلمة الموت شيئا من حقيقتها الرهيبة : لاتعنى قبرا ضائعا بين مئات القبور فى تل (بير لاشيز) ، يحتل ركنا منه تابوت خشبى مغلق على جسد بارد هامد ، يفنى ويتحلل ساعة بعد أخرى ٠٠ كلا ، بل ان موت أمها يعنى فى خيالها الصبيانى الساذج أنها قد طارت الى السماء ـ ذلك المكان الغامض البعيد ، الملىء بالمباهج والمسرات ، والمزدحم بملائكة ذوى أجنحة كما فى الصورة التى على غلاف كتابها الدينى ! ـ وانها تعيش سعيدة هناك ، حيث تأمل الصبية أن تلحق بها يوما !

❖

◆ وكانت الصورة التى تحتفظ بها سيمون لامها فى خيالها ماتزال تلك الصورة الفاتنة التى كانت عليها فى حياتها ٠٠ فهى لم ترها مسجاة على فراش الموت ، مسبلة العينين ، مفتوحة الفم ، صفراء الوجه ، وجبهتها غارقة فى الدم ٠٠ فقد كان من أول ماحرص عليه الكونت عقب الحادث ابعاد الاطفال عن جو الفجيعة ، فأرسلهم الى جدتهم فى فرساى ، حيث ألبسوا ثيابا جديدة سوداء ، دون أن يفهموا من الامر شيئا ! كل ما استطاعت عقولهم الصغيرة أن تدركه من نظرات العطف والرثاء التى كانت تحوطهم أن مكروها قد حل بهم !٠٠ لكن المتنزه الواسع الذى كانوا يذهبون بهم اليه كى يلعبوا فيه كان زاهيا بخضرة الربيع ، مليئا بالتماثيل الجميلة التى ينبثق الماء من أفواهها ٠٠ فسرعان مانسى الاطفال المكروه الذى ألم بهم ٠٠ حتى جاء أبوهم للحاق بهم ، فابتدره الثلاثة فى نفس واحد : « وأين ماما ؟ » ٠٠ لكنه لم يجب ، وانما عانقهم وهو يشرق بدمعه ، وكان وجهه حزينا ٠٠ حزنا لايوصف ! لكن أخص ماتذكره الصغيرة من الامر كله أنها قد أدركت منذتلك اللحظة ذلك الشىء غير المحسوس الذى لاتستطيع حتى الآن تفسيره ، والذى يملأ قلبها الطفل كآبة وأسى : ان أباها لم يعد يحبها كماكان يفعل قبلا !٠٠ الامر الذى مايزال يمضها فى ليلة عيد الميلاد هذه ، ويؤرقها ، فيحرمها من النوم الهنىء الذى يغمض فى الغرفة المجاورة أجفان أخويها السعيدين ٠٠

❖

◆ نعم ، ان أباها لم يعد يحبها ! كانت الافكار والصور التى تذهب وتجىء فى رأسها الصغير تدور كلها حول هذه الحقيقة . انه لم يعد يحبها ، هى التى كانت فى الماضى طفلته المفضلة !.. وانها لترى بخيالها ممر متنزه فرساى ، حيث داهمها لاول مرة هذا الشعور ، دون أن تدرك وقتئذ - كما لاتزال تجهل حتى الآن - سبب ذلك التغير المفاجىء فى معاملة أبيها لها !.. أنه فى الماضى لم يكن يقوى على البقاء معها ربع ساعة دون أن يغمرها بقبلاته . أما فى ذلك اليوم ..!؟

كانت تتنزه مع أخويها - بيير وأرمان - فى صحبة مربيتها مدموازيل مارى ، حين ظهر أبوها فجأة فى طرف الحديقة .. فهرعت نحوه كعادتها مادة له ذراعيها فى شوق ولهفة .. لكن عينها لم تكد تلتقى بعينيه ، ولم تكد تحس بالفتور الذى تلقى به قبلاتها ، حتى أدركت أنها لم تعد بالنسبة له من كانت فيما مضى ! فتولتها الدهشة ، والخجل .. ماذا أغضبه منها ؟ أى شر فعلت يومئذ ؟ لماذا قال لها بذلك الصوت الذى لم تكن تسمعه منه فى الماضى الا حين كان يعاقبها من أجل أمر ارتكبته : « اذهبى مع مدموازيل مارى » .. فى الوقت الذى سار هو فيه بين أخويها ، ممسكا كليهما باحدى يديه ؟!

بل انه منذ تلك الساعة لم يخاطبها بغير تلك اللهجة الجافة .. وفى مئات المناسبات التى تكتنف حياتها كان التغيير فى مسلكه بازائها شاملا .. لم تعد تسمع منه كلمات التدليل الحلوة ، وانتهى عهد الضحكات التى كانت أبسط نوادرها تطلقها من صدره ، والنظرات الدافئة الحنونة التى كان يسكبها فى عينيها .. بل انها لم تعد تجرؤ على أن تتلمس عينيه ، منذ لمست فيهما ذلك البرود القارس الذى صار يسرى اليها فيثلج أطرافها .. ولا صارت تجرؤ على الاقتراب منه كى تتناول يده فتطبع عليها قبلة ، منذ اليوم الذى سحب فيه يده من يدها فى خشونة !.. يده التى لم يكن لها هم فى الماضى غير مداعبة خصلات شعرها ، وملاطفتها على خديها !

❖

◆ وليت هذا الجفاف الظالم كان قاصرا عليه وحده ، بل ان عدواه قد امتدت الى كل من يحيط بها .. حتى أخويها صارا يعاملانها بخشونة ، وحتى مربيتها

صارت تعنفها على أبسط هفوة !٠٠ فمن بقى لهاتشكو اليه همها ؟! صديق الاسرة المركيز «ديدى» ؟٠٠ لكنه لم يعد يدخل البيت ٠ وفى المرات التى قابلته فيها صدفة فى (الشانزليزيه) كان يكتفى بتحية مربيتها دون أن يكلمها هى ، رغم أنها كانت تلحظ عينيه تتبعانها طويلا حتى تبتعد ! فلماذا أهملها هو بدوره ، مادام لايزال يحبها ٠٠ كماتبينت من نظراته ؟ انها تعانى حيرة وقلقا أليمين ٠٠ تحس بنفسها ضائعة بين قوم غرباء ، بل شبه مكروهة منهم !٠٠ وانها لتصغى الآن للريح تعصف فى الخارج فى هذه الليلة الباردة ، ثم تهدأ قليلا ، ثم تعود مرة أخرى فتلطم النوافذ المغلقة بشدة ٠٠ وانها لتتساءل : « ترى هل استغرق أهل البيت جميعا فى النعاس ؟ »

٠٠ ذلك أنهاتدير فى رأسها فكرة « مشروع » هام ٠ انهاتعلم أن «بابانويل» سيهبط الليلة على البيت كى يملأ الاحذية الكبيرة المتروكة له بجوار المدفأة فى غرفة المكتبة ، بالحلوى واللعب ٠٠ فلماذا لاتتوجه اليه بشكواها ، لعله يخلصها من العذاب القاسى الذى تعانيه ؟ انه يسكن فى السماء ٠ ولقد قالوا لها ان أمها أيضا تعيش فى السماء ٠٠ ومن هنا خطرت لها الفكرة الرائعة : أن تكتب لامها خطابا وتتركه لبابانويل فى الحذاء بجوار المدفأة ، كى يأخذه ويوصله الى أمها ! ولقد تمكنت فعلا من كتابة الخطاب خلال اليومين السابقين ، خفية عن العيون ، فأفرغت فيه كل أساها ٠٠ ثم أودعته مظروفا خطت عليه بأناملها المرتجفة هذا العنوان : « الى ماما ٠٠ فى السماء » !٠٠ لكنها لم تجرؤ على أن تضعه فى الحذاء أمام مربيتها وأخويها ٠ أما وهم الآن يغطون فى النوم ، فقد حانت فرصتها كى تتم مشروعها ٠٠!

❖

٠٠ وتسللت الصغيرة من فراشها فى خفة ، ومشت على أطراف أصابعها٠٠ ان قلبها يضطرب بشدة فى صدرها خشية أن تصطدم فى طريقها بقطعة من أثاث الغرفة ٠٠ وقميصها الطويل يعرقل قدميها الصغيرتين ٠٠ لكنها وصلت أخيرا الى الباب ، وفتحته ٠٠ وفى نفس اللحظة دوى صفير الريح فى الخارج فحجب أزيز الباب عن الاسماع ، وتنفست الصغيرة الصعداء !٠٠ ثم مضت متلصصة فى الممر المؤدى الى غرفة المكتبة ٠٠ حتى بلغتها ٠ وكانت فى وسط الغرفة

مائدة كبيرة ، فمدت يدها كي تتفادى الاصطدام بها ٠٠ وباليد الاخرى راحت تتحسس حافة المدفأة ، حتى لسع الرخام البارد أصابعها ، فانحنت الى أسفل تبحث عن الحذائين ٠٠ هاهو حذاء ٠٠ وهاهو الآخر ٠٠ فوضعت الخطاب فوق أحدهما - فى وضع يجعله ظاهرا - ثم عادت ترتجف ، حتى بلغت فراشها فانسلت اليه ٠٠ وعندئذ فقط أحست بالارتياح الخالص ، وبالدفء !٠٠ فلتعصف الريح فى الخارج الآن كيفما تشاء ، وليلطم الجليد خصاص النافذة بشدة ، فانها لن تحس بردا !٠٠ ان فى قلبها الآن شعلة من لهيب الامل تدفئها ، فهى واثقة من أن أمها لن تخيب رجاءها وتتركها تتعذب !

— ٢ —

◆ الساعة الواحدة صباحا ٠٠ ونافذة غرفة مكتب الكونت ديسيف مايزال ينبعث منها الضوء فيثقب الظلام المتكاثف فى الخارج ٠٠ والكونت جالس فى ركن منها يفكر ، بدل أن ينام !٠٠ فمنذ عام ، عام واحد ، جلس فى نفس الغرفة فى مثل هذه الليلة ، ومعه زوجته ، يعدان الهدايا لاطفالهما ٠٠ فما أقسى صروف الايام ! ان عصف الريح فى الخارج يكاد يعصف بعقل الرجل ، من فرط مايملأ رأسه بالخيالات ٠٠ وانه ليرى زوجته ، كما لو كانت ماتزال حية الى جواره ، بوجهها الشاحب العذب ، وعينيها السمراوين ، وابتسامتها التى كانت دائما تتأرجح على شفتيها الابيتين ٠ وانه لعاجز عن أن يفهم كيف استطاعت التعسة أن تخفى وراء ذلك الوجه ، وتينك العينين ، والابتسامة ٠٠ سرخيانتها الرهيب؟!٠٠ كانت نظرتها تبدو دائما عنوانا للطهر ، ومع ذلك خانته ، وظلت تخونه أعواما٠٠ هو الذى كان يعتبر من العار أن يشك ، مجرد الشك ، فى عفتها !٠٠ فماذا بقى فى هذه الدنيا الكئيبة من خير اذا كانت زوجته العذبة الحبيبة قد تكشفت عن امرأة مخادعة غادرة ، كالاخريات ؟ رباه ! وكيف يتعزى أبدا عن الكابوس الفظيع الذى يصور له أن فمها الحلو الذى طالما تدله شغفا بابتسامته ، قد أوسعه كذبا وختلا ؟! وكيف ينسى أنه حين طلب يدها للزواج بلغ من تأثره بحبه وتقديره لطهارتها أنه أحس «بالخجل» من ذكريات شبابه العابث ؟! وحين سارت معه الى الفندق فى ثوب العرس الابيض خيل اليه أن الثوب الناصع يخفى «جناحى» ملاك العذب ٠٠ فياللاكذوبة الكبرى ! كل مافيها كان أكذوبة : الطهر المرتسم على محياها النبيل ، والحياء الذى لم يكن يفارقها قط !٠٠ و ٠٠ و ٠٠ وانه

ليستعيد فى ذاكرته الآن صور خلوتهما معا فى مخدع الزوجية ، فيرى رأسها الذى ظل يحمل دائما طابع العذراء ، ملقى على الوسادة وسط هالة من الشعر الناعم ٠٠ ثم تفاجئه الرؤيا المفزعة ، فيذهله تصور أن شخصا آخر قد دفن أنامله أيضا فى خصلات شعرها ، وأن مخلوقا سواه قد غمر بقبلاته وجهها الفاتن ، وأطبق شفتيه على شفتيها ، و ٠٠٠ رباه ! من أى وحل خلقت قلب المرأة ، حتى تستطيع مخلوقة أن تواجه زوجها بجبهة عذراء ٠٠ بينما جسدها مايزال نهبا لرعشة قبلات حرام من عاشق خفى ؟

ان الزوج لن ينسى مصادفة وقوفه على الحقيقة الرهيبة ، ليلة الفجيعة ذاتها ! كان قد اختلى بنفسه وذكرياته فى غرفة الفقيدة على أثر تشييعها الى مثواها ، وهو فريسة آلام نفسية أقسى من آلام النزع ٠٠ وفيما هو يجتر ذكرى المتوفاة ، بتقليب حاجياتها ، امتدت يده الى درج صغير كانت تحتفظ فيه بالاشياء الثمينة التى تخشى عليها ٠٠ فعثر فى قاعه على مجموعة الخطابات التى كانت مفتاح السر ٠٠ وعرف منها كل شىء : انه كان لها عشيق !٠٠ وان ذلك العشيق الذى فرطت له فى نفسها لم يكن سوى صديق العائلة ورفيق شبابه المركيز (ديدى) !٠٠ ومضى يقرأ الخطابات ، وهو ذاهل ، فتكشفت له جميع مراحل العلاقة الاثيمة : مرحلة الصراع الاول ٠٠ والتردد ٠٠ ثم ضعف الزوجة ، وتسليمها ٠٠ وندمها ٠٠ وسر مولد طفلتها سيمون ، ثمرة الجريمة ! ٠٠ وكان أكثر مما يحتمل الزوج المفجوع ، والمخدوع ، أن يفجع بعد زوجته ، وشرفه ، فى طفلته المفضلة سيمون ، فيعلم أنها ليست ابنته !٠٠ فغامت عيناه ، وتحطم منه فى لحظة واحدة اضعاف ما حطمت منه الحياة فى سنوات !

وفى البداية فكر أن يقتل صديقه الخائن ٠٠ ثم استبعد الفكرة ، حرصا على سمعة أطفاله وتجنبا لاذلالهم بزلة امهم ، واكتفى بأن أوصد بابه فى وجه النذل ، وضحى بكل شىء - حتى بانتقامه - فى سبيل فلذتى كبده ٠ أما الثالثة سيمون ، فلذة كبد «الآخر» ، فقد طالما اذله مرآها وعذبه التفكير فى شأنها ٠ كان يقول لنفسه أحيانا : «ان المسكينة بريئة » ، لكنه كان لايلبث أن يحس نفسه عاجزا عن أن يغفرلها خيانة امها ٠٠ الخيانة التى ماتزال ترسل الدمع الى عينيه فى هذه الليلة الموحشة لعيد الميلاد ، كما لو كان قد اكتشف الحقيقة المروعة بالامس فقط !٠٠

— ٣ —

◆ ودقت الساعة دقتين ، فجفف الكونت دمعه ونهض ٠ ان وميض الغيرة القاسية يلمع فى عينيه ، كعادته كلما عاودته رؤيا خطيئة زوجته ٠ وبدافع من ارتباط الخواطر وجد نفسه يفكر فى سيمون ٠ كلا ، انه لن يغفر لها اثم أمها قط ٠ ولكم يفزعه أن يلمس الهدايا الموضوعة أمامه على المائدة ، والتى أعدها لها ، كما أعد غيرها لاخويها !٠٠ ليخيل اليه أنه يكره هـذه الطفلة كرها عميقا ، ولم لا ؟ وبماذا يدينه ضميره لوفعل ؟ ألايكفى أنه يؤدى لها واجبات الحياة المادية كاملة ٠٠ فماذا عليه لوأضمر لها فىقلبه الحقد والبغضاء ؟

كان يدير هذه الافكار فى رأسه وهو يصعد السلم الى الطابق العـلوى ليدس لاطفاله هدايا عيد الميلاد فى أحذيتهم ، كى يفتحوا عليها أعينهم فىالصباح ٠٠ وولج غرفة المكتبة ، حاملا هداياه فى يد وفى اليد الاخرى مصباحا صغيرا ، فلم يكد يقترب من المدفأة حتى لمح مظروفا أبيض٠٠فتناوله وفضه ، وأخـذيقرأ :

❖

◆ « أمى العزيزة ٠٠

« أكتب اليك لاطلعك على خطى الجميل ، ولأقول لك انى لم أنس وصاياك الكثيرة لى قبل رحيلك بأن أكون طفلة عاقلة ٠ لكنى ممنوعة من دخول الصالون ، فان بابا يقول ان البنات الصغيرات يجب أن يبقين دائما مع « دادة » ٠ ودادة ظريفة معى ، ولكن « رينيه » ـ أتذكرين العروسة الجميلة التى أهديتنيها ؟ ـ انها لم تعد تسلينى ، وكذلك بقية لعبى الاخـــرى ٠ لاشىء يسلينى منـذ ذهبت أنت ٠٠

« أخى أرمان قص شعره ، وأنا ألبس ثوبا أسـود ، وأخى بيير يلبس الآن بنطلونا طويلا ، لكنه يغيظنى كثيرا حتى أبكى ٠ وأرمان يقـــول ان ذلك طبع سيىء فيه ٠٠ دادة قالت لى انك فى السماء وانك سعيدة ، فلماذا لم تأخذينى معك ؟٠٠ سأكون عاقلة لو أخذتنى ٠٠

« ومادمت فى السماء فاطلبى من «بابانويل» ، الذى يستطيع كل شىء ، أن يجعل بابا يحبنى كماكان يحبنى حين كنت معنا ٠ انه يبعدنى عنه حين أقبله ٠

بيير وأرمان دائما يبقيان معه بعد وقت الدرس ، أما أنا فيرسلنى الى (دادة) لكيلا أزعجه ! انى لاأجرؤ على النظر اليه ، عيناه تخيفاننى ٠ لكنى أقسم لك يا أماه اننى لم افعل ذنبا ، ولم أكذب أبدا ٠ وهو يذهب كل ليلة الى غرفة أخوى ليقبلهما قبلة المساء ، وحين أسمع صوت اغلاق الباب بعد أن يخرج أغمض عينى وأتظاهر بالنوم ، وأنتظره ؟٠٠ لكنه لايأتى الى غرفتى ٠٠ فأظل أبكى حتى أنام ٠

« يا أمى ٠٠ أنا واثقة من أنك لازلت تحبيننى ، فقولى لبابانويل ان بابا لم يعد يحبنى ، واننى أريد أن أموت ٠٠٠ ودعينى أقبلك من كل قلبى »

ابنتك الصغيرة التى تحبك كثيرا

(سيمون)

❖

◆ قرأ الكونت الخطاب ، وأعاد قراءته مرارا ٠٠ أى اعصار هب للحال فى رأسه ، وأية أفكار تناهبته ، وأى صدى تردد فى نفسه لهذا الصوت الباكى الحزين الذى أودع الورق أناته ؟

يا لقوة أسى الاطفال ، هذه الكائنات الصغيرة التى يؤتى بها الى الحياة دون أن تطلبها !٠٠ لم يكد يفرغ الكونت من استيعاب خطاب الصبية ، الذى سكبت فيه كل أساها ، حتى كان واقفا عند رأسها ٠٠ يتأملها وهى نائمة ، وغصته تخنقه !

وحين استيقظت الصغيرة فى الصباح ، لم تدر أهى تحلم ٠٠ أم أنذاك الذى تدعوه « أباها » قد جاء حقا يعانقها فى فراشها ــ كما فى الماضى ــ ووجهه يسبح فى دمعه ؟

ما أسرع ما أجابت أمها ، والسماء ، دعاءها !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى (التمثيلى... والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب ، فى الاعداد السابقة من ((كتابى)) ، المسرحيات العالمية الآتية .. على التوالى : ((خطايا الحب)) لاوسكار وايلد .. ثم ((الحب الآثم)) أو (سلطان الظلام) لتولستوى .. و((نزاهة الحكم)) او(المفتش العام) لجوجول .. و((سلاح المرأة)) لاريستوفان .. و((فولبون)) أو (الثعلب) لـ ((بن جونسون)) .. و((جيوكندا)) لدانونزيو .. و((كلام الناس)) لجوزيه اشيجاراى و((مدرسة الفضائح)) لشريدان ..واليوم اقدم لك هذه المسرحية الفرنسية الخالدة التى أحسبك قد سمعت اسمها يتردد مرارا سواء على السنة الناس أو على صفحات كتاب المنفلوطى المعروف ((الشاعر)) ، أو على شاشة السينما .. الخ - وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله المسرحيات العالمية الآتية : اوسكار وايلد : (مروحة الليدى وندرمير) جون درنكواتر(ابراهام لنكولن) - برنارد شو : (بيجماليون) - مكسيم جوركى : (الصعاليك) - تشيكوف : (الشقيقات الثلاث) - ابسن : (مهزلة الحب) - هوجو : (هرنانى) - موليير : (مدرسة الزوجات ، المريض الموهوم ، البخيل.. الخ) - شكسبير : (عطيل ، هملت ، ماكبث ، ترويض النمرة ، تاجر البندقية ، روميو وجولييت .. الخ) - سوفوكل : (اوديب الملك) .. الخ



سيرانو دى برجراك

قصة تمثيلية كبرى ، للكاتب الفرنسى الخالد :

إدمون روستان



شخصيات الرواية

سيرانو دى برجراك	Cyrano de Bergerac
روكسان	Roxane
كريستيان	Christian
الكونت دى جيش	Comte de Guiche

زمان الرواية : سنة ١٦٤٠

مكان الرواية : باريس

(مثلت لاول مرة على المسرح الباريسى مساء ٢٨ ديسمبر ١٨٩٧)

المسرحية .. ومؤلفها



.. اما اليوم فانا أريد أن انقلك أيها القارىء العزيز الى الجو « الرومانتيكى » الحبيب الذى ينسينا نزعة المادية الرهيبة التى تطغى على حياتنا وافكارنا فى هذا العصر ..

أريدك أن تعيش معى برهة بصحبة « روكسان » العاشقة المعشوقة .. و«سيرانو» العاشق المضحى المنكر لذاته .. و«كريستيان» العاشق الغبى العيى اللسان !

وقبل أن اعرفك بهذه المخلوقات التى ستحبها كما احببتها وكما أحبها كل من عرفها ، أرى من المناسب أن أعرفك بخالقها ومبدعها : « ادمون روستان »

كان أحد أولئك العباقرة الذين يتوهج لهب عبقريتهم عاليا ثم يخبو سريعا .. كتب أولى مسرحياته الناجحة فى سن الخامسة والعشرين ، ثم ألف درته الخالدة «سيرانو دى برجراك» فى سن الثامنة والعشرين ، وشقيقتها «النسر الصغير» فى الثانية والثلاثين .. وفى العام التالى (١٩٠١) ضم الى موكب « الخالدين » بانتخابه عضوا فى الاكاديمية الفرنسية . وفى سنة ١٩١٨ مات عن تسعة واربعين عاما .. ولكن بعد أن استمتع بمجد قل نظيره ، فقد ظفرت مسرحيته «سيرانو» التى نقدمها اليوم باقبال واكبار لم تحظ بهما مسرحية فى فرنسا منذ مثلت تحفة فيكتور هيجو «هرنانى» ! .. بل لقد كتب الناقد ستانلى يونج بصدد سيرانو يقول : «ان شكسبير نفسه لم يعطنا بطلا مثل سيرانو .. ولو استعرضنا جميع مسرحيات كورنى .. وراسين .. وموليير .. وفيكتور هيجو . لما وجدنا مسرحية تفوق سيرانو فى مستواها !»

- ١ -

ترفع الستار عن الفصل الاول فاذا نحن فى مسرح «اوتيل دى بورجونى» فى باريس ، سنة ١٦٤٠ .. وقد بدأ المتفرجون يصلون فرادى متفرقين ، وبينهم الفرسان .. والتجار .. والخدم .. والنشالون .. والشعراء والنبلاء .. والحجاب والسعاة .. وبائعات الازهار .. والموسيقيون .. وسيدات الطبقات النابهة ، ومنهن «روكسان» ابنة عم «سيرانو دى برجراك» ذات الجمال الفاتن .. اما سيرانو نفسه فلم يظهر بعد . لكننا نعرف من امره سلفا ما يحببه الى قلوبنا .. فهو شخص جذاب ، خليط من الرقة والمرح ، والحكمة وسلاطة اللسان !.. **يستطيع ان يبارز بالسيف وينظم اغنية من الشعر بالسهولة ذاتها !.. وهو يتحدى الاوغاد ، ويسخر من الحمقى ، ويهزأ بالعظماء والاقوياء ، لكنه يضعف فى حضرة المرأة الجميلة ! سيما وانه يعانى آثار عيب جثمانى منفر ، هو انفه ذو الحجم الضخم الخارق للمألوف !**

والليلة ـ بصفة خاصة ـ يبدى جميع رواد المسرح لهفتهم الى رؤية سيرانو ، فقد هدد باثارة شغب كفيل بايقاف تمثيل الرواية اذا حاول الممثل البدين الغبى «مونتفلورى» ان يؤدى دوره الاول فيها كالمعتاد ! .. وما تهديده هذا الا بسبب كراهيته لهذا الممثل الثقيل وعدم « استلطافه » اياه ! .. لكن الجميع يتساءلون ويتكهنون فى فضول : ترى هل يجرؤ سيرانو على تنفيذ تهديده ؟

جميع النظارة الان فى مقاعدهم . ومن احدى المقاصير المغلقة يطل السياسى الداهية الكردينال « ريشليو » من ثقب خاص يرى منه كل شىء ، دون ان يراه احد !.. ثم ترفع الستار ايذانا ببدء الرواية ، فيظهر مونتفلورى على المسرح ويبدأ فى تلاوة العبارات الاولى من دوره ، لكنه قبل ان يمضى فى تمثيله يقاطعه صوت من احد المقاعد الخلفية صائحا :

ـ ايها النذل ، الم امنعك من التمثيل ؟

انه صوت سيرانو ، الذى كان قد تسلل فى هدوء الى المسرح قبيل رفع الستار !

وتثور ضجة ، تنتهى الى ايقاف تمثيل الرواية !.. ولكى يعوض الممثلين عن الخسارة المادية التى تصيبهم من وقف الرواية يلقي «سيرانو» بكيس نقوده العامر فوق خشبة المسرح، ويبقى بلا نقود تكفى حتى لدفع اجر عشائه !

ثم يبدأ النظارة فى الخروج تدريجيا من المسرح ، وقد جعل النبلاء منهم بصفة خاصة يتوعدون سيرانو بالانتقام لانه افسد سهرتهم .. وطبيعى انهم يختارون لمهاجمته موضع الضعف عنده فيقول أحدهم ، الفيكونت دى فالفير : « ان لك أنفا هائلا ! »

سيرانو : اعلم ذلك ، لكنى لا اسمح لاحد بان يتحدث فى هذا الامر

الفيكونت : يا للغرور والغطرسة ! انظروا الى الفلاح الريفى .. انه بغير قفاز ، ولاأشرطة ، ومع ذلك يجرؤ أن يتكلم كجنتلمان !

سيرانو : انا لست مزركشا مثل غندور مختال ، لكنى اسير مزودا بالاخلاص مسلحا بالعزة .. وان سيفى ليحس الآن ألما مبعثه الحنين الى تأدية أحد تمريناته الرياضية التى ألفها !

ويقبل الفيكونت تحدى الشاعر للمبارزة .. فينازله سيرانو وهو يتلو ابياتا من شعره الطريف ، ويغلبه بسهولة محددا وقت الطعنة الحاسمة فى نفس اللحظة التى يتلو فيها البيت الاخير من القصيدة !

ويحمل الفيكونت الجريح بعيدا ، ويبقى سيرانو فى المسرح مع نفر ضئيل من اصدقائه الخلصاء ، فيحذره احدهم ـ ويدعى لوبريه ـ من خطورة مهاجمة النبلاء ومخاصمتهم :

لوبريه : انك يا عزيزى تصنع لك اعداء كثيرين !
سيرانو : كم كسبت منهم الليلة ؟
لوبريه : ثمانية واربعين ، عدا النساء .. !
سيرانو : يسرنى ان اسمع ذلك !
لوبريه : ولكن الى أين سيقودك هذا كله ؟ ماهو هدفك فى الحياة ؟
سيرانو : هدفى أن أكون جديرا بالاعجاب فى كل شىء !
لوبريه (يهز كتفيه ويحاول ادارة دفة الحديث الى موضوع آخر) : خبرنى ، ما الذى يحفظك على الممثل مونتفلورى ؟
سيرانو : أكرهه ، لانى عاشق .. أحب أجمل وأذكى وأبرع وأقدس امرأة فى العالم ، ابنة عمى روكسان .. وقد سمح مونتفلورى لنظرته أن تقع عليها ذات مساء ، فخيل الى كأننى أرى دودة قذرة تزحف على وردة جميلة !

◆ **ونعلم أن سيرانو يحب ابنة عمه «روكسان» حبا جنونيا، لكنه يشعر أن حبه عقيم لا جدوى منه ، والا فأين المرأة التى تتزوج رجلا له مثل أنفه الضخم ؟!.. لكن لوبريه يحاول أن يقوى يقينه فيقول له : « لاتكن سريع اليأس هكذا . انس مظهرك واذكر شجاعتك .. ودعابتك .. لقد حانت منى نظرة الى روكسان وأنت تبارز غريمك ، فاذا وجهها بالغ الشحوب ! »**

وكأنما تعزيزا لهذه الكلمات تقبل خادمة روكسان الى المسرح كى تخبر سيرانو أن سيدتها تتوق الى لقائه ! انها ذاهبة الى الكنيسة لحضور (القداس) غدا عند الفجر ، وهى تريد أن تلقاه بعد ذلك مباشرة ، فأين يمكن أن يتقابلا ؟

وتغمر الفرحة سيرانو ، فيعلن استعداده لمقابلتها فى حانوت صانع الحلوى «راجينو» ، فى الساعة السابعة من صباح غد !

لكن أمامه مهمة صغيرة عليه أن ينجزها قبل اللقاء : مبارزة ضد مائة من الاوغاد ! انها ليست مشاجرة لحسابه الخاص وانما

لحساب صديقه الشاعر لينيير ، الذى كتب قصيدة فى هجاء نبيل من أقوى نبلاء باريس نفوذا ، يدعى « الكونت دى جيش» - وهو فى الوقت عينه ابن أخت الكردينال ريشيليو ، وجاسوسه المرهوب ! - وردا على ذلك الهجاء استأجر «دى جيش» أولئك الاوغاد ليترصدوا لغريمه الشاعر فى الشوارع المظلمة فى الليل !٠٠ لكن سيرانو « بطل المروءة » يأخذ على عاتقه مسئولية النزال فيتصدى للاوغاد المائة ويشتت شملهم ٠٠

ثم يسير - وقد أثمله النصر - الى موعده مع روكسان !

- ٢ -

◆ **الساعة** الآن السادسة صباحا ٠ وحانوت الحلوانى « راجينو » يعج بالشبان ذوى العيون الشرهة والشعر الطويل ، الذين ينتظرون افطارهم ٠٠ فان راجينو ليس أبرع حلوانى فى باريس فحسب ، وانما هو راعى جميع الشعراء الجائعين أيضا ٠٠ انه يملأ بطونهم بحلواه ، وهم يملأون أذنيه - مقابل ذلك - بأشعارهم !

وحين يصل سيرانو الى حانوت الحلوانى يجد الشعراء يحتفلون بعيد من « أعيادهم اليومية » التى يختلط فيها الكعك والشكولاتة بالقوافى والاوزان ٠٠ فيعمد الى طردهم من المكان فورا ، كى يستطيع أن ينفرد مع روكسان ، حلم غرامه الجميل !

وفى الساعة السابعة بالضبط تصل روكسان ، كى تبدد حلمه الجميل !٠٠ فانها حقا عاشقة ، لكن الرجل الذى تعشقه هو «كريستيان» ، الشاب النبيل الانيق الذى انضم أخيرا الى أتباع سيرانو من شبان غسقونيا :

سيرانو : وهل جئت بى الى هنا لتقولى لى ذلك !

روكسان : جئت الى هنا لاتوسل اليك أن تدافع عنه ٠٠ لقد

سمعت أن شبان غسقونيا مشاغبون ، يلجئون جميع الاعضاء الجدد الى مبارزتهم ٠٠ فاذا حدث شيء لكريستيان فسوف يحطم ذلك قلبى !

سيرانو : حسنا ياروكسان ، سوف أتولى الدفاع عن « بارونك » الشاب ٠٠

◆ **وتذهب** روكسان ، وقد خلفت سيرانو كسير القلب ٠٠ وفى أثناء ذلك ينتشر فى كل مكان نبأ مبارزة سيرانو للاوغاد المائة ، فيزدحم حانوت الحلوانى بجمهرة من المعجبين الذين جاءوا يهللون له ٠٠ ومن بينهم الكونت « دى جيش » ، الرجل الذى استأجر الاوغاد لمعاقبة «لينيير» والذى جاء الآن ليهنىء سيرانو بانتصاره :

دى جيش : انى فى حاجة الى رجال مثلك ٠ هل لك أن تنضم الى ؟

سيرانو : كلا ياسيدى ، لاأستطيع أن أنضم الا الى نفسى !

دى جيش : حذار أيها الشاب ٠ أنصحك ألا تناطح طواحين الهواء ، فان أذرعها الطويلة لو ضربتها لقذفت بك الى قاع الوحل ٠٠

سيرانو : أو الى مسرى النجوم !

◆ وبهزة من كتفيه النبيلتين يترك دى جيش محدثه «المجنون» لاحلامه ومخاطره ٠٠ ويحيط بسيرانو جمع من المعجبين يسألونه أن يقص عليهم قصة المبارزة ٠ وفيما هو يشرع فى سردها يدلف «كريستيان» الى وسط الزحام ٠٠ **ونرى هذا الشاب الذى تعشقه روكسان فاذا هو شجاع بقدر ماهو أنيق، لكن حيويته تنقصها الحكمة والحذر ، فهو يقاطع سيرانو مرارا أثناء سرده تفاصيل المبارزة باشارات ساخرة الى ضخامة أنفه !٠٠** وفجأة يتوقف سيرانو فى وسط قصته ويصيح بالنظارة : «اخرجوا جميعا !٠٠ واتركونى وحيدا مع هذا الرجل ! » ٠٠

فيخرجون وهم يتهامسون بعضهم لبعض : « انه سوف يفرمه فرما ! » ·· بينما يبقى سيرانو وكريستيان ، وجها لوجه :

سيرانو : عانقنى !

كريستيان : ولكن ياسيدى ··

سيرانو : عانقنى ·· أنا أخوها !

كريستيان : أخو من ؟

سيرانو : أخو روكسان ·· لست أخاها بالضبط ، بل ابن عمها ·· وأريد أن أساعدك !

ويسر كريستيان بسماع ذلك فى البداية ، لكنه يستطرد بعد لحظة مبتئسا :

كريستيان : أخشى أن تكون مغازلتى لها عقيمة ··

سيرانو : لماذا ؟

كريستيان : لانى لاأجيد الدعابة · اننى غبى ، بينما روكسان ذكية للغاية ، وحين تسمعنى أتكلم أشعر أننى فقدت مكانتى عندها !

سيرانو : لاتبتئس ·· سوف أعير فصاحتى لجاذبيتك ، وبهذا المزيج من الاثنين تستطيع الظفر بها !

كريستيان : ولكن لم تكلف نفسك كل هذا العناء ؟

سيرانو : انها نزوة شاعر · أريد أن أجرب موهبتى فيك ·· أى عاشق مثالى يتألف من جمالك ودعابتى !

◆ **وهكذا** يتم الاتفاق على أن يصبح سيرانو مصدر الوحى لكريستيان فى ملاحقته لروكسان ·· فيكتب الرسائل الحارة اليها ويذيلها باسم كريستيان !·· بل انه فى احدى المناسبات يعير منافسه شفتيه وليس قلمه فقط ، فقد جاء كريستيان ليغازل محبوبته من تحت شرفتها ، ووقف سيرانو بجانبه · كانت الليلة ظلماء شديدة الحلكة ، وخرجت روكسان الى الشرفة ·· فهمس كريستيان لسيرانو : « لقد وجدت فصاحتى أخيرا ! »

•• لكنه لايكاد يبدأ الكلام حتى يتلعثم كعادته ، فيستدير نحو سيرانو مستنجدا : « أغثنى ! »

ـ حسنا ، قف هناك أمام الشرفة ، وسأختبىء أنا وراء الاشجار • قف ولا تنطق بكلمة ، فسأكون أنا لسانك •• !

وعندئذ ، فى همس مفعم بالعاطفة ، يفرغ سيرانو أشجانه وقلبه فى مسامع محبوبته روكسان ، وتفرغ هى بدورها قلبها لكريستيان ، الواقف تحت شرفتها فى الظلام لاينطق بحرف ! لكنه بتأثير حرارة حبها يشير لسيرانو كى يصمت ، ويطلب هو من حبيبته قبلة !

روكسان (تتراجع) : ماذا ؟ ماذا تطلب ؟

سيرانو (يفطن لما طلبه كريستيان فيتدارك الموقف) : أطلب قبلة !

روكسان : ابق مكانك ••

سيرانو : وماذا فى القبلة وقد أفصح القلب عن مكنون عاطفته ؟ ما القبلة الا بقعة وردية تزين أحرف كلمة «أحبك» •• تذوق للحب بحافة الشفاه •• عيدمشترك لزهرتين جائعتين ! الخ

روكسان : حسنا ، تسلق الشرفة وخذ نصيبك من العيد !

يتسلق كريستيان الشرفة •• وفى تلك اللحظة يظهر راهب يحمل مصباحا فى يده ، فيظهر سيرانو نفسه لينقذ الموقف قبل أن يكشفه نور المصباح :

سيرانو : هالو ••

روكسان : من هناك ؟

سيرانو (متظاهرا بأنه قد وصل فى التو) : كنت مارا بالمصادفة •• أرجو ألاأكون قد أزعجتك ••

ثم يستدير الى الراهب ليتبين أمره ، فاذا هذا يحمل رسالة الى روكسان من سيده النبيل القوى النفوذ «دى جيش»، المتيم هو بدوره غراما بروكسان ! •• يتناول سيرانو الرسالة

فيفضها ويقرأها ، ثم تخطر له فكرة مفاجئة فيقول للراهب ، الجاهل بمحتويات الرسالة : « **هذه الرسالة تحوى أمرا من (دى جيش) الى روكسان ، يأمرها فيه بالزواج من كريستيان فورا ، وقد وقع عليك الاختيار للقيام باجراءات العقد !** »

ويدخل الراهب الى بيت روكسان لتنفيذ المهمة ٠٠ لكن طريق العاشقين مايزال محفوفا بالمصاعب ٠٠ فان دى جيش لايكتفى برسالته وانما يتبعها بزيارته الشخصية لمحبوبته ٠٠ وهكذا نراه يطرق باب روكسان !

لكن بديهة سيرانو تسعفه فى الموقف المعقد ، فيعمد الى حيلة من حيله بغية تأخير دخول دى جيش الى داخل البيت حتى تتم مراسم الزواج ! ومن ثم يتسلق الماكر الشرفة من جانبها — دون أن يراه الزائر البغيض الذى يطرق الباب — ثم يهبط منها مستعينا بأحد الاغصان متعمدا أن يسقط على الارض عند قدمى الطارق غير المرغوب فيه :

دى جيش : ماهذا ؟ من أين هبطت أيها الرجل ؟

سيرانو : من القمر ٠٠!

ويستعين سيرانو بالظلام الحالك على اخفاء شخصيته ، فيغير معالم صوته ويروح يقص على دى جيش ، بأسلوب شائق ودعابة بارعة ، تفصيلات رحلته الخيالية الى القمر(١) ، ثم عودته من الكوكب المضىء فى التو واللحظة ٠٠!

◆ **وتنجح** الحيلة ، وتعوق القصة « دى جيش » عن الدخول نحو ربع ساعة ، وفى النهاية يظهر سيرانو صوته الحقيقى فيتعرف فيه دى جيش على غريمه ويصيح غاضبا :

دى جيش : مامعنى هذا كله ؟

سيرانو (فى هدوء) : معناه أن روكسان وكريستيان قد تزوجا منذ لحظات !

---

(١) اقرأ معي قصة هذه الرحلة الشائقة في صفحة ٤٥



ويبدو الغيظ على دى جيش من هذا النبأ ، لكنه يبتسم حين يذكر أنه يملك الورقة الاخيرة ، فقد عهدت السلطات اليه الليلة بقيادة فرقة شباب غسقونيا ، التى ينتمى اليها كريستيان ٠٠ ومن ثم نراه يدخل ليقول لروكسان وهو ينحنى لها انحناءة ساخرة :

دى جيش : سيدتى ٠٠ تقبلى تهانئى ، وتأهبى لتوديع زوجك !

روكسان (مذعورة) : ماذا ؟

دى جيش : انه ماض الى الحرب ٠٠

روكسان : ماض الى الحرب ؟

دى جيش : نعم ، لقد تلقت فرقتى الامر بالرحيل فورا لمحاصرة « أراس » ٠٠

روكسان : ولكن زوجى ؟

دى جيش : زوجك وبقية أتباع سيرانو من شباب غسقونيا سيذهبون مع بقية الفرقة ٠٠

وترتمى روكسان بين ذراعى زوجها الحبيب كريستيان ، لكن قلب دى جيش لا يلين ، وكأنه قد من الصخر !٠٠ ويسمع من بعيد قرع الطبول فيصيح دى جيش : « هيا ٠٠ الفرقة راحلة ، ولا وقت لدينا نضيعه ! »

ورغم توسلات روكسان ودموعها ينتزع زوجها من أحضانها ٠٠ فتستدير فى محنتها نحو سيرانو مستنجدة :

روكسان : عدنى أنه سيعود سالما !

سيرانو : سوف أحاول ، لكنى لاأستطيع أن أعد !

روكسان : اذن عدنى أن لايكون مستهترا بحياته ، وأن لايصيبه البرد أوالجوع ٠٠ وأن يبقى مخلصا لى !

سيرانو : سأبذل كل مافى وسعى ، ولكن ٠٠

روكسان (مستطردة) : وأن يكتب لى بانتظام ٠

سيرانو : آه ، هذا أعدك به وعدا قاطعا !

— ٣ —

◆ فاذا كان الفصل الثالث فنحن فى ميدان القتال أمام بلدة «أراس» ، حيث نرى فرقة شباب غسقونيا فى حالة يرثى لها ٠ فبينما هم يحاصرون أراس ، يأتى الاسبان فيحاصرونهم هم ! وفضلا عن ذلك فان الطعام لم يصل اليهم منذ مدة ، حتى لقد باتوا على وشك الوقوع فرائس للمجاعة ٠٠

وخلال هذه المحن كلها حرص سيرانو على التسلل الى خطوط الاسبان كل ليلة كى يرسل خطابه اليومى الى روكسان بانتظام ، حسب وعده ٠٠ بعد أن يذيل الخطاب باسم كريستيان كالعادة !

الشمس تنهض فوق أسطح منازل «أراس» من بعيد ٠٠ وشباب غسقونيا مايزالون يغطون فى النوم ، بينما سيرانو فى خيمته يكتب احدى رسائله الغرامية الى روكسان ٠ **تنحدر دمعة من عينه على الورق فتلطخه ٠٠ والطبول تقرع ايذانا بنهوض الجنود من النوم ، فيفتح هؤلاء عيونهم على يوم جديد يقاسون فيه الجوع !٠٠** يغادر سيرانو خيمته على صوت تذمرهم كى يسرى عنهم بدعاباته ٠٠ ويلتفت الى أحد عازفى الفرقة قائلا : « اذا لم يكن عندنا مانأكله فلتسمعنا لحنا نفطر به ! »

ويعزف الرجل لحنا من ألحان غسقونيا الغنائية ، فينسى الجنود أنفسهم وحاضرهم فى غمرة أحلام بيوتهم وماضيهم ٠٠ فى الحقول الزاهرة حيث الوجوه الباسمة والشمس المشرقة ٠٠

لكن مفاجأة تقطع عليهم غناءهم ومرحهم وأحلامهم ، حين يدخل قائدهم دى جيش الى وسطهم لينهى اليهم أنه وقف من مصدر سرى على نبأ مفاده أن العدو يستعد لمهاجمتهم ٠٠ فيهب الجميع ليتأهبوا للمعركة المنتظرة ، ويقترب سيرانو من كريستيان فيضع يده على كتفه قائلا : «تشجع ياولدى ٠٠ ! »

كريستيان : لو أستطيع فقط أن أكتب الى روكسان رسالة وداع بليغة !

سيرانو : لقد كتبتها بالنيابة عنك فعلا ٠٠

ينظر كريستيان الى الرسالة التى يحملها سيرانو ، ويهتف به : « ماذا ؟٠٠ ورصعتها بدمعة من دموعك أيضا ؟ »

سيرانو (وهو ينظر الى الرسالة بعدم اهتمام متكاف) : نعم ٠٠ ألا ترى من الغريب أن ينساق الشاعر وراء دوره التمثيلى الى هذا الحد ؟

لكن كريستيان يبدأ أن يرتاب فى الامر ٠٠ بينما يسمع من بعيد ضجيج فى المعسكر ، صوت عجلات عربة تقترب ، ولا تلبث أن تقف وتهبط منها روكسان !

سيرانو (مذهولا) : كيف استطعت اختراق خطوط الاسبان ؟

روكسان : بكل سهولة ٠ قلت لهم اننى ذاهبة لأرى حبيبى ٠٠ والاسبان شعب يقدر العواطف !

كريستيان : ولكن ، ياحبيبتى ٠٠ يجب أن تبتعدى عن هذه المنطقة حالا ، فالاعداء يتأهبون لمهاجمتنا !

روكسان (تعانقه) : اذن فينبغى أن أبقى لاقاتل مع زوجى جنبا الى جنب ٠٠

وتمد روكسان الجنود بشجاعة مضاعفة ، وبالطعام أيضا ٠٠ فان حوذى عربتها لم يكن سوى «راجينو» الحلوانى ، وقد ملأ كل ركن من عربته باللحوم والشراب ٠٠ فيجلس الجنود ليحتفلوا بالمأدبة المواتية ، ثم يفرغوا منها وهم على أتم استعداد للقتال ٠٠

وتشاء الظروف أن يكون أول شهيد يسقط فى المعركة : كريستيان .. الذى أدرك أخيرا مبلغ تدله سيرانو فى حب روكسان ، فعرض نفسه لرصاص الاعداء عامدا !

ويأتون بجثته الى المعسكر ، فتجد روكسان فى ثيابه رسالة اليها ، واذ تفضها وتقرأها تلتفت الى سيرانو قائلة فى تأثر : «أو لم يكن بربك شخصا نبيلا ، وشاعرا رقيقا ، وذهنا متوقدا ، ونفسا سامية ؟ »

ـ نعم ياروكسان ..

ـ أنظر ، هذه دموع على الخطاب ! .. أهى دموعه ؟

ـ نعم ياروكسان !

وتخر روكسان منتحبة فوق جثمان حبيبها .. بينما تحتدم المعركة فيندفع شباب غسقونيا الى حتفهم والاغنية على شفاههم !

— ٤ —

◆ **فاذا** كان الفصل الرابع فقد انقضت على الحوادث السالفة خمسة عشر عاما ، ودخلت روكسان الدير حزنا على حبيبها كريستيان ، الذى ظلت ذكراه موضع اعزازها ومنبع كل ماهو نبيل وعميق فى طياتها ! .. وفى كل يوم سبت ، فى ساعة معينة لاتتغير ، يأتى سيرانو ليزورها ، فيتحدثان عن كريستيان .. لكن سيرانو يمر الآن بظروف أليمة ، **فان اخلاصه وأمانته قد ألبا عليه جميع أوغاد باريس الذين بلغوا بنذالتهم قمم النجاح فى الحياة ! بينما أمسى هو فريسة للفقر والجوع والنسيان! ورغم ذلك فهو يضحك ويسخر ويمارس دعاباته كما فى الماضى الغابر !** .. وهو يقول لراهبات الدير مازحا كلما جاء لزيارة روكسان : «لقد أكلت لحما أمس!» .. لكن الراهبات يعرفن الحقيقة الموجعة ، وهى أنه لم يأكل بالامس لحما ولا سمكا ، وهن يقدمن اليه ـ من قبيل الشفقة عليه ـ وعاء من الحساء مساء كل يوم سبت !

لكن فقـــره وجوعه ليسا هما ألدأعدائه ، فان أعداءه لايقنعون بأقل من موته !٠٠ وهكذا ، ذات يوم ســبت ، وهو خارج لزيارة روكسان ٠٠ يلقون عليه كتلة ضخمة من الخشب تصيبه اصابة بالغة !

وروكسان جالسة تنتظره علىأحر منالجمر ! **انه لم يتأخر قط عنموعده ، ففىساعة محددة منكلسبت تسمع عصاه تدق الممر المؤدى الى غرفتها ٠٠ لكن الساعة دقت اليوم وهو لميأت٠ تأخر لاول مرة خلال خمسة عشر عاما !٠٠ ترى ماذا يمكن أن يكون قد وقع له ؟**

ولكن ٠٠ ها هىعصاه تدقالممر ٠٠ لقد جاء ســيرانو كعادته ٠ لكن قبعته مدلاة فوق جبهته أكثر منالمألوف :

روكسان : ماذا أخرك ؟

سيرانو : زائر كريه لحوح ٠٠ لكنى طردته قائلا : اليوم يوم السبت ، فتعال بعد ساعة ٠٠!

ويغمض عينيه ، ويسقط رأسه على صدره ٠٠ وحينيعود الى صوابه يحاول أن يتجاهل الامر مازحا : « لاشىء ٠٠ انهـا أثار جرح قديم أصبت به فى معركة اراس ، تعاودنى بينالحين والآخر ٠٠ »

روكسان : أنا أيضا أصبت بجرح فىأراس ، وهو مايزال باقيا **(تضع يدها على صدرها)** هنا يقبع خطابه الاخير ، وقـد اصفر ورقه ٠٠ لكنه مايزال يحمل آثار دمه ٠٠ ودموعه !

سيرانو : أتسمحين لى بقراءة الخطاب ؟

روكسان : نعم ٠

وتعطيه الخطاب ، فيقرأه : «**روكسان ، اننى على وشكأن أموت ٠٠ فوداعا** » ٠٠ وفيما هويقرأ فقرات خطابه تظلم الدنيا حوله ، تدريجيا ٠٠ لكنه يمضى فى القراءة ، من ذاكرته !٠٠

وتضع روكسان يدها على كتفه : «كيف تستطيع أن تتبين الحروف فى هذه الظلمة ؟»

وعندئذ تلوح لها الحقيقة ، فتهتف به : «لقد كنت أنت ! .. وهذه الدموع دموعك ؟»

ـ نعم ، لكن الدم دمه هو !

وتنتهى زيارته لروكسان ، فيتأهب لملاقاة الزائر الآخر : الموت ! .. ويروى لروكسان قصة الاعتداء الآثم عليه ، ويريها جبهته المهشمة قائلا : « **ياللقدر من ساخر عجيب ! لقد طالما أردت أن أموت بيد بطل ، ذات ليلة رائعة ، تحت سماء صافية ، وطرف السيف مغروس فى قلبى .. والدعابة على طرف لسانى ! .. ولكن هأنذا الآن أموت قتيلا بقطعة خشب تصيبنى من الخلف ، من يد جبان رعديد ! .. يالها من نكتة مستملحة ! طيلة حياتى لم أنل أمنية طمعت فيها .. ولا حتى ميتة مشرفة !**

روكسان : انى أحبك .. يجب أن تعيش !

سيرانو : كلا ، كلا ، الوقت قد فات .. فانى أرى زائرى قد لحق بى هنا (**ينهض فيستل سيفه**) سألقاك واقفا على قدمى ، وجها لوجه .. ماذا تقول ؟ لا جدوى ؟ أعلم ذلك . ولكن ما من لذة فى القتال حين يكون لدى الانسان أمل فى النجاح ! .. كلا ، فالامتع من ذلك أن يقاتل ولا أمل لديه على الاطلاق .. كنت أعلم أننى سأنهزم فى النهاية ، ولكن لا بأس ، كان ينبغى أن أقاتل وأقاتل ، وأقاتل ! .. **والليلة ، حين أمثل أمام ربى ، سيكون فى جعبتى شىء واحد حر .. جميل .. نظيف .. هو ..**

روكسان : هو ماذا ؟

سيرانو : قلمى !

(ســتار)

سيرانو .. بين الحقيقة والخيال !



◆ والآن ، هل تعلم أيها القارىء أن «سيرانو دى برجراك» لم يكن شخصية خيالية ابتدعها «ادمون روستان» من العدم ، بل كان شخصا حقيقيا عاش فعلا فى القرن السابع عشر، وترى صورته الى يمين هذا الكلام؟ .. كان اسمه الكامل « سافينيان سيرانو دى برجراك» ، ولد عام ١٦١٩ ومات سنة ١٦٥٥ . وخلال حياته القصيرة برزت مواهبه كشاعر ومحدث بارع الدعابة ، وفى الوقت نفسه كمقاتل خاض مئات المبارزات بالسيف، واشتبك فى الكثير من المعارك ! . . بل انه ساهم فى الادب المسرحى بكتابة عدة مسرحيات ، اهمها مأساة «اجريبينا» - ١٦٥٣ - وكوميديا « المتحذلق » - ١٦٥٤ - وكانت تمثيلياته تظفر باعجاب الاديب الخالد موليير !.. ولسيرانو مؤلفات اخرى طريفة فى غير المسرح ، منها «التاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات القمر» - الذى الخصه لك فى الصفحات التالية - ثم منها كتابه الآخر عن امبراطوريات «الشمس» .. والطبعات الباقية من هذه المؤلفات تحمل آثار قلم الرقيب البتار فى عصر محاكم التفتيش ، فقد كان سيرانو معدودا من المفكرين الاحرار «الخطرين» !.. وفضلا عن ذلك فان هذه القصص الساخرة التى تمزج العلم والمغامرة بالحب والخيال تعتبر شائقة حتى فى نظر القارىء العصرى .. بل انها التى أوحت فى القالب لفولتير بقصته الفلسفية «ميكروميجا» ، وللروائى الانجليزى «سويفت» بكتابه المشهور «رحلات جوليفر » .. الخ

والآن ، تعال معى نقلب فيما يلى صفحات سفر «سيرانو» الشائق عن رحلته الى .. القمر ! وستلمس بين سطور الخرافة التى يحفل بها الكتاب فلسفة عميقة ، وفكرا ثاقبا ، وسخرية مرة صادقة .. من عالمنا الارضى !



١ ـ الوصول الى القمر

◆ بعد عدة تجارب شاقة أفلحت فى صنع آلة تطير فى الهواء !.. ثم جلست فوقها والقيت بنفسى فى الفضاء من فوق قمة جبل .. لكنى لم أكد أصعد فى طبقات الجو مسافة نصف ميل حتى طرأ على «طائرتى» خلل جعلها تهوى الى الارض !.. وهنا ـ لدهشتى البالغة ، وفرحى ـ وجدتنى بدلا من أن أسقط معها من حالق ، أواصل تحليقى وصعودى الى أعلى خلال الفضاء الساكن الذى يضيئه نور القمر .. ولبثت أصعد اكثر فاكثر على هذه الصورة نحو ثلاثة أرباع ساعة .. وفجأة ، أحسست بكل ثقل جسمى كانما يسقط فوق رأسى ! لم أعد ارتفع فى هدوء عن الارض ، بل رحت أهوى فى اندفاع الى .. القمر ! وأخيرا اصطدمت بشجرة وسقطت فى رفق فوق الحشائش..

وألفيت نفسى وسط غابة جميلة متشابكة الاغصان ، تصدح فى جنباتها البلابل والطيور المفردة ، بحيث خيل الى كأن كل ورقة على كل غصن من أغصان الشجر لها صوت «كروان» وهيئته !.. وكانت الارض مغطاة بأزهار جميلة غريبة ، ذات أريج سحرى لم أكد أستنشقه حتى صغرت فى السن عشرين عاما ، وتحول شعرى الاغبر القليل الى شعر بنى غزير متماوج الخصلات وزالت من وجهى الغضون والتجاعيد فبات متوردا منتعشا .. وجرى دمى فى عروقى بسرعة دم الشباب وقوته وتدفقه ..!

وادهشنى أن لا أجد فى الغابة اثرا لبشر .. وانما صادفت اثناء تجوالى فى أرجائها حيوانين قويين ضخمى الجسم ، يبلغ طول الواحد منهما نحو اثنى عشر ذراعا ، أقبل احدهما نحوى .. بينما فر الآخر مبتعدا .. لكنه لم يلبث أن عاد بعد قليل ومعه نحو سبعمائة من الوحوش الاخرى ! وحين اقتربت

هذه منى لاحظت انها شبيهة بالآدميين فى شكلها ، وان كانت تسير على أربع ، وكأنها فصيلة من القردة الضخمة ..

وهللت الحيوانات مرحبة بى حين رأتنى ، وحملنى واحد منها فوق ظهره واندفع يركض فى اتجاه مدينة كبيرة تقع خارج الغابة . وحين رأيت مبانى المدينة الرائعة ادركت غلطتى ، فان تلك المخلوقات التى تسير على أربع كانت فى الواقع «بشرا» مفرطين فى الضخامة ! واذ رأونى أسير على قدمين اثنتين لم يصدقوا انى انسان مثلهم .. وانما حسبونى حيوانا ، مجردا من الادراك ! واعتزموا أن يرسلونى الى ملكتهم التى كانت مولعة بجمع الوحوش الغريبة النادرة ..

يتفاهمون بالموسيقى .. والحركات !

◆ لكنى لم افهم وقتئذ بالطبع كل هذه «المفاوضات» التى كانت تجرى بشأن مصيرى ، فانى لم أتعلم لغة القوم الا بعد عدة أشهر . وكانت لهم بدل اللغة الواحدة لغتان : واحدة للخاصة والنبلاء ، واخرى للعامة ..

أما لغة الخاصة فهى أشبه بالموسيقى ، وهى وسيلة للتعبير جميلة بهيجة للغاية . فهم يفصحون عن أفكارهم بالعود ، والآلات الموسيقية الاخرى، بمثل السهولة التى نفصح بها نحن عن أفكارنا بالصوت واللسان !.. وحين يجتمع عشرون أو ثلاثون منهم للمناقشة فى مسألة ، تتألف من مناقشتهم «جوقة» موسيقية من أروع الجوقات التى يمكن تصورها ، من حيث تناسق الانغـــام !

◆ أما العامة فيتكلمون بواسطة تحريك أجزاء مختلفة من أجسامهم . فهناك حركات خاصة تؤلف «حديثا» طويلا ! وهم يستطيعون - بهز اصبع ، أو يد ، أو ذراع - أن يقولوا أكثر مما نستطيع نحن أن نقول فى ألف كلمة !.. وهناك حركات اخرى - كتقطيبة من الجبين ، أو رجفة فى احدى العضلات - تقوم مقام الكلمات !.. ولما كان القوم يستخدمون كل جسمهم فى الكلام ، على هذا النحو ، فان عليهم فى هذه الحالة أن يخرجوا من بيوتهم عراة ، كيما يستطيعوا الافصاح عن أفكارهم بوضوح ! وهم حين ينهمكون فى حديث مثير أو مناقشة حامية ، تبدو هيئتهم وكأنهم فريسة لحمى ضارية تهز كيانهـم هزا عنيـــفا !

تقمص الارواح

◆ وبدلا من أن يرسلنى الرجل الذى أسرنى من فوره الى «ملكة القمر» ، راح يجمع المال الطائل من الطواف بى كل أمسية على بيوت الاغنياء ، حيث كنت اجبر على الرقص والقفز والقيام بحركات تثير ضحك الحاضرين ، وتسلى الضيوف الذين دعوا الى البيت لمشاهدة غرائب أطوار «الحيوان» الجديد !

ولكن ، ذات يوم ، فيما كان «سيدى» يجذب الحبل حول رقبتى كى انهض فأرفه عن الجمع الملتئم فى المكان .. اقبل رجل فسألنى باليونانية من أكون ؟ وفى نشوة فرحتى بالعثور على شخص أستطيع التحدث معه ، سردت عليه قصة رحلتى منذ غادرت الارض بطائرتى .. واردفت متسائلا : «لست افهم كيف صعدت أنا الى القمر ، فى الوقت الذى سقطت فيه طائرتى المحطمة الى الارض !» .. فاجابنى محدثى : «هذا أمر سهل الايضاح للغاية ، فقد حدث ذلك حين دخلت فى نطاق جاذبية القمر ، حيث يكون للقمر مفعول «امتصاص» المواد الدهنية من جسم الانسان ! وهذا الامر يحدث لى أنا ايضا فى أوقات كثيرة ، فانى - مثلك - غريب عن القمر ، ولدت فى الشمس ، لكنى بحكم ميلى الفطرى الى الطواف والتجول يلذ لى أن ارتاد كوكبا وراء آخر من الكواكب السيارة .. فوق انى طفت بكثير من بلاد أوربا ، وتحدثت الى شخصيات كبيرة معروفة .. واذكر انى كنت يوما شخصا مشهورا ذائع الصيت فى بلاد اليونان القديمة ، باعتبارى «شيطان سقراط !»

فسألته مدهوشا : « اذن فانت روح هائمة ؟ »

فأجابنى : «الى حدما .. فقد كنت أحد أفراد جماعة «ابناء الشمس» ، تلك الجماعة الكبيرة التى كانت فى البداية تقطن الارض متسترة وراء اسماء مستعارة ، مثل : الجن ، والحوريات ، والاقزام .. الخ - لكننا لم نلبث أن هجرنا عالمكم فى عهد الامبراطور اغسطس قيصر ، حين صرتم من الفظاظة والغباء بحيث لم يكن فى وسعنا أن ننعم بمعاشرتكم .. ومنذ ذلك التاريخ اتخذت القمر مقرا لى ، فلقد وجدت أهله أكثر استنارة وثقافة من أهل الارض!..»

لكنى أجبته : «أما أنا فأخالفك فى هذا الرأى .. والا فانظر كيف يعاملنى القوم هنا بقسوة ، كما لو كنت وحشا مفترسا !؟ فى حين انى موقن من انه لوقام واحد من علماء القمر برحلة الى الارض ، لاستقبله أهلها بأحسن مما استقبلت انا هنا !»

لكن محدثى اجابنى ساخرا : «اشك فى ذلك ، بل لكان رجال العلم عندكم قتلوه ، وحنطوه ، ثم وضعوه فى صندوق زجاجى بأحد المتاحف !

« فن » طهى الطعام فى القمر !

◆ وعند هذا الموضع قطع حارسى مناقشتنا ، بدعوى أن الجماعة قد تعبت من حديثنا ، الذى بدا لهم مجرد «قباع خنازير» ! .. ومن ثم جذب صاحبى الحبل حول رقبتى وجعلنى ارقص واقفز حتى استلقى الحاضرون على ظهورهم من الضحك ..

وفى صباح اليوم التالى ـ لحسن الحظ ـ فتح ابن الشمس قفصى واركبنى فوق ظهره ثم حملنى الى بعيد .. وخلال الطريق قال لى : « لقد تحدثت الى ملك القمر بشأنك ، فأمر بنقلك الى قصره كى يفحصك اطباؤه البارعـــون»

ولما كان صاحبى يسير على أربع ، فقد استطاع ان يقطع المسافات بسرعة جواد السباق .. فسرعان ما وصلنا الى مدينة اخرى ، حيث دخلنا الى احدى الحانات كى نتناول غداءنا . وتبعت صاحبى الى قاعة فاخرة مزينة بأبدع الرياش ، فلم نكد نجلس الى احدى الموائد حتى تقدم منا خادم يسألنى بأى لون من الطعام أود أن ابدأ ..

فأجبته : «بشىء من الحساء ..»

ولم اكد انطق بالكلمة حتى ملأت انفى رائحة مرق شهية نفاذة .. فتلفت حولى لارى مصدر هذه الرائحة اللذيذة ، فلما لم أر شيئا نهضت للبحث عنها .. لكن مرافقى استوقفنى قائلا :

ـ الى أين انت ذاهب ؟ ابق حيث انت وأتم حساءك ..

ـ ولكن أين هو الحساء ؟

ـ آه ، هذه أول وجبة طعام تتناولها فى القمر . اذن دعنى اوضح الامر لك : ان القوم هنا يعيشون فقط على روائح الاطعمة .. فان فن الطهى الراقى الذى ابتكره أهل القمر يقضى بجمع ابخرة اللحم المطبوخ وتخزينها فى أوعية وزجاجات .. فلا تكاد تحين أوقات الطعام حتى ترفع السدادات عن مختلف الاوعية والبرطمانات ، فتفوح روائحها حتى تشبع شهية الجالسين .. !

قلت وقد فغرت فمى : «أحسب هذا اسلوبا رفيعا فى تناول الطعام .. لكنى اخشى ان أموت جوعا بسببه !»

فقاطعنى ابن الشمس : «بل لن يصيبك أى أذى ، فانك لن تلبث أن تتبين ان الانسان يستطيع أن يتغذى جيداً بأنفه كما بفمه ..»

وقد كان ، فبعد أن استنشقت لمدة ربع ساعة خليطا متتابعا من الابخرة الشهية الغنية بروائح الطعام ، شعرت - لدهشتي - بانى شبعت تماما !

المرأة تفر دائما .. من الجنة !

◆ وفى العصر آخذونى الى قصر الملك ، حيث فحصنى اشهر اطباء القمر وعلمائه . وبرغم كل ما ذكره صاحبى عنى فقد قضى هؤلاء مرة اخرى بانى مجرد حيوان ، وحبسونى من جديد فى قفص !

وصار الملك والملكة وافراد حاشيتهما يقضون فترة من الوقت كل يوم فى التفرج على .. وبمساعدة ابن الشمس لم البث أن تعلمت شيئا من مبادىء الكلام بلغتهم الموسيقية ، الامر الذى أثار دهشة القوم البالغة .. فبدأ بعضهم يرتاب فى أن أكون حقا من البشر ، وما صيرنى قزما ضعيفا غير نقص التغذية فى عالمنا الارضى !

لكن نطس الاطباء والعلـماء أعادوا فحصى مرة ثانية ، فانتـهوا من مشاورتهم الى تقرير انى ما دمت لا أمشى على أربع ، فلا بد أن أكون نوعا جديدا من الببغاء بلا ريش !.. ومن ثم وضعوا لى فى قفصى عصا افقيـة أتارجح عليها ، بدلا من الفراش الدافىء المريح الذى كنت أنام عليه !.. وصار صياد طيور الملكة يأتى كل يوم فيصفر لى بعض الالحان كى أتعلمها .. وفى هذه الاثناء كنت من ناحيتى أضاعف معلوماتى فى لغة أهل القمر ، حتى صرت أخيرا أتكلمها باتقان أدهش القوم وجعلهم يتشككون فى صحة قرار الاطباء الفطاحل !

بل ان واحدة من وصيفات الملكة لم تكتف بالاقتناع بانى انسان مثلها ، وانما وقعت ايضا فى هواى !.. وصارت تتسلل كل حين الى قفصى لتصغى الى قصصى ، ولاسيما ما تعلق منها بعادات وتقاليد أهل الارض .. وبلغ من اعجابها واهتمامها بعالمنا انها توسلت الى كى آخذها معى فيما اوقدر لى أن أجد سبيلا للعودة الى الارض ..

٢ ـ رداء العار .. وفلسفة الشيخوخة !

وكنت قد قررت أثناء فحص الاطباء لى أن عالمهم هو القمر ، وأما الارض التى جئت انا منها فهى العالم الحقيقى .. وقد كان قولى هذا هو الذى أغضب العلماء الفطاحل منى !.. لكن صديقى ابن الشمس توسط لى عند الملك كى يطلق سراحى من القفص مقابل رجوعى عن رأيى ذاك وسحبى لاقوالى، أو توبتى عن كفرانى !.. وعندئذ جاءنى من البسنى حلة فاخرة ، واركبنى عربة رائعة ، يجرها اربعة من النبلاء المظام !.. ثم مضى بى الموكب على هذا النحو الى قلب المدينة ، حيث تقرر أن ألقى بالتصريح التالى :

«ايها الناس ، اعلن اليكم ان هذا القمر ليس قمرا ، بل عالما كامـل المقومات .. وان الارض التى جئت انا منها ليست عالما ، وانما هى القمر .. فهذا ما يعتقد مجلس البلاط والمستشارون الملكيون انه الحق الجدير بأن تؤمنوا به ..»

وحين فرغت من القاء تصريحى ركبت العربة عائدا من حيث أتيت ، ثم عاوننى ابن الشمس على الهبوط من العربة ، وقادنى على عجل الى أحد المنازل حيث خلع عنى ثيابى الفاخرة .. فسألته عن الداعى الى هذه العجلة، ولماذا يحرمنى من هذا الرداء الذى هو أجمل رداء رأيته منذ وصولى الى القمر !.. لكنه أجابنى من فوره : «انه رداء العار ياصاحبى ، ولقد تحملت أنت اليوم أحط مهانة يحكم بها على انسان فى هذا العالم .. وذلك عقابا لك على جريمتك البشعة التى ارتكبتها حين قلت أن القمر ليس عالما بمعنى الكلمة .. وانه لمن حسن الحظ أن أشفق القوم عليك فلم يحكموا عليك بان تموت بالشيخوخة !

ـ أموت بالشيخوخة ؟ ماذا تعنى ؟

ـ العادة هنا فى القمر انه حين يصل شخص الى السن التى يحس فيها بانه بدأ يفقد قواه ـ الذهنية والجسمية ـ يتحتم عليه أن يدعو أصدقاءه جميعا الى مأدبة كبرى . وبعد ان يلقى كلمة يعبر فيها عن تضاؤل أمله فى أن يضيف شيئا مذكورا الى قائمة أفعاله العظيمة التى اداها طيلة حياته ، يستأذن اهل القمر فى الرحيل .. فاذا كان قد عاش حياة شريرة ، يحكم عليه بأن يبقى على قيد الحياة ، ويقاسى مرارة الشيخوخة والعجز .. اما اذا كان رجلا فاضلا ، عاش حياة نافعة ، فعندئذ يتقدم منه اخلص صديق له فيقبله .. ثم يغمد خنجرا فى قلبه !

وفيما صاحبى يتكلم دخل الى المكان ابن صاحب المنزل الذى كنا فيه .. فنهض صديقى على عجل ، على قوائمه الاربع ، وانحنى للشاب القادم انحناءة أدب وتوقير .. فهمست له بعد حين متسائلا عن حكمة تصرفه ذاك ، فاخبرنى بان العرف فى القمر يقضى بأن يطيع الآباء اولادهم ، ويجبر المتقدمون فى السن على أن يظهروا للشباب أعمق آيات الاحترام !

ثم أضاف محدثى يشرح حكمة هذا التقليد : «انهم يعتقدون ان الشاب القوى النشط أقدر على رعاية الاسرة من الشيخ المهدم المتداعى .. وانا أعلم أن أهل عالمكم الارضى يعتبرون الشيوخ حكماء ، فطنين ، لكن الواقع أن حكمتهم وفطنتهم انما تصدران عن عقلية جامدة ، وجبن عن مواجهة الاخطار ..»

وهنا دخل الاب الغرفة ، فبادره ابنه فى صوت غاضب : «لماذا لم تعد العدة كى يقلع منزلنا بالشراع ؟ انت تعلم ان اسوار المدينة قد انتقلت منذ عدة ساعات . احضر لى صورتك حالا !»

فاحضر الاب صورة خشبية كبيرة لشخصه ، واذ ذاك انهال عليها ابنه جلدا بالسياط فى حدة وغضب ، لمدة ربع ساعة !.. ثم قال لابيه اخيرا : «والآن اذهب فانشر الاشرعة فورا ..»

بيوت « شراعية » متحركة !

◆ .. ذلك أن فى القمر نوعان من المدن : المدن المتنقلة ، والمدن الثابتة .. اما المدن المتنقلة فقد شيد كل منزل فيها من خشب نادر الخفة ، واقيم فوق «رصيف» خاص له أربع عجلات ضخمة .. وعندما يحين أوان انتقال الاسرة الى شاطىء البحر أو الى الغابة ، طلبا لتغيير الهواء ، ينشر أهل المدينة أشرعة كبيرة مثبتة فوق أسطح منازلهم ، فتسوقهم الريح الى حيث يريـــدون .. !

أما المدن الثابتة ، فقد شيدت بيوتها على العكس بلوالب ضخمة قوية تمتد من البدروم الى السطح ، بحيث يمكن خفض البيوت الى باطن الارض فى حفرة أو تجويف خاص أعد خصيصا بحيث يساوى عمقه ارتفاع المنزل ، حتى يمكن ايواء البناء بأكمله فى الشتاء تحت سطح الارض ، ثم رفعه ثانية فى الربيع ..

ولما كان المنزل الذى كنا فيه قد تعذر «اقلاعه» فى ذلك اليوم ، بسبب اهمال الاب ، فقد أرجىء ذلك الى اليوم التالى . ودعيت انا وصاحبى لقضاء الليلة تحت سقفه .. وكم كانت دهشتنا حين ارسل مضيفنا يستدعى طبيبا ، كى يصف لنا أى نوع من الاطعمة ينبغى ان نستنشق ، وأى نوع من الفراش يحسن ان ننام فيه !

فلسفة الصحة والمرض !

◆ وقلت لابن الشمس متعجبا : «لكنى لست مريضا !» .. فاجابنى : «لو كنت مريضا لما استدعى لك طبيب .. ففى القمر لا يتقاضى الاطباء اجورا نظير شفائهم للناس ، بل نظير حفظ صحتهم دائما فى حالة جيدة .. وهم فى حكم الضباط المجندين بواسطة الدولة لهذا الفرض ، فتراهم يمرون على كل بيت مرة كل يوم لارشاد اهله الى أفضل الوسائل للاحتفاظ بصحتهم وقواهم الطبيعية ..»

وهنا انتهزت الفرصة فقلت لمحدثى : «بودى لو تقنع الطبيب بأن يأمر لى بنحو «دستة» من القنبر (القمرى) المحمر ، بدلا من الاكتفاء بانشاقى رائحتها .. فانى أكاد أموت شوقا الى تذوق أى طعام ملموس ، ولو على سبيل التغيير ؟»

وتوسط لى صاحبى لدى الطبيب ، فأشار هذا لمضيفنا بالقبول . وعندئذ حمل الاخير بندقيته وقادنى الى الحديقة .. وهناك سألنى وهو يشير الى سرب هائل من القنبر المحلق عاليا فى الفضاء : «أهذه هى الطيور التى تشتهيها ؟» .. فلما اجبته بالايجاب اطلق بندقيته عليها .. وعندئذ هوت عند اقدامنا ثلاثون قنبرة ، لا ميتة فحسب ، بل ومندوفة الريش ، ومطهية شهية محمرة !

واذ لاحظ مضيفى دهشتى البالغة ، أردف موضحا : «الامر غاية فى البساطة ، فنحن نخلط البارود الذى نستعمله فى الصيد بمواد خاصة تطهى الطائر الذى تقتله !»

والتقطت قنبرة من «الوليمة» التى هبطت من السماء ، وأكلتها .. واعترف لوجه الحق الخالص انى لم اذق فى حياتى على «الارض» طعاما ما محمرا شهيا الى ذلك الحد !

يناموں على الورد !

◆ وحين فرغت من وليمتى قادونى الى حجرة صغيرة غطيت ارضها «بمرتبة» من براعم زهر البرتقال ارتفاعها ثلاثة اقدام !.. فان سكان القمر يناموں دائما على هذه الاكوام الغزيرة الناعمة من الزهور العطرة ، التى يختار لهم اطباؤهم نوعها كل يوم ، وفقا لحالتهم الصحية !

وأقبل أربعة من الخدم فخلعوا عنى ثيابى ، ثم دلكوا جسمى واطرافى فى رفق ، فلم تمض دقائق حتى كان قد سرقنى النعاس ..

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى استيقظت من نومى الشهى على صوت صاحبى يقول لى : «أعلم انك مشوق الى أن تعود الى «ارضك» ، لتروى الى اهلها قصة كل الاشياء الغريبة الخارقة التى مرت بك منذ وصولك الى القمر .. فاليك كتابا تقضى فى مطالعته ساعة أو اثنتين حتى ادبر لك أمر رحلة العودة ..»

.. ويقرأون الكتب بآذانهم !

لكن «الكتاب» الذى وضعه بين يدى كان شيئا غريبا بدوره . كان نوعا من الآلة المليئة بمفاتيح وازرار دقيقة مختلفة ، بل كان فى مظهره أشبه بطراز جديد من الساعات . ولكى تقرأه عليك أن تستخدم اذنيك لا عينيك !.. وهكذا لم أكد ألمس أحد مفاتيحه حتى بدأ يتكلم ، كما لو كان رجلا(١) !.. وكان الصوت يتحدث عن تاريخ الشمس ، وفيما أنا اصغى اليه عاد صاحبى الى يقول : «انا على استعداد .. على أى جزء من الارض تود أن تهبط ؟»

فأجبته : «ايطاليا !.. فذلك يوفر لى نفقات ومشقة سفرى الى روما ، العاصمة التى طالما اشتقت الى رؤيتها ..»

واخذنى ابن الشمس بين ذراعيه ، وحلق بى فى خفة فى الفضاء ، عبر المساحات الشاسعة .. حتى انزلنى ، فى شىء من العنف ، فوق تل قريب من روما ..

وحين استدرت لاعاتبه على عنفه .. وجدته قد اختفى !

---

(١) لعل هذه أول نبوءة فى العالم عن اختراع «الراديو» ، قبل اختراعه بنحو ثلاثمائة عام !

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة «جورجيت هودو» ملكة الجمال الباريسية.. فمحاكمة السفاحين «بيرك» و «هير» . . ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم «سقراط» .. ومحاكمة «آن بولين» ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن .. فمحاكمة «دريفوس» .. ومحاكمة «ستافيسكى» .. واخيرا محاكمة «مرجريت فهمى»

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه المحاكمة الفذة ، التى اماطت اللثام رسميا - لاول مرة - عن حقيقة قصة مصرع الراهب الروسى الداعر الدجال «راسبوتين» ، مستقاة من اعترافات قاتله الرسمية ، كما شهد بها أمام منصة العدالة !

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله فى هذا الباب مجموعة منوعة من القضايا والمحاكمات الكبرى التى احدثت دويا ، سواء فى الشرق او الغرب، ومنها: محاكمة « فلورنس ماى بريك » - وهى المحاكمة التى تعتبر سبة فى جبين القضاء الانجليزى .. ومحاكمة «الكابتن كيد» .. ثم مجموعة شائقة من المحاكمات الجنائية الاخرى التى لمع فيها نجم المحامى العالمى « مارشال هول» .. وعشرات غرها

الجريمة.. والعقاب



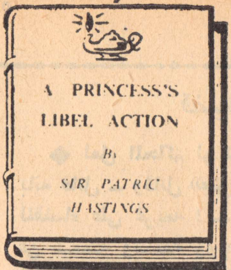
المحاكمات الكبرى

فى الماضى والحاضر

اعترافات

قاتل راسبوتين !

القضية التى أماطت اللثام عن قصة
مصرع الشيطان الداعر ...





قضية فريدة فى بابها ..

◆ لعل المحاكم لم تشهد فى تاريخها « شاهداً » تطوع بالاعتراف بانه قاتل - وقاتل «متوحش» ، استخدم السم والرصاص والعصا معا للقضاء على غريمه ! - أقول «تطوع» مختارا بهذا الاعتراف ، دفاعا عن سمعته وسمعة زوجته .. فلم يؤخذ القاتل المعترف من منصة الشهادة الى المشنقة ، أو حتى الى السجن ، بل أقر القضاء ما رمى اليه من تبرئة شرفه وشرف زوجته من كل ما يشين !..

هذا ما حدث فى القضية التى رفعتها ابنة اخت قيصر روسيا السابق على شركة «متروجولدوين ماير» السينمائية منذ اعوام عقب العرض الاول لفيلم «راسبوتين» ، الذى اضطلع بدوره الاول الممثل القدير «ليونيل باريمور» ..

وهذه تفصيلات القضية ننقلها بأمانة ، مع ما تضمنته من قصة «راسبوتين» وفضائحه ومصرعه ، عن كتاب للسير «باتريك هاستنجز» المحامى الذى أخذ بناصر المدعية فى هذه الدعوى التى أماطت اللثام رسميا - لاول مرة - عن قصة مصرع شيطان القيصرية الداعر !

نعم .. أنا قتلته !

- أنا قتلته .. قدمت له فطائر مسمومة ، فأكلها .. ولكنه لم يمت .. فاضطررت الى أن أطلق عليه الرصاص ..!

وكانت أنظار القاضى والمحلفين والجموع التى زخرت بها المحكمة ، عالقة بالرجل المشوق القامة ، الانيق المظهر ، الذى صدرت عنه هذه العبارات .. ولكن قسمات وجهه لم تختلج مع ذلك أتفه اختلاج .. لا ولم تهتز جارحة فى جسده .. بل كان بادى الهدوء والثبات .. حتى اذا فرغ من الاجابة عن الاسئلة التى وجهت اليه ، سار فى تؤدة .. **لا الى المشنقة .. ولا الى الكرسى الكهربائى .. ولا الى قفص الاتهام على الاقل .. وانما الى مقاعد الشهود ، ليرقب بقية المحاكمة ، وكأن عباراته**

لم تكن تحمل كل ما فى معانى كلماتها من جريمة ، وفظاعة ، وهـول يبعث القشعريرة فى الاجسـاد ٠٠٠ فلما انتهت المحاكمة ، غادر القاعة فى نفس الهدوء والثبات !٠٠ ليس هذا فحسب ، بل انه غادرها محوطا بمظاهر التكريم والاجلال ٠٠!

ومع ذلك ، فقد تضمنت عباراته ما يميط اللثام عن جريمة من أكبر الجرائم فى التاريخ الحديث ٠٠ جريمة اهتز لها بلاط امبراطورية كانت من أقوى الامبراطوريات وأوسعها رقعة ونفوذا ٠٠ وسرى الاهتزاز من البلاط الى الامبراطورية كلها ، ومن هذه الى العالم بأسره ٠٠!

الرجل الذى أوتى قوة سحرية !

◆ **كان** ذلك حين رفعت الاميرة « ايرينـــا الكسندروفنا يوسوبوف » دعوى ضد شركة « متروجولدوين ماير » تتهمها بالقذف والتشهير بها فى « الفيلم » السينمائى الذى أخرجته قبيل الحرب الاخيرة عن «راسبوتين»، الشخصية الغريبة الرهيبة، التى خلعت عليها الاقدار قوة سحرية غامضة ، مكنتها يوما من أن تسيطر على مقاليد الامور فى البلاط القيصرى الروسى ٠٠ بل على مصائر الامبراطورية الروسية بأسرها ٠٠!

ولقد قيل ان « راسبوتين » كان راهبا ٠٠ ولكن الواقع ان أحدا من المؤرخين لم يستطع أن يجزم بشىء عن أصله ، اذ كان منبته ونشأته محوطين بأستار كثيفة من الغموض! كل ما يعرف عنه فى هذا الصدد انه ولد فى قرية « بوكروفسكو » بسيبريا ، باسم « جريجورى افيموفتش » ٠٠ وكان في شبابه الباكر يسرق الجياد من البرارى ويبيعها ، وهى مهنة كان أهل سيبريا يعتبرونها أحط ما ينسب الى كائن بشرى !٠٠ وأثناء تجواله اتصل برهبان أحد الاديرة ، وكانوا من المتصوفين ، فأخذ منهم بعض قشور نزعتهم هذه التى لم تلبث أن انقلبت عنده الى مجون جنسى ودعارة سافرة ٠!



راسبوتين .. رجل الدنيا !

ولم يستطع أحد أن يحدد ملابسات انتقاله من حياة التشرد والتجوال هذه الى حياة الاستقرار فى العاصمة « موسكو » .. فقد برز فيها فجأة ، واستطاع أن ينفذ الى بلاط القيصر فى سنة ١٩٠٧ .. وسرعان ماصار محور آراء متناقضة ، متضاربة: **اذ رأى فيه البعض قديسا راحوا يبالغون فى اجلاله واكباره حتى كانوا يجعلون منه آلها !.. بينما اعتبره البعض الآخر وغدا أفاقا ، وشريرا خطرا !..**

وكان مظهره قذى للعيون : بادى القذارة ، أشعث ، أغبر ، ذا طباع منفرة تثير النفوس .. وكان رغم المظهر الدينى الذى انتحله ، سكيرا يغرق فى الخمر الى حد الابتذال .. ومع ذلك ، فقد كان يزعم انه أوتى قوة خفية فذة تمكنه من أن يشفى أى مريض ، مهما استعصى داؤه .. واستطاع بتأثير سحرى طاغ أن يسيطر على عقول الكثيرين فيقنعهم بذلك !

يتسلل الى بلاط الامبراطور

◆ **وكأنما** كانت الاقدار فى خدمته ، فمهدت له الفرصة المناسبة للظهور فى بلاط « سانت بيترسبورج » ـ بلاط قيصر روسيا ـ فقد اشتدت بابنه (ولى العهد) علة استفحلت حتى أعيت نطس الاطباء ، الذين استدعوا خصيصا من كافة أرجاء أوربا ، فعجزوا جميعا عن كشف كنهها ، وبالتالى عن علاجها.. وبرح الداء بالامير الصغير حتى أوشك أن يورده حتفه ..

وفى اللحظة التى استبد فيها اليأس بالاطباء فسلموا بعجزهم ،


راسبوتين .. رجل الدين !

قصت احدى الوصيفات على القيصرة ـ أم الصبى ـ ما شاع عن القوة الخارقة الغريبة التى أوتيها « راسبوتين » ، وما كان ذلك الراهب الغامض يذيعه فى كل مكان بشأن قدرته على التغلب على كل داء ، بحيث لا تستعصى علة ما على سلطانه !

وفى غمرة أساها وحزنها اليائس المفجع ، كانت القيصرة الوالهة كالغريق ينشد قشة يتشبث بها .. فسرعان ما استدعى «راسبوتين» الى القصر ، واقتيد الى مخدع ولى العهد ..!

ولم يدر أحد ماذا فعل « راسبوتين »، ولكن الذى لمسه الجميع ان صحة الامير الصغير بدأت فى التحسن بمجرد ولوج « راسبوتين » مخدعه !.. ولم تلبث حتى انجابت عن الصبى آلامه ، وانقشعت غيوم الخطر ، ثم خفت العلة رويدا حتى تلاشت !.. فاستطاع «راسبوتين» أن يزعم بملء فمه أن مقدرته السحرية قد أنقذت ولى عهد الامبراطورية من موت محقق ..!

◆ **وكان** طبيعيا أن لا يقف عرفان القيصر والقيصرة لفضل « راسبوتين » عند حد ، فلم يضنا عليه بعطاء مهما غلت قيمته ، ولم يبخلا عليه بمكانة مهما سمت ذروتها !.. وهكذا قفز « راسبوتين » فى يوم وليلة ، من دجال مشرد فى طرقات المدينة، الى مرتبة الصفى الاثير عند سيد الامبراطورية وسيدتها !..

ولو أن الخبيث كان يومئذ يطمع فى مال أو جاه ، لهان الامر ٠٠ ولكنه كان يطمع فيما هو أعظم وأخطر : فى النفوذ ، والسيطرة ، والسلطان ! ووجد فى القيصر الذى كانت تضنيه المتاعب ، وفى القيصرة التى كانت تسف فى الشعور بأنها مدينة له بحياة ابنها ٠٠ وجد فيهما الاداتين اللتين يتذرع بهما لتحقيق أطماعه ٠٠ !

وكانتا أداتين لينتين مطواعتين ، **فان هى الا أشهر قلائل حتى غدا « راسبوتين » الحاكم الفعلى لروسيا بأسرها : صارت اقتراحاته أوامر ، ومشورته للقيصر رغبة لا ترد ! ٠٠ أو على حد القول الذى شاع فى روسيا يومئذ : « كان القيصر يحكم روسيا ، والقيصرة تحكم القيصر ، وراسبوتين يحكم الاثنين ! » ٠٠ ومن هنا راح صاحبنا يخفض ويرفع ، يعزل ويولى ، يذل ويعز ٠٠** حتى لم يعد فى روسيا كبير أو صغير ، قائد أو سياسى ، يحس اطمئنانا أو سكينة نفس بازاء أفاعيل الساحر الرهيب ٠٠ الذى لم يغيره ما نال من حظوة وسيادة ، فظل على ما كان عليه : سكيرا ، قذر الهيئة ، أشعث المنظر ٠٠ !

القاتل الذى أنقذه الرأى العام !

◆ **وكان** محتوما أن يثير كل هذا كراهية القوم لراسبوتين ، داخل القصر الامبراطورى وخارجه ٠٠ كراهية يذكى أوارها الخوف ! ويؤجج سعيرها ما أشيع من أن هذا الشيطان الذى تقمص فى مسوح راهب ، لم يكن سوى جاسوس ألمانى ، يسعى الى الغدر بروسيا ٠٠ والى خلع القيصر واعتلاء مكانه ! ٠٠ فكانت أن ثارت النعرة القومية فى الصدور ، وراحت تزيد النار اشتعالا ٠٠

لكن أحدا لم يكن يجرؤ مع ذلك على أن يمد يده الى «الشيطان» بسوء ، فقد كان الجميع يرهبونه ، كانت الاحداث قد أظهرت ان السم لا يؤثر فى أحشائه ، وان الرصاص لا ينفذ فى جسمه ! ٠٠ وكان الاعتقاد السائد ان الرجل محوط بهالة مغناطيسية سحرية تصد عنه السوء ، وتحميه من كل شر أو ضر !

شخص واحد استطاع أن ينتزع نفسه من غمرة هذه الرهبة وذاك الخـوف ، ويستهين بالقوة الســحرية المنسوبة الى « راسبوتين » ، فآلى على نفسه أن يقتله ٠٠ وقتله !

ولكن الكراهية التى كانت تملأ صدور الشعب الروسى بأسره ضد « راسبوتين » ، والمكانة التى كانت لقاتله ، والمحتد النبيل الذى كان ينتسب اليه هذا القاتل ، استطاعت أن تجتمع لانقاذه من بطش القيصر ، فاكتفى بأن أقصاه وزوجه عن البلاط ، وأمرهما بأن يلزما ضـيعة من أملاكهما فى بقعة نائية من روسـيا لا يبرحاها ٠٠

وظلا فى « معتقلهما » هذا حتى شبت نار الثورة فى روسيا ، فعمدا الى الفرار ٠٠ وراحا يهيمان على وجهيهما فى أرجاء أوربا ، حتى استقر بهما المقام فى احدى عواصمها ، يعيشان مجردين من كل ما كان لهما من ثراء ، وجاه ، ومكانة !

مصرع « راسبوتين » على الستار الفضى

◆ **ومرت** السنون ٠٠ وقتل القيصر وأفراد أسرته ٠٠ ومات كل من كان لهم نصيب فى المأساة ، أو دراية بحقيقتها ٠٠ وتتابعت الاعوام ٠٠ وبعدت شقة الزمن ٠٠

ثم خطر لشركة « متروجولدوين ماير » الامريكية ، أن تتخذ من مأساة « راسبوتين » موضوعا لفيلم تثير به مشاعر الناس ، وتكسب به نصرا فنيا وماديا ٠٠ وحرصت على أن تأتى قصة الفيلـم أقرب ما تكون الى الحقيقة – ان لم تكن هى الحقيقة بحذافيرها – فمثلت فيه شخصيات القيصر ، والقيصرة ، وابنهما ، والراهب الشيطان (وكانوا جميعا قد فارقوا الحياة ، فلم يك ثمة ما تخشاه الشركة فى شأنهم من اعتراض أو احتجاج ، أيا كان مصدرهما)

ولكن بقيت شخصيتا القاتل وزوجته ٠ وكان أمرهما مشكلة عويصة راحت الشركة تتوسل الى حلها بشتى الحيل – اذ كانا لا يزالان على قيد الحياة ! – فانتهى الامر بها الى ابتكار شخصيتين

خياليتين : شخصية الامير «تشيكوديف» ، الذى زعمت الشركة انه قاتل « راسبوتين » !٠٠ وشخصية أميرة زعمت أنها كانت خطيبته ثم تزوجت منه بعد الجريمة!٠٠ وزيادة فى حبك القصة، وهز مشاعر رواد السينما، حرفت الشركة حقيقة بعض الوقائع، فادعت ان « راسبوتين » تسلط على ارادة الاميرة المذكورة بقوته السحرية الخارقة ، واعتدى على عفافهـــا !٠٠ وجعلت من هذه الواقعة الخيالية المكذوبة نقطة هامة من النقط التى ترتكز عليها عقدة القصة ٠٠

الاميرة تتهم ٠٠

◆ **وقوبل** « الفيلم » فى العالم كله باهتمام وضجة اعجاب٠٠ الا من شخصين : الاميرة « ايرينا الكسندروفنا » ، وزوجها الامير يوسوبوف ٠٠ اللاجئين الروسيين اللذين كانا يقيمـان وقتئذ فى لندن ٠٠

وسرعان ما رفعت الاميرة دعوى أمام القضـــاء ضد شركة « متروجولدوين ماير » تتهمها فيها بالتشهير بها ، فقد كان زوجها الامير « فليكس يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » الذى مثلته الشركة فى شخصية « تشيكوديف » ٠٠ وبالتالى ، كانت هى الاميرة التى مثلت فى شخصية «خطيبة» تشيكوديف٠٠ **ومن ثم فان واقعة الاعتداء على عفاف تلك الخطيبة كانت كفيلة بأن تسىء الى سمعة الاميرة ، وتحرج مركزها بين عارفيها ، وتنال من قدرها فى أعينهم ومن تقديرهم واحترامهم لها ٠٠!**

وأنكرت الشركة ما عزى اليهـا ، ودفعت بأن الشخصيتين اللتين أظهرتهما على الستار الفضى هما من خلق الخيال ، وانهما بعيدتان كل البعد فى الملامح والاوصاف والخلال عن الاميرة « يوسوبوف » وزوجها ٠٠ فضلا عن ان الاميرة التى ظهرت على الستار كانت خطيبة للامير القاتل ، فى حين أن « ايرينـــا الكسندروفنا » كانت متزوجة من الامير « يوسوبوف » عند ما اغتيل « راسبوتين » ٠٠

وكانت النقطة الوحيدة التى رأى محامى الاميرة « سير باتريك هيستنجز » ـ مؤلف هذا الكتاب وراوى القصة ـ انها تصلح لان يستند اليها فى تعزيز دعواه ، هى انه ما دام « يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » ، وما دامت الشركة قد أعلنت وأكدت ان قصة فيلمها مأخوذة عن الحقيقة التى وقعت فعلا ، فلا بد أن يكون المقصود من شخصية الامير « تشيكوديبف » أن تكون صورة خيالية ليوسوبوف ٠٠ ومن ثم فالاميرة الخيالية فى الفيلم ، تمثل زوجته الاميرة « ايرينا » !٠٠

فى ساحة القضاء ٠٠

◆ **لكن** القضاء لا يقنع بالمنطق ، ما لم تدعمه القرائن والادلة القاطعة ٠٠ وكانت القرائن والادلة كلها تتجمع فى نقطة واحدة ، لا بد من الوصول اليها : هى الحصول على اعتراف من الشركة بأن الامير « يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » !

ولكن محامى الاميرة لم يرتقب من الشركة اعترافا كهذا يقضى على حججها ودفاعها ، **ومن ثم فقد كان عليه أن يقنع القضاء بأن « يوسوبوف » هو القاتل!٠٠ ولم يكن أمامه من سبيل الى ذلك غير تقديم الامير الى المحكمة كشاهد ، كى يدلى بالدور الذى لعبه فى المأساة ٠٠ ويعترف علنا أمام المحكمة بأنه ٠٠ قاتل !**

ورسم « هاستنجز » خطته فى « تاكتيك » بارع ٠٠

وحان يوم نظر القضية ٠٠ فحفلت المحكمة بالرواد الذين جذبتهم الى قاعتها ، سواء ممن عرفوا شخصى الاميرة وزوجها ، أو ممن عرفوا القصة وألموا بالتاريخ ٠٠

وكان الجو ـ داخل القاعة ـ مشحونا بتيارات من كهرباء العواطف ، والمشاعر ، والانفعالات ٠٠ والكل فى فضول ، ولهفة ، وترقب ، وتحفز ٠٠ وفى مقدمتهم جميعا : محامى الاميرة !

اثنان فقط ظلا محتفظين بهدوئهما ورزانتهما ورباطة جأشهما ،

فجلسا رافعين رأسيهما فى نبل وجلال ٠٠ وهما : الامير « يوسوبوف » ، وزوجته الاميرة « ايرينا » ٠٠ صاحبة الدعوى!

الاميرة تدافع عن شرفها ٠٠

◆ **وكان** محامى الاميرة المدعية قد أحكم « تاكتيكه » على أساس أن تستدعى الاميرة للادلاء بأقوالها قبل أن تمضى المحاكمة فى طريقها شوطا طويلا ، فقد كان يعتمد على شخصيتها فى انتزاع « عطف » الجمهور والمحلفين ٠٠!

وتقدمت الاميرة فى خطى متئدة ، ثابتة ، متزنة ، فاتخذت موقعها فوق المنصة ٠٠

وعندما سئلت عن اسمها ، رفعت رأسها فى كبرياء غريزى ، تقول :

ـ « ايرينا الكسندروفنا يوسوبوف » ٠٠ صاحبة السمو الملكى ، واحدى أميرات الاسرة الامبراطورية الروسية ٠٠ وابنة أخت قيصر روسيا السابق ٠٠ وزوجة الامير « فليكس يوسوبوف » منذ سنة ١٩١٤ ٠٠

ثم انطلقت تشرح قضيتها فى نبرات هادئة ، ولفظ واضح ، واخراج دقيق للكلمات ٠٠

واطمأن محاميها وهو يراها قد غلبت الموقف فلم تتأثر بالانفعالات التى يثيرها ، أو تحفل بما راحت هيئة الدفاع عن الشركة تحاول أن تحرجها به من أسئلة ٠٠ ولا اهتزت لما بذلت الهيئة من مناورات لاستثارتها ٠٠ أو فترت همتها بفعل ما دبر ضدها من حيل لاسدراجها الى الفخاخ التى أعدت لها ٠٠ بل انها أفلحت فى أن لا تغضب حتى لكرامتها حين حاول ممثل الخصوم أن يظهرها بمظهر الطامعة فى أموال الشركة ، لا الثائرة لسمعتها وشرفها ٠٠!

وهكذا مضت الاميرة تروى قصتها : انها زوجة الامير « يوسوبوف » ، و « يوسوبوف » هو قاتل « راسبوتين » ٠٠

هو الشخصية الحقيقية لتشيكوديبف بطل قصة « الفيلم » ٠٠ وما غرر بها « راسبوتين » ، ولا اغتصبها ، ولا نال قلامة ظفر من شرفها أو عفافها ٠٠ ومع ذلك فقد جاءت الشركة فأظهرتها فى الفيلم فى مظهر كفيل بأن يؤثر على احترام النـــاس لها ، لا سيما وان معارفها جميعا يعلمون ان زوجها هو قاتل الراهب الشيطان ٠٠ ولا سيما وان الشركة زعمت فى دعايتها ان كل وقائع الفيلم مأخوذة عن الواقع !

القاتل يعترف والخصم يعارض !

◆ **واستطاعت** الاميرة أن تحرك عواطف الجمهور ، وأن تستأثر بانتباه وعطف هيئة المحكمة والمحلفين والحضورجميعا !

ولكن هذا لم يكن يكفى لاقناع القضاء ٠٠ لا بل ولم يكن ينطوى على أى دليل قوى يثبت شخصية قاتل « راسبوتين »!٠٠

وهنا ، نهض « باتريك هاستنجز » فسأل محامى الشركة :

– هل يعتقد الموكلون عن الشركة المدعى عليها ان ثمة خلافا فى أن مصرع « راسبوتين » تم على يد الامير « يوسوبوف » ؟٠٠

وكانت تلك هى ذروة « التاكتيك » الذى أعده « هاستنجز » ورسم كل نقطة فيه بعناية وبراعة ٠٠

وأمسك الحضور بأنفاسهم٠٠ وسقط محامو الشركة فى الفخ الذى أعد لهم ، فلم يتردد المتكلم باسمهم فى أن يجيب بقوله :

– اننا نرتاب كل الريب فى ذلك ٠٠

وكانوا يتوقعون أن يحرج جوابهم « هاستنجز » ، اذ من أين له الدليل المقنع ؟٠٠ لم يكن ثمة دليل ســوى شخص الامير « يوسوبوف » ، واعترافه٠٠ **ولكن، هل يجرؤ المحامى على احراج زوج موكلته ؟٠٠ وهل يقبل الامير ويجرؤ على الاعتراف فى ساحة القضاء بجريمة قتل ارتكبها ؟٠٠**

ولكن « هاستنجز » لم ير بأسا فى أن يستأذن المحكمة فى سماع شهادة الامير « يوسوبوف » !٠٠ ولم يتردد الامير بدوره

فى اقتحام الموقف، فسار فى خطى رزينة وقورة الى منصة الشهود ٠٠ وهناك وقف منتصب القامة ، رافع الرأس ، رابط الجأش ٠٠

مال ، وجمال ، وجاه ٠٠

◆ **وتحدث** عن أصله ٠٠٠

كان سليل آخر أباطرة « التتر » ، ووريث مجدهم ٠٠ فلقد حدث عندما اجتاحت جحافل الروس أراضيهم ومحت ملكهم ، أن أشفق « ايفان الرهيب » على ابن الامبراطور الذى استشهد وهو يذود عن حياض ملكه ، فتبناه وكفله ورعاه ٠٠ ولعله كان يرمى بذلك الى استرضاء القبائل « التترية » وكسب ودها ٠٠

ونشأ الامير ـ الذى اتخذ لنفسه اسم « يوسوبوف » ـ فى رعاية « ايفان الرهيب » ، الذى رباه كما لو كان ابنا له ٠٠ حتى اذا أوشك « الاب » أن يقضى نحبه ، أقطعه مساحات شاسعة من الارض ، قيل انها كانت تفوق كل حصر ٠٠

وفي أوائل العقد الثانى من القرن العشرين ، كان الامير « فليكس يوسوبوف » ـ الذى مثل فوق منصة الشهود فى قضيتنا هذه ـ هو الوريث الاوحد لاسرة الامير التترى المتبنى، فآلت اليه ثروة الاسرة الطائلة بأكملها ٠٠

وكان يوسوبوف شابا موفور الفتوة ، جميل الخلق والخلقة ، جذابا ، لبقا ٠٠ تكاد ثروته تفوق كل خيال ، فلم يكن للمال عنده حساب ، ولم تكن ثمة رغبة يعز عليه منالها ٠٠

وفي سنة ١٩١٤ ، تزوج الامير من الاميرة «ايرينا الكسندروفنا» ـ ابنة أخت القيصر ـ وكانت أبرز زهرات البلاط القيصرى ، وأفتنهن جمالا ٠٠ فعاشا فى قصر « مويكا » عيشة كان الكل يغبطونهما عليها ٠٠

كان قتله « واجبا » على !

◆ **وانتقل** الامير الشاهد بعد ذلك الى سرد قصته مع « راسبوتين » : كان هو فى مقدمة من هالهم استفحال نفوذ ذلك

الافاق الداعر ٠٠ وكان يكره فيه سيطرته على القيصر ـ ومن ثم على الامبراطورية الشاسعة! ـ ويزدريه لاغراقه فيمعاقرة الخمر، ولما شاع عنه من مباذل جنسية ومجون وفضائح ٠٠!

وعندما قويت الريب فى أن « راسبوتين » كان جاسوسا ألمانيا، يسعىلتقويض عرش القيصر وسلطانه ، لم يستطع الامير « يوسوبوف » أن يكظم جماح سخطه ٠٠ وهبت النوازع الوطنية تزيد نيران الحقد اتقادا ٠٠ غاظه أن الكل كانوا يرهبون الساجر الدجال ، فآلى على نفسه أن يخلص الوطن من شروره وآثامه ٠٠

وارتفع صوت الامير فى قاعة المحكمة يقول دون أن يفارقه هدوؤه العجيب :

ـ وقتلت « راسبوتين » ٠٠ كان واجبى يقتضينى أن أقتله ٠٠ فقتلته !

ومضى يروى كيف أتم غايته :

كان يعرف أن اغتيال« راسبوتين » ليس بالمهمة السهلة ٠٠ فقد كان الاعتقاد يسود الاذهان بأن السموم لا تنال من الرجل ٠٠ وان الرصاص لا يصيبه بأذى ٠٠ وكانت شعوذته قد أوقرت فى النفوس انه فوق متناول الموت !٠٠

ولكن « يوسوبوف » لم يشأ أن يستسلم للقنوط ، ورأى أن يحشد لتنفيذ « رسالته » كل الوسائل ٠٠ فاجتمع مع نفر من الشباب الذين كانوا يشغلون أسمى مناصب البلاط ، فأخذوا يرسمون خطتهم فى حذر ، وحرص ، ودقة ٠٠ **حتى اتفق رأيهم على دعوة « راسبوتين » الى قصر « مويكا » ، ولم تكن السبيل الى الدعوة مستعصية ، بل كان يكفى أن يعلم الرجل ان الخمر موفورة بلا حساب ، وان الاطعمة الشهية قد أعدت فى فيض وجود ، كى يستجيب للدعوة ٠٠!**

وكانت أول خطوة فى المؤامرة دس « السموم » فى الخموز والاطعمة التى أعدت للمأدبة الرهيبة !٠٠ وكأنما خشى المتآمرون

أن لا تقوى تلك السموم على أحشاء الداهية ذى القوة الغامضة ، فأعدوا عددا من المسدسات المحشوة ، ليصبوا الموت منها عليه اذا أخفقت السموم ٠٠!

لا يؤثر فيه السم !

◆ **وعندما** وصل « راسبوتين » الى قصر « مويكا » فى الليلة الموعودة ، استقبل فى حفاوة بالغة ، وتكريم عظيم ٠٠ وراحت الموسيقى تصدح فى جنبات القصر ، فتوحى اليه بما أعد من متع ولهو لارضائه ، وتبعث فى الوقت ذاته من الالحان ما يطغى على أى ضجيج قد يصاحب تنفيذ الخطة ، حتى لا يدرى أحد خارج القصر بما يدور فى داخله ٠٠!

ومبالغة فى اكرام « راسبوتين » ، اقتاده سيد القصر ـ الامير « يوسوبوف » ـ الى غرفة فى الطابق الاسفل ، أعدت بها مائدة خاصة كى ينفرد وحده بلذائذ ما حوت ، قبل أن يجتمع مع بقية المدعوين المزعومين حول المائدة الرئيسية !

وأسرف الامير فى تقديم الفطائر والخمر الى ضيفه ٠٠ وكان السم يخالط كل شيء ، وفى كميات تكفى لصرع عشرة رجال !٠٠ وأخذ الامير يرقب غريمه فى قلق ٠٠ وكم كانت دهشته وهلعه حين تبين أن السموم لم تصبه بأى سوء !!

وعندئذ تسلل « يوسوبوف » من الغرفة ، الى حيث حصل من أحد زملائه على مسدس معد ، وقفل راجعا ٠٠ وشد ما كان ارتياعه اذ رأى « راسبوتين » لا يزال جالسا الى المائدة ٠٠ يأكل! دون أن يبدو عليه حتى أدنى « توعك » ٠٠ وكأن السم قد تحول فى أحشائه الى دسم !

◆ **واندفع** الامير يطلق الرصاص تباعا على الرجل الرهيب ٠٠ واذ ذاك فقط ، تحرك الرجل ، فنهض من مكانه ، وانطلق يدور فى جنبات الغرفة مهتاجا، يهاجم الامير، ويتخبط ٠٠ وقد انبعث منه خوار كخوار الثور ٠٠ والرصاص ينهمر عليه دون توقف !

وانهارت قواه أخيرا ، فهوى الى الارض متهالكا٠٠ ولم يصدق الامير « يوسوبوف » عينيه !٠٠ ولكى يضمن الاجهـــاز عليه تناول عصا ثقيلة وراح ينهال عليه بها ٠٠ وخف زملاؤه الى معونته ، حتى هشم رأس « راسبوتين » وعظامه ٠٠!

واذ اطمأن المتآمرون الى أن غريمهم الرهيب قد مات حقا ، عمدوا الى جثمانه فحملوه الى حيث ألقوا به فى النهر ، الذى كان ماؤه يتجمد سريعا فى تلك الآونة ، فيتحول من شدة البرد الى جليد ٠٠!

مناورة فى المحكمة ٠٠

◆ **وكانت** قصة الامير « يوسوبوف » ، والهدوء الذى تولاه وهو يسردها على هيئة المحكمة فى لهجة واضحة ، وأداء متزن ، كفيلة بأن تكسب اعجاب الجمهور وعطفه ٠٠!

ولكن محامى شركة « مترو » أبوا أن يسلموا بسهولة ، بل رأوا من واجبهم أن يجرحوا القصة ويستثيروا الشك فى صدقها، ولو اقتضاهم الامعان فى الحملة أن يحاولوا التشكيك فى كون الامير هو القاتل الحقيقى لراسبوتين !٠٠ **بل انهم ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن القاتل انما كان واحد من أصـدقاء « يوسوبوف » ، وكان قريب الشبه من البطل الذى أظهرته الشركة فى « الفيلم » وخلعت عليه اسم الامير « تشيكودييف »!**

ثم عمدوا فى الوقت ذاته الى مناورة أخرى بارعة ٠٠ كانوا يدركون ان الرأى العام الانجليزى يكره الاجرام والعنف ، ولو فى سبيل التخلص من شخصية خطرة كراسبوتين ٠٠ وان المحلفين خليقون بأن يستبشعوا الامعان فى التنكيل بالقتيل الى درجة استخدام السم والرصاص والعصا الثقيلة فى آن واحد!٠٠ ومن ثم حرصوا على أن يكثروا من سؤال الشاهد ومحاورته ، ليضطروه الى الاسهاب فى وصف بشاعة جريمته !

اللحظات الاخيرة لراسبوتين ..

◆ **وبدأ** مجلس الدفاع مناورته بسؤال الشاهد :

ـ اذن فأنت تريد أن تؤكد انك قتلت « راسبوتين » ؟..

وفى نفس الهدوء الجليل الوقور ، قال « يوسوبوف » :

ـ أجل .. قتلته .. رأيت من واجبى نحو وطنى أن أقتله.. فقتلته !

ـ أو حقا تريدنا على أن نفهم أنك قدمت له فطائر نقعت فى السم ، و .. انه أكلها ؟

ـ نعم ، قدمت له فطائر مسمومة .. وأكلها .. لكنه لم يمت ! ومن ثم اضطررت الى أن أطلق عليه الرصاص ..

ـ ولكن بعض المصادر التاريخية تقول ان الذى أطلق النار أحد زملائك .. لا أنت !

ـ بل أنا .. فانى حين وجـدته يأبى أن يموت ، غادرت الغرفة ، وأخذت مسدس زميلى ، ثم عدت فأطلقت النـار على « راسبوتين » .. ورميته بكثير من الطلقات .. ومع ذلك فقد ظل صامدا لا يموت .. بل هاج وراح يخور كالثور .. واذ ذاك انهلت عليه بعصـا ثقيلة غليظة حتى قضيت عليه .. ثم حملنا جثته وألقيناها فى النهر ! »



وقد تكون القصة روعت كل من أنصت لها .. وربما كان القوم قد استبشعوا ما فيها من قسوة عنيفة، ولكن أحدا لم يشك قط فى صـدق كل كلمة قالهـا «الشاهد» .. وكان يقف ممشوق

القامة كالسيف المرهف ، جامدا لا تهتز جارحة فى جسده ٠٠ ومضى يقول في هدوء وثبات :

– لم يسبق لى أن قتلت انسانا ٠٠ ولكن واجبى كان يقتضينى أن أقتل « راسبوتين » ٠٠ وقد قتلته !٠٠

بين أبطال الحقيقة وأبطال السينما

◆ **وعاد** الدفاع يركز همه فى محاولة اثبات بعد الفارق بين شخصية الامير « تشيكوديبيف » الذى قتل « راسبوتين » فى القصة السينمائية ، وشخصية الامير « يوسوبوف » الذى قتله فى الحياة الواقعية ٠٠ وكما ضيق الدفاع الخناق على الاميرة « ايرينا الكسندروفنا » حتى حملها على الاقرار بأن الاميرة التى ظهرت فى القصة لم تكن تشبهها شكلا ولا خلقا، راح يعمل جاهدا حتى حصل من الامير «يوسوبوف» على اقرار بأن «تشيكوديبيف» لم يكن كذلك يشبهه شكلا ولا خلقا !٠٠ وظن الدفاع انه بذلك قد حطم أسس الدعوى ، وما درى انه انما كان يخدم الخطة التى رسمهـــا محامى الاميرة ٠٠ فان محامى الشركة عجزوا عن أن يوهنوا اعتراف « يوسوبوف » أو يشككوا فيه ، **وبالتالى فقد ثبت ان « تشيكوديبيف » وخطيبته كانا يمثلان الامير وزوجته ، رغم الفوارق الشكلية والشخصية ٠٠ ومن ثم كان كل ما يشين البطلة الخيالية ، كفيل بأن يشوه سمعة الاميرة الحقيقية ٠٠!**

وأخيرا ، دعى المحلفون الى مشاهدة « الفيلم » فى عرض خاص ٠٠ وكان خليقـــا بممثلى الدفاع عن الشركة أن ينتهوا بالمسألة عند هذا الحد ، ولكنهم على العكس عادوا يحاولون أن يؤكدوا فى أذهان المحلفين بعد الشـــبه الشكلى بين الامير « يوسوبوف » والشخصية الخيالية « تشيكوديبيف » ٠٠ ومرة أخرى ، خدموا خطة محامى الاميرة دون أن يشعروا ٠٠ فقــد اضــطروا الى استدعاء شهود بينهم عدد ممن عرفوا الامير « يوسوبوف » وزوجته أيام مجدهما ، وممن كانوا على علم ودراية ببلاط قيصر روسيا ٠٠

السلاح الذى قدمه الدفاع لخصمه !

◆ **وأكد** الشهود أن شخصيتى القاتل وخطيبته فى «الفيلم» لا تشبهان فى شىء شخصيتى الامير وزوجته ٠٠ ولم يحاول محامى الاميرة أن يطعن فى شهادة أى من هؤلاء الشهود ، ولكنه كان يقتصر على الاصرار على انتزاع جواب من كل شاهد ، على سؤال واحد راح يوجهه الى كل منهم عقب الشهادة :

– من الشخص الذى عرف فى كل مكان بأنه قاتل « راسبوتين » ؟٠٠

– الامير يوسوبوف ٠٠

« اذن ، فكل شخص عادى يشهد « الفيلم » الذى أذيع انه أخذ عن الحقيقة ، وانه صورة صادقة لمصرع « راسبوتين » ، خليق بأن يشعر اذ يرى البطل القاتل ، بأنه انما يرى فى الواقع الامير « يوسوبوف » !٠٠ وان السيدة الوحيدة التى كانت يوما خطيبة للامير ، ثم زوجة له ، ليست سوى صاحبة الدعوى ؟ »

ولم يكن ثمة مفر من الاقرار بصحة هذا التأويل ٠٠

فى اللحظات السابقة للحكم ٠٠

◆ ومرة أخرى ، طلب المحلفون أن يشهدوا « الفيلم » ، فأعد لهم عرض خاص ٠٠ وعندما عادت المحكمة الى الانعقاد ، لخص لهم القاضى الوقائع والتطبيق القانونى للقضية ، ثم رفعت الجلسة ، ريثما يتداول المحلفون ٠٠

وساد قاعة المحكمة جو من القلق ، والترقب ٠٠ واشتد الفضول الى معرفة النتيجة ، حتى تحول الى لهفة منفعلة مشبوبة ٠٠ !

ويقول « باتريك هاستنجز » فى هذا الصدد :

« قط لم يسبق لى طيلة السنين التى مارست فيها مهنتى ، أن شعرت خلال فترة تداول المحلفين بمثل القلق الذى اعترانى فى هذه القضية ٠٠ فمع ان النتيجة قد لا تعنينى كثيرا – كمحام – الا أنها كانت بالنسبة لطرفى الخصومة منطوية على لحظة قد

تكون أهم لحظات حياتيهما ، فلم يكن ثمة بد من أن يسرى القلق الى نفسى ·· بل انه كان فى هـــذه المرة أكثر من قلق طبيعى ·· **كان الحكم ينطوى على أهمية كبيرة للاميرة ، فلقد اضطرت الى أن تكشف أمام الملأ عن أقسى فترة فى حياتها ، فكان خسران القضية فوق احتمالها ·· ومع ان ســؤال الشهود ومحاورتهم قد أبرأ سمعتها ، الا أن الحكم اذا صدر فى غير مصلحتها كان كفيلا بأن يقضى على تلك السمعة !**

« ولم أتمالك فى غمرة الهمس والحدس اللذين ســادا الحضور ، أن أسائل نفسى فى عجب : ترى ما الذى كان يدور بخلد الاميرة فى تلك الفترة وهى جالسة فى صمت وسكون ؟·· لقد كانت فى تلك الايام التى حدثتنا عنها فى القضية ، أميرة يغبطها الجميع ، تقيم فى قصر فى مدينة البلاط الملكى ـ « سانت بيترسبورج » ـ وقد آثرها الحظ بكل شىء ·· أما الآن ، فلم تكن أكثر من لاجئة فى بلد أجنبى ، بلا ثروة ، ولا أمل فى العودة الى الوطن الذى اغتربت عنه ·· »

٢٥٫٠٠٠ جنيه ·· للاميرة

◆ **وعاد** المحلفون الى قاعـــة المحكمة ·· وأقبل فى أثرهم القـــاضى ··

وساد القاعة صمت شامل ، رهيب ·· وعلقت أبصار الجميع ـ فيما عدا الاميرة وزوجها اللذين ظلا جامدين فى مكانيهما ـ بأعضاء هيئة المحكمة ··

وسأل القاضى المحلفين عما انتهى اليه رأيهم ، فأعلنوا انهم أجمعوا على أن الاميرة جديرة بالانصاف ··

ومن ثم قضى القاضى على الشركة بأن تدفع خمسة وعشرين ألف جنيه تعويضا للاميرة !

ولاول مرة ، تخلت الاميرة عن جمودها ، اذ تحولت تشكر لمحاميها ما قدم لها من عون ··

ثم خرجت الاميرة وزوجها من المحكمة وهما محتفظان بالهدوء

والسكينة والوقار الذى وفدا عليها به ٠٠ ولكنهما كانا قد أبرآ سمعتهما ، وفازا بثروة !

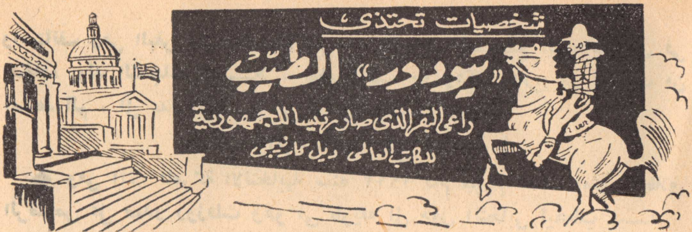
أما الشركة فقد حاولت أن تستأنف الحكم بعد ذلك ، ولكن طلبها قوبل بالرفض ٠٠!

المحامى المثالى

◆ كان « ابراهام لنكولن » ـ رئيس الجمهورية الامريكية الذى حرر العبيد ـ رجلا مثاليا فى شتى مراحل حياته ٠٠ من قبيل ذلك انه حين كان يمارس المحاماة فى شبابه ، فى مدينة (سبرنجفيلد) ، جاءه موكل يعهد اليه برفع دعوى للحصول على مبلغ ستمائة دولار ٠٠ فلما بحث لنكولن ظروف القضية ، قبل أن يقبلها نهائيا ، تبين له ان موكله لو ربح دعواه فسوف يدمر بذلك حياة أرملة فقيرة وأولادها الستة !٠٠ فما كان من لنكولن الا أن كتب الى موكله الخطاب التالى : « لقد قررت ألا أقبل قضيتك ، رغم يقينى من أن فى وسعى أن أربحها لك ، فهناك أشياء صحيحة قانونا ، لكنها خاطئة من وجهة نظر الاخلاق ٠٠ ودعنى أسدى اليك نصيحة لن أتقاضى عليها « أتعابا » : فأنا أنصح رجلا قويا نشطا مثلك بأن يحاول كسب الستمائة دولار من أى طريق آخر ، شريف ! »

ذكاء !

◆ همس محامى المتهم لاحد المحلفين : « اذا استطعت اقناع زملائك بأن يعتبروا التهمة قتلا « غير » عمد ، أعطيتك مائة دولار ! » ٠٠ وصدر قرار المحلفين فعلا بهذا الوصف ، فشكر المحامى صاحبه المحلف المرتشى شكرا حارا ودفع له المبلغ المتفق عليه، وعندئذ أجابه هذا مزهوا : « لقد كانت مهمتى شاقة فى الواقع ، لكنى نجحت فيها ٠٠ فقد كان جميع المحلفين يريدون الحكم بالبراءة ٠٠ »



رجل المتناقضات !

◆ حدث فى يناير سنة ١٩١٩ ـ وكنت فى سلك الجيش ـ حادث لن أنساه : فذات عصر ارتقت قمة المعسكر فصيلة من الجنود رفعوا بنادقهم فى الهواء ثم أطلقوا النار بالتحية العسكرية : ان روزفلت قد مات !.. «تيودور روزفلت» (١) ، أبهى رؤساء الجمهورية وأبهرهم شخصية ، وأكثرهم وجاهة ، مات وهو فى سن صغيرة نسبيا .. فلو أنه ظل الى اليوم على قيد الحياة لكان فى سن الكثيرين من ساسة أمريكا المعاصرين !

وكل شىء يتصل بتيودور روزفلت كان غريبا فى بابه : فهو مثلا كان قصير النظر جدا ، حتى انه بغير منظاره لم يكن يعرف أقرب أصدقائه على بعد عشرة أقدام ! ومع هذا فقد صار خبيرا فى اصابة الهدف بالبندقية ، وتمكن من صيد الاسود فى أفريقيا أثناء وثوبها عليه !

ومع أنه كان أشهر صياد للوحوش فى زمنه الا أنه لم يمارس مطلقا صيد السمك ، ولا صاد فى حياته طائرا أليفا ..!

وحينما كان صبيا كان شاحبا معتل الصحة ، تعذبه أزمات تنفسية ، فهاجر الى غرب أمريكا انتجاعا للصحة . وهناك احترف رعى البقر ، وصار ينام تحت قبة السماء ، فتحسنت صحته الى حد أنه صار يلاكم ويصارع أبطال المصارعة ! واشترك فى ارتياد مجاهل أمريكا الجنوبية ، وتسلق أعلى قمم الجبال وهى قمة « مترهورن » .. وقاد هجوما عنيفا على قمة جبل فى «كوبا» تحت وابل من نيران الاعداء الحامية !

ويروى تيودور روزفلت فى سيرته التى كتبها بقلمه أنه كان طفلا عصبيا خجولا يخشى على نفسه أية اصابة ، فعمل على أن يتصدى للامور التى يخافها : فاذا وقع مثلا من فوق الحصان وكسرت بعض عظامه عاد الى صهوة الجواد

---

(١) هو غير « فرانكلين روزفلت» رئيس الجمهورية السابق

واستأنف رعى البقر غير مبال بالآلام !.. ذلك أن تصنع الشجاعة كان فى اعتقاده يولد الشجاعة فعلا ، بمضى الوقت .. وهكذا تدرج من الخوف من أبسط ألم ، الى عدم المبالاة بزئير الاسود وقصف المدافع !

يخطب والرصاصة فى صدره !

◆ وفى أثناء المعركة الانتخابية سنة ١٩١٢ قام مجرم نصف معتوه باطلاق الرصاص على صدر روزفلت وهو فى طريقه الى حفل انتخابى ليخطب فيه . فلم يدع روزفلت أحدا يعلم أن الرصاصة أصابته ، وارتقى المنبر فعلا بمجرد وصوله وراح يخطب .. واستمر فى الخطابة .. حتى كاد يغشى عليه لكثرة مانزف منه من الدماء ، وعندئذ تنبه المحيطون به فنقلوه الى المستشفى على عجل ..

وعندما كان يقيم فى البيت الابيض - أثناء رئاسته للجمهورية - كان يضع مسدسا محشوا بالرصاص بجانب الوسادة ، ويحمل مسدسا صغيرا كلما خرج للنزهة . وأثناء رئاسته خطر له يوما أن يتلاكم مع ضابط فى الجيش صغير السن ، فأصابه الضابط بلكمة فى عينه اليسرى مزقت أوعيتها الدموية وأصابت تلك العين بعاهة مستديمة ! ولم يشأ روزفلت أن يدع الضابط الشاب يعرف مدى فعلته .. فلما طلب منه هذا الضابط فى مرة أخرى أن يلاكمه ، اعتذر له ، متعللا بأنه لم يعد يصلح فى سنه هذه للملاكمة . وبعد أعوام قليلة فقد تيودور روزفلت الابصار بتلك العين ، بيد أنه ظل مع ذلك متمسكا بكتمان الحقيقة عن ضابط المدفعية الذى تسبب فيها !

رجل الفضيلة والاطلاع

◆ ولم يمارس تيودور فى حياته التدخين ، ولم يكن يتفوه بألفاظ السباب ، أويقسم باسم الله ، أويتناول من الخمر الا ملعقة من الكونياك فى كوب من اللبن قبل النوم ، بين الحين والآخر ..

أما غرامه الاكبر فكان القراءة .. فبرغم مشاغله الكثيرة أثناء الرئاسة استطاع أن يقرأ وهو فى البيت الابيض مئات ومئات من الكتب ! وحتى فى أوقات انشغال وقته كله بسلسلة من المقابلات القصيرة التى لاتتجاوز كل منها الخمس دقائق ، كان يحتفظ دائما الى جواره بكتاب مفتوح ليستغل الثوانى المعدودة التى بين المقابلة والاخرى فى قراءة سطر أوأكثر !.. بل كان من عادته حين يسافر أن يحمل معه طبعة من طبعات الجيب لمؤلفات الشاعرين شكسبير و « بيرنز » . وعندما كان يحترف رعاية البقر فى « داكوتا » ، ففى



ليلة بأكملها بجانب نار فى العراء ، يقرأ على ضوئها مسرحية هملت بأكملها بصوت مرتفع لاحد رعاة البقر ! ..
أما رحلته فى غابات البرازيل فكان يقضى لياليها فى قراءة كتاب «جيبون» عن انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

ولم تكن هواياته تقف عند حد .. فكان شغوفا بالموسيقى ، برغم جهله عزفها كل الجهل . وكان يحب أن يغنى لنفسه فى بعض الاحيان نشيدا دينيا مشهورا فى أمريكا مطلعه « قربنى منك يا آلهى » .

نزعته الانسانية .. وتواضعه

ومن هواياته الاخرى أنه اتصل ذات يوم وهو فى البيت الابيض بمراسل صحيفة معروفة فى واشنطن ودعاه للحضور الى مقر الحكومة فى الحال ! فظن المراسل انه سيظفر بحديث خاص فى شأن من شئون الدولة الخطيرة ، فأبرق لصحيفته كى تكون المطابع على استعداد لاصدار «ملحق» فى أى لحظة ! وحين وصل المراسل الى البيت الابيض لم يفاتحه روزفلت فى أى موضوع سياسى ، بل صحبه الى حديقة القصر ليريه شجرة منخوبة عتيقة فى داخلها عش به بومات صغيرة اكتشفه فى ذلك اليوم ، فأحب أن يشرك فى تأمله صديقه الصحفى الهمام !

وفى أثناء رحلة له فى غرب أمريكا ، كان يتحدث فى سيارته الخاصة الى جماعة من كبار رجال الحكومة ، فشاهد فلاحا يقف فى حقله المزروع بالقمح وقد أمسك قبعته فى يده ، تعبيرا بذلك عن احترامه لرئيس الجمهورية .. فأوقف الرئيس العربة وقفز منها كى يلوح للفلاح بقبعته فى حرارة ، لا لغرض سياسى أو مصلحة انتخابية ، وانما لانه كان فى أعماقه متواضعا محبا للناس .. !

وفى السنة الاخيرة من حياته أحس أن صحته تنهار ، مع أنه لم يكن قد جاوز الستين . فلما جاء أجله مات ميتة هادئة وهو نائم ـ يوم ٤ يناير سنة ١٩١٩ ـ وكانت آخر كلماته قبل أن ينام :

ـ أطفئوا الانوار ..

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد السابقة من كتابى ـ فى هذا الباب ـ الكتب النفسية التالية : «كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية» للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل .. ثم «طريق السعادة الزوجية» لفردريك برينك .. و«مركب النقص ـ اسبابه وعلاجه وامثلته عند العظماء» تأليف و.ج. ماكبرايد .. و«حواء الجديدة ـ مرشد المرأة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده » للدكتور كورتنى بيل . . و«كيف تقهر الخجل» تأليف س.هـ. تيار .. ثم «كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة» تأليف جون كنيدى .

وفى الاعداد الاربعة الماضية قدمت لك من فنون الحياة التى شرحها الاديب العالمى اندريه موروا : فن الحب ، ثم فن الزواج ، وفن الحياة العائلية ، ففن الصداقة .. واليوم اقدم لك فنا خامسا، هو فن العمل.. يليه فى الاعداد القادمة باذن الله : فن السعادة .. فن الزعامة .. فن الشيخوخة .. فن التفكير الخ


L'ART DE
TRAVAILLER
PAR
اندريه موروا
فن العمل
(للرجل.. والمرأة)

أهمية هذا البحث

◆ لكل رجل ـ بل لكل امرأة ، كما سترى ـ عمل يشغل به وقته ، سواء كسبا للعيش أو تبديدا للضجر أو خضوعا لفريضة الحياة .. وكل انسان يهمه بالطبع أن يتقن عمله وينجح فيه . لكنه قد يعجز عن ذلك أحيانا ، ربما لاسباب لاصلة لها بنقص فيه أو قصور .. وانما علتها جهله بطريقة أداء عمله أو تنظيم حياته على الوجه السليم ، الذى يكفل له النجاح فى بلوغ غاياته وأهدافه ، سواء فى أوقات العمل أو أوقات الراحة على السواء

وكما أن العمل فن ، كذلك الراحة من العمل بدورها فن آخر لايقل عنه أهمية ، بل لعله يفوقه .. لانه الاساس الذى يجعلك قديرا على الشروع فى عملك حين يحين وقته ، بهمة ونشاط وعزم لايلين ... فتعال معى نستمع لآراء « اندريه موروا » السديدة فى هذا الموضوع الذى يمس حياة كل رجل ، وكل امرأة وربة بيت ..

العمل .. بين القواميس والحقيقة

◆ **لو** اننا بحثنا عن المعنى الدقيق لفعل «عمل ، يعمل» فى القواميس ، لالفيناه يتمثل فى «تجشم العناء لاداء مهمة من المهام» .. لكن الواقع أننا لا نجد فى هذا التعريف كل بغيتنا .. أفليس فى وسع المرء ان يجد فى العمل متعة ؟.. اذن فلندع القواميس ولنستعرض بعض الامثلة .. لننظر الى صانع الزجاج .. ماذا يعمل ؟ .. انه يخلق من الكتلة معدومة الشكل شيئا نافعا .. وماذا يفعل عامل المنجم ؟ .. انه يستخرج من الارض موادا اولية ، كالفحم والحديد ، فيسلمها الى من يحيلونها الى قوة محركة ، وحرارة ، وآلات .. وماذا يعمل المزارع ؟ .. انه يفلح الارض ويحرثها وينثر فيها البذور .. وماذا يعمل الروائى ؟ .. انه يصب مشاهداته للناس فى قالب قصصى ، كما يفعل صانع الزجاج حين يبدع من كتلة

لا شكل لها تحفة تسر الناظرين .. وما الذى يعمله الطالب ؟.. انه يحاول ان يستخلص لنفسه ما سبقه اليه غيره من معرفة .. فهو يهيىء ذهنه وينظمه .. بل هو يصنع نفسه ..

فالعمل ، اذن ، هو تحويل او تحوير الاشياء الى الصورة التى تجعلها اكثر نفعا او جمالا .. وهو ايضا دراسة القوانين المسيطرة على عمليات التحويل هذه ، ثم تطبيقها ..

اختر العمل الذى تصلح له

◆ **وبالرغم** من ان اعمال الانسان متباينة لاتقع تحت حصر ، الا ان هذه القواعد او القوانين التى يجدر بالعاملين عامة ان يعرفوها ، قليلة محصورة :

فعلى المرء اولا ان يختار من المهن ما يتفق واستعداده ، اذ ان لقدرة الانسان وذكائه حدا ، ولن يقدر لذلك الذى يرغب فى عمل كل شىء ، ان يعمل شيئا .. وكلنا نصادف فى اعمالنا ومجتمعاتنا ذلك الصنف من الناس الذى لم يؤت كفاءة معينة، ولكنه لا ينفك يقول : «فى وسعى ان اغدو موسيقيا كبيرا..» «ما اسهل الاعمال التجارية على» .. «فى امكانى ولاشك ان انجح فى الشئون السياسية» .. مثل هؤلاء لن يعدو الواحد منهم ان يصبح موسيقيا هاويا ، أو رجل اعمال فاشلا ، او سياسيا خائبا !.. وقد كان «نابليون» يؤمن بان فن الحرب يتمثل فى ان يحشد المرء اقصى قواه عند نقطة معينة ، وجدير بنا فى الحياة أن نختار نقطة نركز عندها قوانا ، ولا ندع اختيار عملنا للحظ .. فيسأل الناشىء نفسه : «لاى الاعمال ترانى اصلح ؟ .. وما كفاءتى الطبيعية ؟» .. ولن يجدى الاصرار على المستحيل ، فان كان لك ابن لا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا ، فاجعله طيارا ، بدلا من ان تجعله رئيسا لاحدى الادارات ، وهكذا .. ومتى عقد الانسان اختياره على عمل ما ، وجب عليه ان لا يدع للندم سبيلا الى نفسه باى حال ،

ما لم يصادفه حدث خطير يضطره اضطرارا الى تغيير اتجاهه

بل ان فى المهنة الواحدة التى يختارها المرء ، مجالات كثيرة للاختيار .. فالكاتب لا يستطيع ان يعالج كل نوع من القصص، والسياسى لا يملك أن يصلح كل وزارة ، والرحالة لا يقوى على ان يجوب كل بقعة ، وهكذا .. وفى هذا المجال ايضا ، ينبغى على المرء ان يصد ويقاوم ، فى عزم وحزم ، كل ما يغريه على ان يتولى اعمالا لا يصلح لها ..

ولا تضيع من الوقت فى الاختيار ، اكثر مما ينبغى .. فضابط الجيش اذا ما استعرض فى عناية عواقب امر من الاوامر ، لا يلبث ان يقطع السبيل على كل تساؤل وتردد ، بأن يأمر رجاله بالتقدم .. وهكذا يجدر بك ان تضع حدا للاسئلة التى تهجس بها نفسك : «ماذا تكون الحال فى العام القادم ؟ .. هل ادرس لاتقدم لهذا الامتحان ، ام لذاك ؟ .. او ارحل الى الخارج ؟.. او اعمل فى هذا المصنع دون ذاك ؟» .. والعناية والتأنى فى مناقشة هذه الاسئلة امر طبيعى ، غير ان القرارات يجب ان تتخذ فى زمن معين ، ولا يكون بعد ذلك للندم او للتغيير اى مجال ..

حدد برنامجك وتوفر عليه

◆ **ولضمان** التمسك والارتباط بالعمل الذى اخترناه ، يحسن ان نكتب ــ من آن الى آخر ــ جدولا للعمل ، يبين كلا من اهدافنا العاجلة والآجلة .. حتى اذا رجعنا الى هذا الجدول بعد شهور او سنين ، استطعنا ان ندرك مدى قوانا وحدودها .

ويجب ان تفصل ذلك الجزء الذى يتطلب عملا عاجلا ــ من برنامجك ــ فتركز فيه كل اهتمامك .. واعمل من اجله كل ما فى وسعك ، واوقف كل قواك ومواهبك عليه .. افرغ فيه نفسك وعصارة فؤادك ، وجاهد بجسمك وذهنك فى سبيل

بلوغ الهدف .. فاذا بلغتـه ، حق لـك ان ترجـع لترتاد الطريق الذى قطعته ، وتملى عينيـك من منظره ، وتتدبر العقبات التى كانت تعترضه .. ولكن ، لا ارتياد ولا استطلاع مالم تكن قد اتممت مهمتك اولا !

وقد يروق لنا اولئك الذين يبدون اهتماما بكل شىء .. بيد انه لا يبرم الاعمال ولا ينجز المهام سـوى اولئك الذين يقصرون اهتمامهم – فى الفترة الواحدة من الزمن – على امر واحد .. انهم قد يبلغون فى تمسكهم وتصميمهم احيانا حدا يبعث السأم ، ولكنهم لا يلبثون بتكرار الاقدام ان يوفقوا الى تحطيم العقبات التى تعرقل تقدمهم !

وعلى المرء ان يؤمن بان النجاح ممكن .. فانت اذا اتقنت اختيار هدفك ، ساعدتك قواك على ان تجتاز الاحداث كى تبلغه .. وليس من المجدى ان تأخذ على عاتقك السعى الى اهداف لا سبيل الى بلوغها .. بل ان هذا المسلك ينطوى على خطر ، اذ ان الفشل قمين بأن يحطم نشاطك وثقتك بنفسك ..

ان شاعر المانيا العظيم «جيته» ينصح الشعراء الناشئين بأن يكتبوا الاشعار القصيرة بـدلا من ان يعالجوا القصائد الطويلة .. ويقول «صمويل بتلر» اننا يجب ان نبدأ بخير ما فى العنقود من اعناب !.. وقد يكون من الاسلم ان نبدأ بأسهل الاجزاء اذا شئنا ان نؤلف كتابا طويلا معقدا .. وخليق بنا ان نقسم العمل الطويل الذى يراد منا انجازه ، الى مراحل ، نركز فى كل منها بالتوالى اهتمامنا .. وعندئذ لا ينبغى ان نمد البصر الى اكثر من حدود المرحلة التى نتولاها ، فى كل مرة ، مقتدين بمتسلق الجبال الذى يحفر فى الجليد مواطىء لقدميه ، ويعزف عن التطلع الى القمم ، او الهبوط ببصره الى اعماق الوهاد ، لان المنظر فى كلا الحالين قد يروعه !

بالصبر والدأب تنجز الاعمال

◆ **ولقد** تبدو كتابة تاريخ بلد من البلاد ، عملا فوق طاقة البشر ، عند التفكير فيها لاول وهلة .. لكنك اذا قسمتها الى فترات وعصور ، وبدأت بالفترة التى تعرفها اكثر من سواها، ثم اتبعتها بالتى تليها وهكذا .. فلسوف يدهشك ان تستبين ذات يوم انك بلغت نهاية الطريق الشاق ! .. ولن يلبث القلب ان يكتسب جرأة بعد عدد من التجارب ، فالكاتب الذى ألف كثيرا من الكتب لا يخالجه شك ما فى قدرته على ان يتم كتابا شرع فى وضعه .. انه يقدم ـ كدوها ميل ، وجول رومان ـ على ارتقاء ركامات الكتب ، وكله ثقة فى انه بالغ يوما ذروتها !.. وهكذا حال المزارع الذى يقتطع «الدريس» من حقله ، فهو لا ينظر قط الى الطرف الاقصى من الحقل .. وربة البيت التى تسعى لتنظيف بيتها ، انما تتناول ارفف الصوان رفا بعد رف ..

ان الاحمق يستسهل كل شىء ، فينتهى به الامر الى صدمات قاسية توقظه من غفلته .. والمتخاذل الخمول يرى كل امر مستحيلا فلا يأتى عملا .. اما صاحب الجد والهمة ، فيعلم ان جلائل الاعمال ميسورة ممكنة ، ومن ثم يعكف عليها فى حكمة وتؤدة فلا يلبث ان ينجزها .. !

ولابد من النظام فى العمل .. فما اكثر اولئك الذين يشكون من ان الحياة قصيرة ، ولكن ، كم منهم يعمل عمل الاحياء لثمانى ساعات فى كل نهار ؟.. ان ما يستطيع ان يعمله الرجل الذى يجلس الى مكتبه ـ او يذهب الى مصنعه او متجره ـ منذ ساعة مبكرة من فجر كل يوم ، ليجل عن الوصف .. بل ان الكاتب الذى يكتب صفحتين فقط فى اليوم ، ينجز بعد عمر طويل ما انجز «بلزاك» او «فولتير» من مؤلفات .. من حيث الكمية ، لا من حيث المستوى طبعا ..

ولكن المسألة لا تقتصر على الجلوس الى المكتب او الوصول الى المصنع ، بل لابد من توفر الهدوء .. فان انتاج العمل يزداد – ازدياد المتواليات الهندسية – اذا خــلا مما يقطع استرساله .. وهذا صحيح بالنسبة للكاتب الذى يحتاج الى وقت كى ينسى العالم الخارجى ويستغرق فى افكاره وتخيلاته .. وصحيح بالنسبة للميكانيكى الذى يبحث عن سر خلل آلة من الآلات ، او الصانع الذى يشغل بتلبية الطلبات المنهالة على انتاجه .. اما العمل المفكك فلابد ان تظهر فيه آثار التوقف والتعطل التى تخللت انجازه ..

لصوص الوقت !

◆ **ومن ثم** فعلى المشتغل ان ينأى عمن لا عمل لهم سوى تبديد الوقت ، فهم أبدا لا يرحمون .. بل انهم يسلبون من لا يصدهم آخر لحظة من وقته ، دون ان يراعوا انه قد يبرم اجل الاعمال اذا هو ترك وحيدا .. وهم اراذل وقحون ، لا يتورع الواحد منهم ، المحنك فى سرقة الوقت ، عن ان يقصد الى رئيس هيئة اركان حرب الجيش يوم اعلان الحرب ، ليناقشه فى الوضع العسكرى لبواب داره ..!



ويمارس سارقو الوقت عملهم هذا عن طريق الزيارة ، او التليفون ، او الخطابات .. ومن الاخطاء الجسيمة ان نخجل منهم، او نشفق او نصبر عليهم، بل يجب ان يعاملوا بكل ازدراء وجفوة .. اذ ان مصاحبتهم ضرب من الانتحار !

وما أحكم ما قاله «جيته» فى هذا الصدد: «من الضرورات اللازمة ان تصد الناس عن ان يزوروك دون اخطار او اعلان .. انهم يصرون على ان يشغلوك بشئونهم، وتملأ زياراتهم رأسك بافكار غريبة عن افكارك .. وانا شخصيا لا اريد مثل هذه الافكار، لاننى اتكبد فوق ما استطيع كى أصل بافكارى الخاصة الى خواتمها الصحيحة» .. ومن أقواله الحكيمة ايضا: «من شاء ان يعمل للدنيا، فليحرص على ان لا تسيطر الدنيا عليه» .. ولسوف تزداد حكمة هذه النصيحة وضوحا، اذا ما انقلبت الدنيا تكيل لك اللوم، يوم تفشل فى أمر من الامور..!

ومما يؤثر عن جيته فى صدد هذه الزيارات غير المرغوب فيها، انه كان اذا افلح صفيق فى ان ينفذ الى داره ــ رغم اوامره ــ لقى من برود الشاعر العظيم ما يبدد رجاءه .. اذ كان «جيته» يعقد يديه خلف ظهره، ويعرض عن الكلام !.. فاذا كان الزائر ذا مكانة، «تنحنح» جيته وغمغم بكلمات قليلة غير واضحة، لا تلبث ان تضع للحديث حدا !.. ثم انه كان يقسم الخطابات التى يتلقاها الى نوعين: تلك التى تتضمن رجاء، وكانت تمزق .. وتلك التى تتضمن عروضا، وهذه كان يهملها بلا رد، مالم تكن العروض التى فيها مما يعود عليه بالنفع !

وقد يقال ان مثل هذه الاثرة قسوة، وان هناك من نابهى الذكر من يجيبون عما يتلقون من الرسائل، كما ان من الثقلاء من يكونون اهلا للاهتمام او العطف، بل الود .. وكم من الناس عابوا على «جيته» هذه الخصلة المجافية للانسانية، ولكن هذه الخصلة بالذات هى التى مكنته من ان يؤلف «فاوست» و «فيلهلم مايستر» !.. ثم ان من يضع نفسه بين فكى الاسد لابد أن يؤكل، ويموت قبل ان يؤدى رسالته .. والشخص الذى يتملكه حماس قوى للعمل، لا يرجو من سواه الا ما يعينه، فهو لا يتنصل قط من عمل مفيد يستطيع اداؤه، ولكنه يفر من الاحاديث، والاجتماعات، ومجالس اللغو ..

بل ان «جيته» يذهب الى نصح كل ذى عمل بان يتجاهل الاحداث اليومية ، مالم يكن يملك لها علاجا .. فنحن اذا اضعنا ساعة من كل صباح فى الاطلاع على انباء الحروب البعيدة ، وساعة اخرى فى الاشفاق مما قد يترتب عليها من عواقب ـ ونحن لسنا بالوزراء او القادة او الصحفيين ـ فلن نؤدى بذلك لوطننا خدمة ما ، بل نضيع مالا سبيل الى استرداده .. نضيع حياتنا القصيرة ، وكفاياتنا المهدرة ..

العزلة أوفى رفيق

◆ **ولقد** امتد سلطان النظام ـ عند «جيته» ـ من ميدان العمل الى ميدان العواطف والاحاسيس .. وهو محق فى قوله اننا اذا اسلمنا انفسنا لميولنا العاطفية ـ دون تحفظ ـ لاعجزنا ذلك عن القيام بأى عمل .. ولما كانت بواعث هذه الميول والغرائز طبيعية ، فلا سبيل الى نصح الناس بأن يضحوا بحياتهم العاطفية ـ فى جميع نواحيها ـ من اجل العمل .. ولكن ينبغى ان نذكر دائما فى هذا الصدد قاعدتين :

اولاهما : ان لا ندع الانفعالات الفارغة او المغالى فيها تحولنا عن عملنا .. فكم من درجات جامعية ضاعت بسبب نزوات غانية !.. والقاعدة الثانية: ان نضحى بكل شىء فى سبيل العمل الذى يبرر ويستحق مثل هذه التضحية .. كما فعل «بروست» حين وقف حياته على اتمام عمله الادبى الخالد «البحث عن الزمن المفقود » .. وكما يفعل الزعيم الوطنى فى وقت الحرب او الازمات العصيبة ، حين يقف كل جهده وهمه على تأدية رسالته العظمى ..

ومن المشاهد ان جميع كبار العاملين ـ او جلهم ـ رجال يعرفون كيف يلجأون الى العزلة من آن لآخر .. فهم يملكون بيوتا فى الريف ، او اكواخا فوق الجبال او بجوار البحر ، يطرحون فيها عنهم كل المسئوليات ، حتى مسئولياتهم ازاء

من يرتبطون بهم بروابط الود والصداقة .. وهناك فقط ، ترتد الاحداث والمشاعر الى مكانها ا لصحيح من الصورة الكبيرة الشاملة .. اذ أن أية مسرحية ، او مقال فى مجلة ، او سخافة من لغو القول ، تبدو ذات اهمية فى خضم الحياة فى مدينة كبيرة ، فتستأثر من الشخص بنصيب من التفكير الجدى .. اما تحت السماء الصافية ، فى البقاع الخلوية ، فان هذه التوافه الزرية لا تلبث ان تهجع فى الظلام وتختفى .. واذ ذاك ، ترسى فى هدأة الليل وطمأنينة الروح أسس الصروح الخالدة ، على ارض نظفت وطهرت من الاوشاب .. فما اوفى العزلة من رفيق !

العلاقة بين المرؤوس ورئيسه

◆ **ونحن** قد تحدثنا حتى الآن عن اولئك الذين يختارون اعمالهم اختيارا ، ويتمتعون بحرية ادائها او تركها ، ومن ثم يقع عليهم عبء تنظيم انفسهم ، لان احدا غيرهم لن يتولى عنهم هذا التنظيم .. وخليق بنا الآن ان نذكر شيئا عن اولئك الذين ليسوا بمبتدعين ، ولا قادة او زعماء ، وانما كل عملهم ان يساعدوا افراد الفريق الاول ويقدموا اليهم المعونة .. من هؤلاء «الياوران» ، ورؤساء اركان الحرب ، ورؤساء الادارات ، والسكرتيرون .. الذين يعهد اليهم بمجموعة خاصة من الاجراءات والاوامر يجب ان تتبع بدقة حتى لا تعترض الصعاب اولئك الذين يقتضيهم واجبهم فرض تلك الاوامر .. وهذا يتطلب خصالا خاصة .. فالرجل الذى يعمل مع غيره تحت اوامر ونظم معينة يجب ان يكون مجردا من الزهو والخيلاء ، فهو ان كان ذا ارادة مفرطة القوة ، اصطدمت آراؤه بآراء رئيسه ، ولم يعد ثمة اطمئنان الى تنفيذ الاوامر ، نظرا لما سيبذله هذا من جهد كى يفسرها على ضوء آرائه .. ومن ثم ، كان الايمان بالرئيس خير ما يربط بين المرؤوسين ..

على ان الاحترام لا ينبغى ان ينقلب الى عبودية بطبيعة الحال ، فالمرؤوس اذا استشعر - ان صوابا او خطأ - ان رئيسه ينزلق الى خطأ جسيم ، وجب عليه ان يصارحه بجرأة .. بيد ان هذا التعاون لن يؤتى اثرا فى الواقع مالم يكن خلف الصراحة اعجاب واخلاص صادقان .. واذا لم يقتنع المساعد بان رئيسه أكثر منه خبرة واصدق منه حكما ، لم يحسن خدمته .. ولكن من الواجب ان يكون انتقاد المرؤوس لرئيسه، حدثا عابرا ، لا عادة متكررة ..

ومن المأثور عن المارشال «بيتان» انه كان اذا رشح لاركان حربه ضابطا جديدا صحبه الى الريف - وعرض عليه احدى مسائل «التكتيك» العسكرى ، ثم تطوع لحلها بنفسه .. فاذا اقر الضابط حله دون نقاش ، رفض المارشال ان يقبله .. اما اذا انتقد الضابط آراء رئيسه العظيم فى حزم - لا ينتقص من احترامه له - فعندئذ كان يهنئه ويعينه فى المكان الشاغر !

ولكن ماذا يفعل المرؤوس اذا كان متأكدا من انه على صواب ، ومع ذلك ابى رئيسه ان يتقبل نقده ؟.. ان عليه حينئذ ان يطيع الامر بعد ان يقدم اعتراضاته ، فلن يقدر لعمل جماعى ان يسير دون نظام .. اما اذا كانت المسألة من الخطورة بحيث تترك اثرا باقيا فى مستقبل دولة ، او جيش ، او مشروع تجارى ، فللمعارض ان يقدم استقالته .. على ان يكون هذا آخر سلاح يلجأ اليه ، اذ ما دام المرء يشعر ان بوسعه ان يكون نافعا ، كان بقاؤه فى منصبه واجبا فى عنقه !

وقد يكون التهديد بالاستقالة سلاحا كافيا فى بعض الاحيان ، ولكن التهديدات لا ينبغى ان تتوالى بكثرة ..

افهم رئيسك واكمل نقصه

◆ **وعلى** المرؤوس ، او السكرتير ، ان يهيىء نفسه ويروضها على اساليب رئيسه فى التفكير والعمل .. فقد تكون الاوامر

التى يتلقاها مبهمة احيانا ، يتعين عليه ان يترجمها ويجلوها .. وقد تكون اقتراحات عامة ، تبعث فى ظلمات المستقبل ومضات خاطفة او مؤقتة ، فعليه ان يستخلص منها توجيهات مفصلة .. **واذا كان الرئيس فظا او قاسى الطباع ، كان على معاونه ان يخفف عمن يتعرضون لاهاناته او فظاظته ، وان يبصر الزائرين – من طرف خفى – بالموضوعات التى ينبغى ان يتحاشوها لتجنب اغضابه ..**

وينبغى احترام نزوات الرجل العظيم ، لان الوقت الذى يلزم لمكافحتها اثمن من ان يبدد .. وخليق بالمرؤوس ان يعمل على فهم رئيسنه ومسايرته ، طالما كان حتما عليه ان يعاشره .. والموظف الحاذق هو الذى يعرف اى الكلمات يجب ان يتحاشاها فى وجود رئيسه ، لانها تستثير فيه انفعالات نفسية مؤلمة ، وتوقظ غضبه .. وهو الذى يعرف كيف يعرض على رئيسه اى موضوع بلباقة ، بحيث يستثير اهتمامه به ويضمن رضاءه عنه !.. وهو ولا شك يدرك اخطاء رئيسه ومواطن ضعفه ، ولكنه لايدع هذا الإدراك يقلل من احترامه له ، بل انه على العكس يعمل جهد طاقته ليسد النقص الذى فى رئيسه ..

مهام المساعد والسكرتير

◆ **والعمل** مع اصحاب المناصب الكبيرة ، يجعل الناشئين الذين لم يتعودوا المسئوليات والسلطان ، ولم يمارسوا اصدار الاوامر ، على اتصال وثيق بمداولات وقرارات غاية فى الخطورة .. والكتمان فى مثل هذه الظروف الخاصة ضرورة لازمة ، اذ ان الشاب – أو الشابة – الذى يستخفه الزهو قد يجد فى اتصاله بالامور الهامة ما يغريه على ان يتباهى على اصدقائه ، بأن يروى لهم ما يؤديه من اعمال .. فى حين ان طبيعة واجبه تستلزم عدم الكلام عنها !.. **مثل هذا النزق قد تتأتى عنه**

شرور لا عداد لها ، مع ان فى التكتم وصيانة الاسرار متعة لاتقل عن متعة الكلام والزهو ، فليس ابعث على الاعتزاز من ان يكون المرء مستودع الثقة ، وان يعرف الحقائق ولكنه يخفى ما يعلم ! .. ولقد كانت «مدام ريكامييه» ذات براعة رائعة فى هذا المجال ، فقد اتى عليها وقت كانت تتلقى فيه اسرار زعماء الاحزاب المتعارضة .. بل كانت تظفر احيانا بثقة رجلين يتنازعان منصبا واحدا ، او تنصت الى اسرار مؤلف وناقديه .. فكانت تصغى ، وتبدى العطف ، وتبتسم ، وتتحدث احيانا عن الشخص امام غريمه اذا دعا الامر ، ولكنها قط لم تش بسر احد !

ومن واجب المساعد ــ او المرؤوس ــ ان لا يقتصر على توفير البيانات التى يطلب اليه جمعها ، بل عليه ان يجمع البيانات التى قد تلزم فيما بعد .. يجب ان يسبق افكار رئيسه ، ويمهد الطريق لتنفيذها ، ويبدد الهواجس التى لا داعى لها ، ويسوى المسائل البسيطة من تلقاء نفسه ، ويبسط الاجراءات اللازمة التى تحوط كل ذوى المراكز الهامة ..



السكرتيرة المثالية

والسكرتيرة الكفء المقتدرة هى اكمل مساعد لمخدومها ، فان دورها لا يقتصر على تلقى ما يملى عليها وطبع الرسائل على الآلة الكاتبة ، بل انه يتطلب ايضا ان ترتب وتنسق ردود الخطابات ، وان تتذكر العناوين ، وان تجعل من نفسها دليلا

ـ اى «ارشيف» متحركا لرئيسها .. وبالاختصار فانها يجب ان تكون لها كل فضائل رئيس الادارة والمرأة معا .. فهى كامرأة تمتاز ببديهة غريزية لماحة ، تمكنها من أن تشعر رؤساءها بلباقة بانها تحترم اعتدادهم بانفسهم ، ومن ان تبسط حول مكتبها جوا ترتاح اليه النفوس .. **وعليها فى الوقت ذاته ان لا تبرز انوثتها ، اذ ان العمل قد يرتبك اذا ما فطن احد رؤسائها الى هذه الانوثة اكثر مما ينبغى !..**

ومن ثم فلابد لها من الاحتفاظ بالتوازن بين شخصيتها كأمرأة ، وشخصيتها كموظفة ، وان كان هذا التوازن شاقا صعبا فى كثير من الاحيان ..

الآلات قد تقرب بين الطبقات !

◆ **وقد** ظل الناس زمنا طويلا يرون العمل عارا ونقمة من السماء تحيق بهم .. فكانت الاعمال اليدوية ، وقسط كبير من الاعمال الذهنية ، توكل الى العبيد .. ولقد حاول اهل الرأى والنظريات فيما بعد أن يقسموا الناس الى عامة وخاصة ، أو الى كادحين وميسورى الحال (أبناء الطبقة المتوسطة) ، فالاولون هم الاجراء ، والآخرون هم الذين يعيشون على دخل أو أرباح .. ولكن هذه التفرقة كانت مبهمة غير واضحة الحدود والمعالم ، لو أخذناها على علاتها لكان مدير المصرف الذى يتقاضى مثلا مائتى ألف فرنك فى العام من العامة ، الاجراء ، الكادحين !.. ولكان صاحب المتجر الصغير ، أو مالك المساحة الضئيلة من الارض ، الذى يحصل بكل مشقة على عشرة آلاف فرنك فى العام ، من الخاصة أو ميسورى الحال ..

على انه ان كان تقسيم الناس الى فريقين ـ او «طبقتين» ـ محاولة خطرة وغير طبيعية ، فلا مراء مع ذلك فى ان من الناس من جنبوا العمل الشاق المضنى ، فى حين انه ضرورة يومية لدى سواهم . ومن هنا ينبثق الحقد العميق بين افراد

الطبقتين .. فهل من الممكن أن نعالج هذا الشر الذى ولد مع الجنس البشرى ؟ **لقد فشلت الثورات فى ذلك ، وستظل دواما فاشلة فى هذه الناحية .. على أن من المحتمل أن ينتهى تقدم الآلات الى التقريب بين العامل وبين « الخاصة » ، فقد انخفض فعلا خلال الاعوام المائة الاخيرة عدد ساعات العمل حوالى ثلث ماكان عليه .. وأصبح العمل الذى يتطلب قوة هائلة يترك للآلات كى تتمه** .. وصحيح ان هذه الآلات قد عفت على ماكان يستخدمه العمال فى حرفهم من ذكاء وألمعية ومهارة ، واستبدلت بها نظاما آليا ينساب متواليا ، بدقة ، بيد أن هذه مجرد مرحلة انتقالية .. ولن يلبث هذا النظام أن يتولاه أشخاص آليون أو ميكانيكيون ـ « روبوت » ـ فلايكاد دور العامل يعدو الاشراف والمراقبة ، ومن ثم يصبح مهندسا ..

متعة العمل .. ودرجة اتقانه

◆ **وأهم** ماينبغى أن نذكره بصدد العمل اليدوى ، هو أنه سواء كان العمل بسيطا أومعقدا ، فانه محتوم الاداء ، حسن هذا الاداء أو ساء .. فهناك من الوسائل لحفر خندق ، ماينطوى على مهارة وماينطوى على غباء .. تماما كما أن هناك طرقا تنم عن عناية وأخرى تنم عن اهمال ، فى اعداد أية محاضرة .. والكاتبة التى تنسخ مايملى عليها ، على الآلة الكاتبة ، قد تؤدى مهمتها اداء عاديا ، أو تؤديها اداء رائعا .. فاذا هى حاولت أن تؤدى عملها أحسن ممما ينبغى عليها ، أصبحت فنانة ، وجوزيت على احسانها بالرضاء الدائم .. فهى لم تؤد هذا العمل لمخدوم ، وانما لارضاء نفسها وامتاعها ..

وقد تبلغ متعة العمل درجة من الكمال تمكنها من أن تطغى على سواها .. وأنا حين أحاول تصور الجنة ، لاأتمثل صورة مكان تعمره أرواح مجنحة لا هم لها سوى الغناء والعزف ، وانما تلوح فى خاطرى صورة مكتب أعمل فيه ـ دون حساب للزمن ـ

فى وضع رواية رائعة لا نهاية لطولها ، بقوة ودقة قل ان اتمكن منهما فى الارض ٠٠ وعلى هذا القياس تكون جنة البستانى بستانا يعمل فيه على هواه ٠٠ وجنة النجار مقعدا يظهر فنه فى صناعته دون تدخل رئيس او عميل !٠٠ الخ

المرأة ملكة البيت وخادمته !

◆ **وخير** مثال لامتزاج العمل اليدوى بالعمل الذهنى ، ماتفعله ربة البيت حين تسكب روحها ومشاعرها فى أداء واجباتها ٠٠ فالمرأة التى تجيد تدبير بيتها ، ملكة وخادم له فى آن واحد ٠٠ انها تيسر العمل لزوجها وأطفالها ، وتقيهم الهموم ، وتغذوهم وترعاهم ٠٠ انها وزيرة المالية ، اذ بفضلها يتم توازن الميزانية ٠٠ وهى وزيرة الفنون الجميلة ، فاليها ترجع فتنة البيت أوالمسكن ٠٠ وهى وزيرة التربية ، تضطلع بمسئولية تنشئة الاولاد قبل التحاقهم بالمدرسة والكلية ، واليها تنسب براعة البنات او خيبتهن فى مستقبلهن البيتى والزوجى ٠٠ الخ

والمرأة تفخر عادة بنجاحها فى جعل بيتها عالما صغيرا كاملا ، كمايفخر السياسى الكبير حين يوفق فى تنظيم شئون أمته !٠٠ لكن الواقع أن المرأة لاتكاد تعرف طعم الراحة الا فى الاسرات التى أوتيت وفرة من المال ٠٠ أمافيما عداها فالمرأة لاتكاد تظفر « باجازة » من عملها فى المتجر أوالشركة ، ولو ليومين فقط ، حتى تتلقفها فى البيت واجبات التنظيف والاصلاح والنهوض بلوازم الاطفال المختلفة ، ومطالب البيت والزوج العاجلة !٠٠ يضاف الى ذلك ماينبغى أن تبذله المرأة من جهود لكى لاتبدو بسيطة فى مظهرها ، فهى مضطرة الى أن تعنى دائما بانتقاء الثياب الانيقة ، ولاتهمل فى تعهد زينتها ، بل ولاتغفل أيضا شحذ ذهنها !٠٠ ولو أن المرأة أدت جميع المهام المطلوبة منها على خير وجه ، لمابقيت لها سوى لحظات قلائل من الفراغ ٠٠ لكن عزاءها عن تعبها انها تظفر بجزاء جهودها فى الحال ، فانه

لمن العجيب حقا أن ترى كيف تستطيع المرأة الحاذقة ـ فى أيام قلائل ، وبالنذر اليسير من المال ، يدعمه القدر الكبير من الجلد والشجاعة ـ أن تحيل « الزريبة » الى مكان بهيج يحلو العيش فيه !٠٠ وهنا يلتقى فن العمل وفن الحب فى مجال واحد !

لاتعليم بغير نظام !

◆ **ومن** أصعب فنون العمل وأحوجها الى الخبرة الطويلة ، فن التعليم والتعلم ٠٠ وهذا مانلمسه لاول وهلة حين نحاول السيطرة على أطفالنا !٠٠ على أن الام أقدر من الاب عموما فى هذا المضمار ، فالاب قلما يكون مدرسا طيبا لاولاده : لانه اما مغرور لايعرف غير النزر اليسير ويتوهم نفسه « علامة » ! واما واسع المعرفة لكنه عاجز عن الشرح والايضاح ٠٠ واما بالغ القسوة ، أو نافد الصبر ، شديد الضجر من مهمة التعليم ٠٠ أومسرف فى التسامح مع أطفاله الى حد تدليلهم !٠٠ وعلى أية حال فاننا ينبغى أن نتلقى قواعد فن التعليم من المدرسين المحترفين الذين أصابوا نجاحا وتوفيقا فى هذا الفن ٠٠

ومعروف أن التعليم ـ عموما ـ لاتقوم له قائمة بدون النظام ، وان أول واجبات التلميذ أن يتعلم أولا كيف يعمل ويجد ، بحيث يكون تدريب الارادة سابقا على تدريب الذهن !٠ وهنا السر فى أن التعليم المنزلى لايصيب قدرا كبيرا من النجاح ، فما أسهل أن نتلمس فيه الاعذار للتهرب من الدرس ، وما أيسر أن تلقى هذه الاعذار قبولا من الوالدين ! فحينا يحس الصبى بصداع ٠٠ ومرة يتعلل بأنه لم ينم نوما كافيا فى الليلة الفائتة ٠٠ وثالثة بأنه مدعو الى حفلة شائقة ٠٠ الخ ٠ أما المدرسة فلاسبيل فيها الى مثل هذا التسامح ، وهذه كبرى فضائلها وحسناتها !٠٠ وأنا أميل الى تفضيل نظام المدرسة الداخلية ، فهو رغم نقائصه الخطيرة ـ ورغم أنه قد يفسد الاخلاق أحيانا ـ يتسم بالصرامة ، ويخلق رجالا ٠٠ اذ يجبر الاولاد على أن يشقوا

مكانا لانفسهم فى الجماعة بمجهودهم الخاص ، فى حين أنهم يجدون فى الاسرة هذا المكان معدا ، ومن السهل أن يشغلوه !٠٠

تعترضنا بعد هذا «بدع» الاساليب التعليمية الحديثة ، التى أعتبرها أنا من قبيل « التسلية » ، والتسلية فى رأيى تناقض فكرة التعليم من أساسها ، فهدف التعليم اقامة العمد الاولى لصرح المعرفة فى ذهن الطفل ، ورفع هذا الطفل تدريجيا - وبقدر الامكان - الى مستوى الذكاء المصطلح عليه «كمتوسط» ٠٠ ثم لاتلبث الحقائق التى يتعلمها الصبى من تجاربه واكتشافاته فى الحياة ، أن تزيد الصرح ارتفاعا ٠٠ لذلك كان من الخطأ أن نحاول قلب هذا النظام الطبيعى ، وأن نجتذب عقل الطفل بالتأثير عليه ببدع الحياة الحديثة ، كالتعليم «بالصور» ، والراديو ، والسينما ٠٠ وغيرها من الوسائل المستحدثة التى لاينبغى استخدامها فى الواقع ، اللهم الااذا كانت تدعو الى جهد خاص أو تستثير فى الصبى حماسة خاصة ٠٠ ذلك لان الشىء الذى يلقن بلا عناء ، ينسى بسهولة !

ولهذا السبب ذاته ، يكون التعليم الذى من طرف واحد ، أى الذى لايتطلب مساهمة الطالب نفسه فى المناقشة ، غير ذى نفع فى الغالب ٠٠ اذ تنساب فيه « بلاغة » المدرس خلال احدى أذنى التلميذ ، لتخرج من الاذن الاخرى !

لا خير فى البرامج المزدحمة

◆ **والتعليم** الاولى هو أهم مراحل التعليم - وان كان الآباء لايولونه حقه من الاهتمام - فهو ينشىء من عدد « قليل » من الموضوعات - تلقن فى البداية خير تلقين - الدعامة التى يرتكز عليها كل شىء فى المستقبل ٠٠ **وفى رأيى أن الاقتصار على القليل من المواد ، مع العناية بتدريسها ، خير من الاكثار منها مع عدم العناية ٠٠ فلاخير فى منهاج للدراسة يزدحم بالمواد ، اذ أن هدف التربية أن ننتج عقولا نشطة عاملة ، لاأن ننتج فنيين اخصائيين**

منذ صباهم الباكر ! ‥ ولقد قيل قديما ان «التعليم يجب أن يسير بخطى بطيئة» ، وهذه العبارة تنطوى على كثير من المعانى التى ينبغى أن يتدبرها بعض رجال التربية الحديثة ، ذوى الميول الخطرة التى تحبب اليهم اهمال الثقافة القديمة – وهى أهم الاسس لكل تعليم – وتركيز الاهتمام فى المذاهب والاحداث الحديثة ‥ فالمعرفة شىء والثقافة شىء آخر ، والشباب أكثر حاجة الى الثقافة منه الى المعرفة ‥

قد تكون القراءة رذيلة !

◆ **وهذا** يفضى بنا الى سؤال هام : هل تعتبر القراءة «عملا» أو متعة ؟‥ يقول (فاليرى لاربو) ان القراءة « رذيلة لاعقاب عليها » !‥ ويناقضه (ديكارت) فيصفها بأنها « حديث مع أشهر عباقرة القرون الماضية » ‥ **وكلا الرأيين فى نظرى صائب !**

فالقراءة تغدو رذيلة اذا لجأنا اليها كمخدر أومنفذ للتهرب من الحياة الواقعة والتسلل الى دنيا الخيال ‥ وممارسو هذه الرذيلة يقرأون باستمرار ، ويرون فى كل شىء مادة صالحة للقراءة ‥ بل انهم قد يفتحون دائرة المعارف فيقرأون مقالا عن طرق استخدام الالوان المائية بنفس النهم الذى يقرأون به مقالا عن الاسلحة النارية !‥ واذا خلوا الى أنفسهم فى غرفة ، تأملوا ماحولهم حتى اذا رأوا مجموعة من الصحف والمجلات ، اتجهوا اليها على الفور ، وآثروا أن يستغرقوا فى القراءة – مهما كان موضوع مايقرأون – عن أن يخلوا لحظة الى أفكارهم ‥ فهم لايسعون وراء آراء أو وقائع ، وانما وراء مواكب لانهاية لها من الكلمات ، تحول بينهم وبين مواجهة الدنيا أو مواجهة أنفسهم ‥ ومن ثم فهم لايحتفظون فى ذاكرتهم بغير قدر ضئيل من مطالعاتهم ، وهم لايقيمون وزنا يذكر لمصادر المعرفة التى يستقون منها ‥ **وهنا ، تكون القراءة مسألة سلبية ، فهم**

يلتهمون الصفحات دون تمعن أوتأمل ، ودون أن يفردوا لهـا فراغا فى عقولهم ، أويستوعبوها بأى الطرق ..

هذا ، فى حين أن القراءة «للاستمتاع» عمل ايجابى ، فهواة الروايات يقرأونها لارضاء هوى فى نفوسـهم ، وأملا فى أن يصادفوا معانى الجمال التى تثير أو تهز عواطفهم ، أويعوضوا ماحرمتهم الحياة من مغامرات .. الخ . ومن هؤلاء من يقـرأ لمتعة البحث بين ما أنتجه الشعراء والادباء عن خير تعبير يصور خلجاته وتجاربه أومشاعره الشخصية .. ومنهم من يقـرأ التاريخ - دون أن يتوفر على عصر معين أوفترة بعينها - لانه يجد متعة خاصة فى أن يتحقق من أن مشاعر الانسان واحـدة رغم توالى القرون !.. وهذا «الاستمتاع» بالقراءة ، اتجـاه سليم ولاشك ..

القراءة كمتعة .. والقراءة كعمل !

◆ **على أن** من القـراءة مايكون «عملا» .. وتلك هى التى يمارسها رجل يبحث عن نوع معين من المعلومات يحتاج اليـه ليعزز أويكمل صرحا فى ذهنه يوقن من أهميته .. والقـراءة كعمل يجب أن يصحبها قلم أو ريشة فى اليد ، مالم يكن للقارىء ذاكرة جبارة .. فليس أضيع للوقت الثمين من أن يبحث المرء مرتين عن فقرة يريد استخدامها .. ولقد اعتدت حين أقرأ كتابا فى التاريخ أو فى أى موضوع ، أن أسجل على غلافه مذكرات عن الفقرات الهامة ، وأرقام الصفحات ، وبهذا أستطيع أن أرجع اليها اذا دعت الضرورة ، دون أن أضطر لقراءة الكتاب بأكمله ، مرة ثانية !

وللقراءة - ككل عمل - قواعد خاصـة .. وخليق بالمرء فى شبابه أن ينقب بين الكتب ، كما يبحث فى الدنيـا عن الاصدقاء .. فاذا ماعثر على ضالته المنشودة منها ، واصطفاها

الى نفسه ، وجب أن ينفرد بها فى عزلة ٠٠ وان ملازمتك للكاتب الذى تحبه وتصطفيه ، لتكفى كى تملأ عليك حياتك ٠٠

وعندما يقرأ المرء ، يجب أن يولى كبار كتاب الماضى أعظم قدر من الاهتمام ٠٠ ولامراء فى أنه من الطبيعى والضرورى أن يتعرف الى كتاب العصر الحاضر ، اذ بينهم نجد الاصدقاء الذين يعانون هواجسنا ويحسون بحاجاتنا ٠٠ لكننا ينبغى أن لا نغرق فى بحار من الكتب التافهة ، فى حين ان لدينا من الروائع عددا كبيرا قد لا نستطيع ان نحيط به كله ..

فلنطمئن الى ما اختارته القرون الغابرة .. وكما ان الانسان يخطىء ، فليس بمستبعد على جيل من الاجيال ان يخطىء ، ولكن الانسانية كلها لا تخطىء قط .. ومن المؤكد أن «هوميروس» و «شكسبير» و «موليير» اهل لما اصابوا من شهرة ، ولذا فمن حقهم أن نؤثرهم بقسط من التفضيل على الكتاب الذين لم يتعرضوا بعد لحكم الزمن ..

فن فهم الحياة

◆ **ومن** الواجب ان نحسن اختيار غذائنا الادبى ، فكل ذهن فى حاجة الى غذائه الخاص ، ومن ثم فعلينا ان نتبين اى المؤلفين نؤثر على غيرهم .. ونحن فى الادب نعجب بما يختاره سوانا ـ تماما كما فى الحب ـ لكننا ينبغى ان لا ندع انفسنا نساق لهذه الخلة ، بل يجب ان نتشبث بما يروق لنا ، فنحن خير من يحكم فى هذا الصدد .

وخليق بنا ان نقبل على القراءة بالرزانة والعناية و «المهابة» او الاستغراق الذى يحف بالحفلات الموسيقية الرفيعة !.. فليس من القراءة فى شىء ان نقرأ صفحة ثم ننهض للرد على «التليفون» .. او ان نختار اى كتاب جزافا ، بينما اذهاننا شاردة فى افق آخر ، ثم ندعه جانبا الى اليوم التالى ..

انما القارىء الصادق هو ذلك الذى يفرد الليالى الطوال ، يخلو فيها الى ما يقرأ .. والذى يخصص امسية احد ايام

الاحد ـ فى الشتاء حين يتعذر الخروج ـ لمؤلف يعجب به .. والذى يرتاح الى رحلة طويلة ، لان خلوة القطار تتيح له فرصة قراءة رواية كاملة من روايات «بلزاك» او «ستندال» .. والذى يستشعر فى اعادة تلاوة عبارة او فقرة جميلة عين النشوة التى يستشعرها عاشق الموسيقى حين ينصت الى لحن حبيب .. !

ومن ثم عليك ان تؤهل نفسك لتكون جديرا بالكتب الجليلة ، اذ ان استمتاعك بها يتوقف الى حد كبير على استعدادك لقراءتها . وهذا الاستعداد يتوقف على ظروفك الراهنة ، فتحليل العواطف ووصفها مثلا لا يهم سوى اولئك الذين خبروها ، او الشباب الذين يترقبون ازدهار مشاعرهم فى امل وحنين .. وليس ابلغ تأثيرا فى النفس من رؤية شاب لم يكن يطيق فى العام الماضى سوى قصص المغامرات ، فاذا به يغرم فجأة بقصة «انا كارنينا» ، بعد ان اهتدى الى ما فى الحب من مباهج وآلام ! .. وبينما نرى كبار الرجال العاملين يحبون اشعار «كبلينج»، اذا بكبار رجال السياسة يغرمون بمؤلفات «تاسيتس» و «ريتز» ..

وهكذا ، فان فن المطالعة والقراءة هو ـ الى حد كبير ـ فن تهذيب فهم الحياة ، على الاضواء التى يصادفها الانسان فى الكتب ..

الفن موهبة .. ومران !

◆ **وعمل** الفنان يشبه عمل الصانع ولا يشبهه .. فى آن واحد ! فكلاهما يجب ان يحرز مهارة فنية لا سبيل اليها الا بدراسة دقيقة على اساتذة من الاقطاب المتمكنين ، على ان يتلو هذه الدراسة مران دائب .. وطبيعى ان الموهبة او الملكة امر ضرورى لكل فنان ـ كما اوتى موزار وبايرون وهيجو وشاتوبريان مواهبهم الفنية ـ غير انه لابد من ادراك ان هذه

الموهبة تظل عقيمة مالم تجد من الرعاية والتهذيب ما ينميها..
ولقد اتيح لى ان ارى الشاعر الكبير «بول فاليرى» وهو يعمل ، ودرست مخطوطات «بروست» ، فتبينت انهما لم يصلا الى ما وصلا اليه الا بالجد على البحث ، واستمرار المراجعة والتنقيح ، والجهد فى السعى بحثاً عن الكلمة التى تعبر ادق التعبير عن الفكرة ، او التى لا يمكن ان تستبدل بها كلمة اخرى لاسباب خفية تقوم على تناسق الكلم والنغم فى العبارة .. وما يقال فى الادب يقال فى الموسيقى ايضا .. فان كتابة مقطع موسيقى - تشترك فى ادائه فرقة كاملة - انما تسبقه دراسة موسيقية واسعة عميقة ، لا تتأتى لغير النابغة العبقرى الا بعد جهد طويل مضن .. وانك لتجد فى ارقى المبتدعات الفنية واكثرها انتظاما ، شيئا من المران والتدريب والرياضة ، الى جانب الموهبة الاصلية !

على ان اكتساب المهارة الفنية وان كان ضرورة لازمة للصانع ، الا انه لا يعدو ان يكون «جزءا» من عمل الفنان.. واذا كان «فاليرى» يقول : «انما يكتب الشعر بالكلمات لا بالعواطف»، الا ان كليهما ضرورى لاى شعر .. ومهما كانت صنعة الفنان متقنة ، فانها بغير التأثيرات العاطفية تكون كالطعام بغير توابل!.. ونحن نلمس فى الحان «بيتهوفن» صنعة او قالبا رائعا ، ولكنها ما كانت لتبلغ ما بلغت لولا انه سكب فيها نفسه .. افكاره ، وآلامه ، وافراحه !

ومن ثم ، فالى جانب المهارة الفنية ، يجب ان تكون للفنان حياة يعيشها - او بالاحرى عاشها - كى يعكسها على انتاجه . وهو فى هذا يختلف عن الصانع .. وما الشعر الا «مشاعر» تستذكر فى اويقات الهدوء !..

حتى الراحة .. فن !

◆ **وفن** الراحة جزء من فن العمل ، فالمتعب المضنى الذى يكون فى أمس الحاجة الى الراحة ، لا يمكن ان يجيد عملا ما.

وكلنا نعرف كيف تتبلد اذهاننا بعد ليالى الارق والسهاد .. وفى حالة كهذه لا تكون ثمة جدوى من تطبيق مبادىء فن العمل ، اذ انها تتطلب ان يكون العقل والجسم فى خير حالة، قبل اى عمل .. والمخلوق البشرى لا يستطيع ان يعيش بلا عمل وراحة متعاقبين .. والواقع ان نظام الانجليز بشأن الافادة من عطلة نهاية الاسبوع لهو نظام حكيم حقا ، بالنسبة للصحة الاجتماعية ، او صحة المجتمع .. واذكر اننى رأيت وزراء فى الحكومة الفرنسية كان يبلغ بهم الانهاك حدا لا يقدرون عنده على استبقاء اعينهم مفتوحة ، ومع ذلـــك فقد كانوا مضطرين الى اتخاذ قرارات كان سلام أوربا يتوقف عليها !

فى مثل هذه الحالة ، تصبح الراحة واجبا لازما محتوما .. **وهى لا تكون فنا صعبا حين يكون التعب نتيجة جهـد جسدى .. اذ لا يكاد الرجل يلقى بنفسه على السرير حتى يروح في سبات عميق ، أما اذا كان التعب ناشئا عن مجهود ذهنى ، فقد يمتنع النوم والحاجة اليه بالغة .. وفى هذه الحالة يغدو النوم فنا ، اليك بعض أسراره :**

لكى ينـــام المرء يجب أن يؤمن بمقدرته على النوم .. وقد تكون العقاقير ـ اذا أخذت فى جرعات بسيطة جدا ـ ذات نفع خاص فى هذا الصدد ، اذ تساهم فى هذا الايحاء الذاتى .. وأول ما ينبغى فعله لجلب النوم هو أن يستلقى المرء فى وضع بعيد عن اثارة احساساته الجسدية ، وفى ظلام دامس ، وحرارة معتـــدلة .. ثم ليطرد كل الافكار الخاصة بالحاضر ، فهى تسبب الارق .. وليجبر الذهن ـ ان أمكن ـ على استعراض الماضى البعيد ، حين لم يكن لاسباب القلق الذى نستشعره وجود ـ كمرحلتى الطفولة والشباب الباكر .. أعنى أن يغلق عينيه ويحاول أن يرى وراءها صورا لهذه الاحداث .. فلا يلبث أن يتسلل رويدا الى دنيا هادئة يتيسر فيها النوم ..!

وهناك طريقة أخرى تختلف عن هذه كثيرا ، ولكنها فعالة

أيضا ·· تلك هى أن نهون من شأن الارق وقيمته ، وأن نعتبره حادثا سعيدا يسوقنا الى تناول كتاب أو تأمل صورة ·· ثم نرتقب فى هدوء – دون أن نفطن الى الزمن – اللحظة التى يؤدى التعب الجسدى فيها الى النوم ··

لتكن لك هوايات ··

◆ **وكثيرا** ما يكون من العسير أن يجد المرء النشيط الصحيح الجسم ما يملأ فراغه ، ومن ثم يتولاه السأم ، ويروح يذرع ارض حجرته كحيوان حبيس ، ثم يغرق رويدا فى الرذائل التى لا تعدو عنده أن تكون مجرد وسائل لاثارة ما لا حصر له من الاحاسيس الحية فى جسده، كى يملأ فراغه··

ولقد أدت المدنية الحديثة بمخترعاتها وآلاتها ، الى زيادة ساعات الفراغ ، فوجب علينا أن نتعلم كيف نفيد منها ·· واليك عدة أساليب نافعة فى هذا الصدد :

فأولا هناك من الاشغال التى يحترفها غيرنا ما يصلح لان يكون مبعث ترويح لنا ·· فالتمثيل ، وفلاحة البساتين ، وصيد الاسماك والطيور ، والنجارة ، كلها « أعمال » للمحترفين ، لكنها بالنسبة للهواة تسلية وترويح ، حتى لو استغرقوا فيها بأقصى ما يمكن من الجد ·· ذلك لان استخدام عضلات وأعصاب غير التى اعتدنا تحريكها ، لون من ألوان الراحة فى حد ذاته ·· ولان ممارستها توحى للهاوى بأنه قد تخلص من كدحه وكفاحه الشاق ، وبأنه حر فى أن يكف عما يعمل فى أى وقت يشاء ، ومن ثم فهى تعفيه من تعب الالتزام والقسر ··

والالعاب أكثر أنواع النشاط تحررا ، فهى لا تنطوى على مشكلات تتطلب أن تحل ، وليس هنالك سوى مجموعة بسيطة من القواعد الموضوعة يتفق اللاعبون على الخضوع لها ·· ومن ثم لا يشعر لاعب الشطرنج أو لاعب البريدج بأنه يمارس عملا أو يكافح العالم ، وانما هو ينازل مهاترة بمهاترة ·· وفى هذا المضمار يوجد عاملان ينبغي توافرهما ليكون اللعب لونا من

الراحة : أولهما شعور اللاعب بأن لا أهمية للخسارة ، وثانيهما ادراكه ان تدخل الحظ له صلة محدودة بالنتيجة .. فان قدح ذهنه كى يربح يريح أعصابه أكثر من انتظار هبوط الحظ عليه من السماء !

وخليق بنا أن نلاحظ الفوائد المعنوية أيضا للالعاب المختلفة والرياضة : وأهمها ان اللاعبين هم الذين يلزمون أنفسهم باحترام القواعد ، لان الالعاب لا يمكن أن تمارس بدونها . ولو أخذت كل أمة بهذه العادة أجيالا عديدة ، لاستطاعت أن تنجب مواطنين اشربت نفوسهم بحب القانون .. وانك لتجد الانجليزى مثلا يقول عن الخائن فى الحب أو التجارة أو السياسة انه « رجل لا يؤدى اللعبة على أصولها ! » ، وما المدنية فى الواقع سوى ممارسة الانسان لعادات وقواعد عادلة متعارف عليها ومتفق على قبولها .

المسرح والسينما والراديو .. « حياة بلا مسئوليات ! »

◆ **ومشاهدة** روايات المسرح أو السينما هى نوع من الراحة والترويح عظيم الفائدة ، فنحن نجلس أثناءها ساكنين نشاهد تصرفات سوانا .. ومبعث اهتمامنا بما نرى هو شعورنا بأنه عبارة عن صور انسانية ليست بالغريبة عنا ، وان الاحاسيس والعواطف التى تتضمنها المآسى والمهازل هى من أحاسيسنا وعواطفنا .. ومن ثم فنحن « نحيا » فيها مع الممثل !.. **ومن هنا ينبعث السبب فى ان المسرح من وسائل الراحة ، فنحن فى دنياه غير مطالبين بابرام أمور أو اتخاذ قرارات .. وانا لندرك ان « الدراما » التى نراها هى مأساة قد نعانيها ، ولكنها تدور فى عالم خيالى .. وهى تنتزع النظارة من أوشاب العالم، وتلفهم فيما تتضمنه من عواطف عميقة سامية ، وبهذه الطريقة تسمو بهم وتبعث الغبطة فى نفوسهم** .. وكذلك السينما والراديو ، ان هما الا « فترات استراحة » تعدنا لمهام جديدة ، بانتزاعنا من صخب عالمنا ومتاعبه .. لكنها اذا أوغلت في

التطرف والمغالاة ، أذهلتنا وخدرت تفكيرنا وحسنا ٠٠

ومن أنواع الراحة أيضا تغيب المرء فترة عن مقر اقامته ، لا لان الاسفار تعفيه من الاعمال اليومية على اختلافها ، وانما لانها تحله من مسئولياته ٠٠ ذلك لان المسافر ـ ما لم يكن ذا صفة رسمية ـ يعيش لنفسه ، فهو فى ترحاله غير مسئول عن تصرفاته أمام مجتمعه أو أسرته ٠٠ وليس أى بلد غريب نزوره فى ترحالنا سوى مجموعة من المناظر الجديدة علينا ، فنحن فيه نتحرر من أعباء المسئوليات وما تبعثه من قلق وهم مستمرين ٠٠ ومن ثم ، فكل منا يحتاج بين وقت وآخر الى فترة من التحرر والتجديد ، يعود بعدها الى « الروتين » المألوف بروح منتعشة ، على أن فترات الراحة يجب أن تكون قصيرة ٠٠ وان المرء ليدهش اذ يتبين كيف أن السفر لبضعة أيام فقط يستطيع أن يرد اليه انتعاشه الذهنى !

للعمل عشاق صادقون

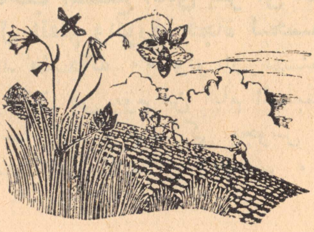
◆ **والرجل** الذى يحب عمله حبا صادقا ، يعود اليه بعد الراحة القصيرة ، في شوق واشتهاء غريبين ٠٠ بل انه حتى فى فترة اجازته يفكر فيه برغمه ، ويحمل معه مشكلاته أينما ذهب ٠٠ **فترى الكاتب فى سفره يقلب فى ذهنه عبارات ناقصة يحاول أن يصل بها الى الكمال ٠٠ واذا هو استيقظ فى بهيم الليل، قفزت الى ذهنه مجموعات من الجمل والعبارات، يروح يستعرضها فى ظلام مخدعه محاولا أن ينتقى منها ما يروق ٠٠ وصاحب المصنع الذى يفر الى شاطىء البحر فى اجازة ، قد يتناول القلم والورق فجأة ليحسب من جديد نفقات التكلفة لاحد منتجاته ٠٠** ولو ان مصنعه كان قريبا ، لاسرع اليه ـ ولو كان فى يوم من أيام السبت ، وقد انطلق أعوانه فى عطلة آخر الاسبوع ـ كى يجوس فى « الورش » الخالية ، يستعرض أحلام التعديل والتغيير ، وزيادة الانتاج، وتحسين وسائله ٠٠

بل انك لتجد الفلاح يجوس خلال حقله فى أيام الاحد يتأمل أشجاره ، ويتفقد آثار الامطار الاخيرة على محصولاته ، ويرسل البصر مع الدروب الملتوية خلال الحقل وهى تمضى وتتسلق الكراهية الى الناس نحو أعمالهم ٠٠ فليس فى الخلال الطبيعية الهضاب ، أو تنحدر الى الوديان ٠٠ يرى فى كل شىء لسانا يحدثه عما بذل فى الماضى من جهود ، ويستحثه على البذل من جديد ٠٠

العمل خير مصلح للشعوب

◆ **والواقع** ان من أخطر أخطاء المجتمع الانسانى ، تسرب الكراهية الى الناس نحو أعمالهم ٠٠ فليس فى الخلال الطبيعية ما يفوق حب الرجل لما يعمل ٠٠ وقديما قيل ان « العمل يقى الانسان الضجر ، والمفسدة ، والفقر » ، فهو دواء لكل شر يخطر ببال ٠٠ وانى لارى – عن تجربة – ان العمل « عبادة »، تملأ النفس حبورا ٠٠ والنشاط فيه يقى الانسان شر نفسه ، أما التراخى فيسلمه فريسة للندم الذى لا جدوى منه ، وللتخيلات الخطرة ، وللحسد والبغضاء ٠٠

لذلك كان أول أسس « فن الحكم » توفير العمل للامة مهما كانت النفقات ، فالشعب الذى يسوده السأم يتعذر على حاكمه أن يسوسه ٠٠ أما الشعب المكب على عمل يؤمن بنفعه ، ويدأب بوحى من روحه على اتمامه ، فهو أسعد الشعوب ٠٠





◆ « ليس فى وسع أية قوة من البوليس فى العالم أن تتغلب على اى خارج على القانون أوتى ذكاء لامعا ، مادام يحرص على أن يرسم خططه فى دقة ومهارة ، وان ينفذها الى نهايتها دون أدنى انحراف عن أصولها ٠٠! »

هكذا كتب المجرم العاتى « لين ويتلن » فى مقال آثر به صحيفة امريكية ! ٠٠ وكان « ويتلن » يجيد خمس لغات اجادة تامة ٠٠ ومع أن سجون أورباكانت تستضيف فريقا من أصدقائه وأعوانه ، الاأن القضاء لم يحكم بادانته هو فى أية مرة ٠٠ فظل على الدوام نقىالصفحة ، برغم الجرائم المتوالية التىمافتىء يقترفها !

ولم يكن « ويتلن » يرتاد سوى أرقى الاوساط فى كبرى مدن أوربا ٠٠ وقد عرف بأنه كان فذا فى ذكائه ، جريئا فى اعتداد ، حريصا على سمعته كرجل « شهم » مقدام !٠٠ وكان ذلك المقال يكشف فى الواقع عن بعض جـوانب شخصيته ٠ فمماقاله فى سياقه :

« ٠٠ ولابد للانسان من أن يكون على دراية بعلم النفس اذا شاء أن يكون لصا ناجحا !٠٠ فليس يكفيه أن يعرف مواطن الخطر المادى ، بل لابد له من أن يقرأ أفكار غريمه ٠٠ كيما يعد العدة لاحباط خططه أولا بأول ٠٠! »

وكان المفتش « ريتر » لاينى يقرأ هذا المقال بين الحين والآخر ، حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب ٠٠ وكثيرا ماكان يقول لمن يعرفون المغامر الكبير : « انذروه بانه سيحرم منالاتصالبالصحافة اربع عشرة سنة اذا ما دس انفه يومافىلندن!»

ومع ذلك ، فقد جرؤ « لين » على أن يتحداه ذات يوم :

استغاثة امرأة !

◆ كان الوقت مساء ، وقد أخذ الجندى المعين للحراسة فى أحد جوانب ميدان « بيرفورد » يخطر فى تؤدة ٠٠ حتى بلغ ناصية شارع « كونفورد » ، حيث التقى

بزميله المعين فى « الدرك » المجاور ٠٠ وفيما هما يتبادلان بعض الحديث ، اذا بصرخة مروعة تنبعث من أحد المنازل المظلمة القائمة فى الميدان ٠٠ فانطلق الجنديان يعدوان نحو مصدرها ٠٠

وأمام باب المنزل رقم ٩٥ ألفيا فتاة فى غلالة نوم بيضاء ، ما أن رأتهما حتى هتفت : « النجدة !٠٠ أحمد الله ان ساقكما الى فى هذه اللحظة !»٠٠ ثم قالت وهى تدلف بهما الى بهو المنزل المعتم :

ـ لقد سمعت صراخه ٠٠ والصراع الذى دار ٠٠ وحاولت أن ألج غرفته ٠٠

وكانت فى هذه الاثناء تتحسس الجدار بحثا عن زر النور ٠ وحين استفاض الضوء فى البهو سألها أحد الجنديين عن الغرفة المقصودة ، فأشارت بأصبع مرتجفة نحو السلم ، وهى تهتز انفعالا ، وقد بدا وجهها فى شحوب الموتى ٠٠ لكنها أبت فى ذعر بالغ أن تصعد معهما ، قائلة :

ـ لا٠٠لا٠٠لاأقوى ٠٠ انها الغرفة المطلة على الميدان ٠٠ بالطابق الاول ٠٠

وقفز الجنديان يطويان درجات السلم ، بينما ضغطت الفتاة زرا أضاء لهما بهو ذلك الطابق ٠٠ ورأيا أمامهما بابا من الخشب المزخرف ، فأسرع اليه أحدهما ـ ويدعى « سمبسون » ـ يدير مقبضه بقوة ٠٠ حتى اذا استعصى عليه فتحه ، راح يهزه فى عنف وهو يصيح : « افتح الباب !»٠٠ وحدث مالم يكن مرتقبا فى مثل تلك الظروف ٠٠ اذ لم يلبث الباب أن فتح !

جثة ٠٠ وحبل !

◆ ورأى الجنديان نفسيهما فى غرفة فسيحة تضيؤها ثريا بلورية ، وقد تصدرها مكتب أنيق ثمين ، ما ان سارا اليه حتى ألفيا خلفه جثة مسجاة لرجل فى ثوب السهرة !٠٠ وقال زميل «سمبسون» وهو يشير الى بقعة من الدم فى صدر قميص الرجل : « لابد أنه ميت ٠٠ قتل بطلق نارى !٠٠ »

وتلفت سمبسون ، فاذا باب مفتوح فى أحد الجوانب ، أسرع اليه فأفضى به الى شرفة ٠٠ وهناك أرسل ضوء مصباحه الجيبى ، فرأى حبلا ربط فى سياج الشرفة وتدلى نحو الارض ، مما أكد له أن القاتل استخدمه فى الفرار ٠٠ فهرع مع زميله الى الطابق الارضى عسى أن يتحقا به ٠٠

ولم يجدا الفتاة حيث تركاها ٠٠ فأخذا يحاولان فتح الابواب التى صادفتهما فى ذلك الطابق ، لعلهما يعثران على الفتاة فيستوضحانها ماتعرف ٠٠ ولكن جميع

الابواب كانت موصدة ، عدا باب أفضى بهما الى مطبخ رأيا فيه بابا آخر ينتهى الى الطريق الممتد خلف البيت ..

◆ وترك «سمبسون» زميله وأسرع هو الى الخارج ، ثم راح ينفخ فى صفارته .. فسرعان ماهرع اليه ثلاثة من الجنود ، يتقدمهم شخص طويل القامة ، عريض المنكبين .. ولم يكن هذا الشخص سوى المفتش «ريتر» ، الذى استدرجته بعض المهام الى تلك المنطقة ..

وأنصت «ريتر» الى سمبسون وهو يروى القصة ، ثم أمر أحد الجنود بأن يحرس الباب الامامى للدار ، وأسرع مع سمبسون الى الداخل ، حيث التقيا بهارى - الجندى الثانى - فابتدره «ريتر» متسائلا عن الفتاة ؟.. لكن هذا أجاب بأنه لم يرها مذ أرشدته وزميله الى السلم .. وأضاف انها قد تكون أوت الى مخدعها حيث أغمى عليها من هول المناسبة ..

واقتيد «ريتر» الى الغرفة التى وقعت بها الجريمة ، ولكن الباب كان مغلقا فى هذه المرة !.. فتعاون الرجال حتى كسروه .. وكم كانت دهشتهم حين ألفوا الغرفة خالية ، وقد اختفت جثة « القتيل » المزعوم دون أن تترك وراءها أثرا !

تضليل شيطانى !

◆ وتلفت «ريتر» حوله في دهشة ، ثم تذكر أن دار «المركيز باريللو » تواجه هذه الدار عبر الميدان .. وماكان مفتش البوليس ليهتم بذلك لولا أن غريمه اللص العتى « لين ويلتن » كان وقتئذ فى لندن .. ولولا أن بعض الزمردات الثمينة النادرة ، التى وصلت الى لندن من أيام قلائل ، كانت مودعة فى خزانة غير منيعة فى دار «المركيز» ! وكان هذا قد أخطر البوليس بأمرها طالبا حمايته ، فكلف المفتش «ريتر» اثنين من الشرطة بأن يحرسا الدار ..

وتبين مفتش البوليس أن هذين الحارسين كانا بين من لبوا صفير «سمبسون» منذ برهة ، فخفق قلبه ، اذ كان يعرف مدى سرعة « لين ويلتن » فى العمل !.. ومن ثم أسرع يعدو كالمجنون الى دار «المركيز» ، فاذا صاحب الدار وزوجته يقضيان السهرة فى أحد المسارح ، واذا خادماتهما الثلاث حبيسات فى غرفة فى أعلى الدار .. بينما وجد الخادم المسلح الذى كان قائما على حراسة الخزانة غائبا عن الوعى بتأثير ضربة قاسية ..

وكانت الخزانة مفتوحة .. خاوية !

◆ وتمتم «ريتر» محنقا : «لابد أنه كان يستعين بثلاثة من مساعديه !» •• ولم يكن هذا بالشيء الجديد ، فهكذا كانت عادة «لين» • وكان من المؤكد أن الاربعة قد افترقوا بمجرد الفراغ من الجريمة ، ليتخذ كل طريقه الى خارج انجلترا وفق خطة مدبرة !

وكان «لين» في الواقع فذا فى أساليبه •• فماكان ليخطر لاحد ببال ، أنه يستأجر منزلا مفروشا فى ميدان (بيدفورد) ليمثل فيه جريمة « وهمية » ، كى يستدرج جميع الشرطة الذين فى المنطقة •• وبذلك لايبقى ثمة من يحرس المكان الذى يريد السطو عليه !

وفتش «ريتر» دار المركيز ، فلم يعثر فيها على شيء يساعد على تبديد الغموض الذى يكتنف السرقة ، اللهم الا قصاصة من ورقة كانت فى الموقد وقد أتت النار على معظمها ولم تبق منها غير سطور طبعت بلون أحمر ، متضمنة تعليمات للسائحين عن القيود الجمركية وما اليها •• فدسها المفتش فى جيبه ••

◆ ووافته نتائج تحريات مساعديه فى الصباح التالى ، لكنه لم يجد بينها مايثير الاهتمام ، سوى ماذكره جندى كان قائما بالحراسة عند التقاء شارعى « الملكة فيكتوريا » و «كانون» ، من أنه رأى حوالى وقت وقوع الحادث سيارة منطلقة باقصى سرعتها ، وفى داخلها امرأة كانت منهمكة فى ارتداء ثوب نسائى أثناء انطلاق السيارة ! ــ الامر الذى يوحى بحرصها على اللحاق بموعد هام ••

ورأى «ريتر» أن يستخدم أصول علم النفس ، الذى يغرم «ويلتن» بتطبيقه فيمايرسم من خطط ، فاستدعى «سمبسون» واستفسر منه عن مميزات المرأة التى أرشدتهما الى «جثة» القتيل •• فأكد له أنها كانت تتكلم الانجليزية فى لكنة « أجنبية » ، وقد استغرب من مسلكها انهاكانت لاتفتأ ــ رغم الجزع والانفعال ــ تلقى النظرات على ساعتها كل لحظات • وكانت الساعة وقتئذ قد جاوزت الحادية عشرة بدقائق ••

وبدا الارتياح على « ريتر » بعد هذه الاقوال ، وكأنها صادفت اصداء فى خياله •• فعاد يفحص القصاصة التى وجدها فى المدفأة بعناية وامعان !

مطاردة فى عرض البحر ••

◆ كانت الباخرة « اميل » تجتاز خليج «بسكاى» ذات صباح ، تقل الى سواحل مراكش جماعة من السياح حملتهم من لندن فى منتصف ليلة الحادث •• وفجاة ، انشق الافق عن مدمرة بريطانية لحقت بها واستوقفتها ، ثم أرسلت الى

سطحها ضابطا ألقى القبض على فتاة من ركابها اختلطت فى عروقهـا الدماء الانجليزية والاسبانية ٠٠ وكانت قد استقلت السفينة من أحد أرصفة مينـاء لندن قبيل رحيلها بدقائق !

واحتجت « انيز افيلز » ـ كماكانت الفتاة تدعى ـ فى شمم وصـلف ٠٠ ولكن كبرياءها انهار حين ضبطت وهى تحاول ان تلقى الى البحر بلفافة صغيرة !

وكان «ريتر» فى انتظارها بمكتبه فى لندن ، حيث بادر الى استجوابها ٠٠ حتى اذاكان الصباح التالى ، صدرت صحف لندن وفيها نبأ صاغه «ريتر» بنفسه :

« كشف اعتقال المرأة التى تنتحل اسم «انيز افيلز» عن بعض غوامض حادث ميدان «بيدفورد» ٠٠ ويبدو أن رئيس العصابة ، وقد رسم خطته بمهارة ، لم يكتف بتركيز كل اهتمامه فى انقاذ نفسه بمفرده ، بل تعمد أن يسوق الفتاة الى طريق يسهل على السلطات أن تلاحقها خلالها ! ثم تعمد ـ مرة أخرى ـ أن يترك أثرا يرشد اليها ، امعانا منه فى تحويل الانتباه عن نفسه ! »

وفى اليوم التالى ، نشرت الصحف ضمن تعليقاتها على نبأ اعتقال الفتاة ، فقرة صاغها «ريتر» بنفسه أيضا ، متخيرا كل كلمة منها بدقة وعناية ٠٠ وقد جاء فيها : « لقد تعمد الرجل الذى وضع خطة السطو ، أن يضحى بهذه المرأة ٠٠ فسيقت الى السجن لتتلقى عنه القصاص ! »

يجازف بنفسه ٠٠ لينتقم !

◆ وكان رؤساء «ريتر» قد يئسوا من الحصول على قرينة تدين « لين ويتلن » فى الحادث ، اذ دلت تحريات البوليس الفرنسى على أن الرجل كان فى فرنسا حين سرقت الزمردات !٠٠ ولكن «ريتر» لم يجارهم فى اليأس ، بل احس أن الرجل قد غدا فى قبضة يده ٠٠ وقال لهم : « اننى مثله قدير على قراءة الافكار ٠٠ وانى لاقرأ الآن مايجول بخاطره ، وارى مايبيته لى ٠٠ وسترى ! »

وكان مصيبا فى ذلك ، فقد اطلع «ويلتن» على مانشرته الصحف اللندنية وهو فى «اكس» ، فراح يذرع مسكنه الانيق مغيظا مفكرا ٠٠ ومالبث أن استدعى أحد أعوانه ، وكان رجلا مفرط الذكاء يدعى «سنيمنجز» ، وقال له بعد ان اطلعه على مانشر : « انهم لايستطيعون أن يقيموا دليلا واحدا يدينني ، بعد تحـريات البوليس الفرنسى ٠٠ لذلك أعتزم الرحيل الى انجلترا لأصفى حسابى مع ذلك المدعو « ريتر » ٠٠! »

فتطلع اليه «ستيمنجز» مأخوذا ثم قال : « انك تجازف بنفسك ، فلا تعتمد على .. اذهب وحدك ان أصررت ! »

وابتسم «ويتلن» فى استخفاف قائلا : « انك لتعرفنى تماما !.. اننى أقرأ الآن مايدور بخلده .. ولسوف اريك أروع معجزاتى ! »

ولم ينم ليلتها ، فقدشغل بوضع خطة جريمة لامثيل لها، للقضاء على«ريتر»..!

رسالة نسائية .. معطرة !

◆ بعد نحو أسبوع من ذلك اليوم وصل الى لندن انجليزى متقدم فى السن ، نزل فى أفخم فندق تحت اسم « الكولونيل برشن » .. وكان يحمل جواز سفر انجليزى ، ويبدو ـ ككل المسنين ـ سريع الانفعال ، لايكاد يقرأ الصحف الا فى بطء وعناء ..

وبعد أيام ، تلقى « ريتر » رسالة أنيقة معطرة ، جاء فيها بخط نسائى : « اذا شئت أن تعرف مخبأ بقية زمردات «باريللو» ، فعدنى أولا بأن لاتلقى القبض على .. سأوافيك بنفسى فى مكتبك فى «سكوتلنديارد » فى تمام الساعة الثامنة من مساء يوم السبت ، ولكن .. ثق اننى لن أتكلم ان وجدت مايريبنى ! »

راح «ريتر» يقرأ الخطاب مرارا ، فلا يزداد الاقتناعا بأن «ويلمتن» هو الموحى الى كاتبته بارساله .. ووقف فى نافذة مكتبه طويلا ، يرسل بصره الى النهر الذى يجرى أمام المبنى ، ويحاول أن يتصور مايجرى فى ذهن غريمه .. ويعد للقائه عدته !

وفى الموعد المضروب ، مساء يوم السبت ، كان السكون يسود ماحول «سكوتلنديارد» .. وقد جلس « ريتر » فى مكتبه يدرس تقريرا لم يلبث أن طواه ثم نهض الى النافذة ، فراح ينظر خلالها وهو مستغرق فى التفكير .. ووقع بصره على زورق مقبل ينزلق على صفحة النهر ، جارا خلفه عددا من الصنادل فى تؤدة وبطء .. وفجأة أقبل رئيس متعجرف من رؤسائه ، فعرض عليه « ريتر » الخطاب الذى حمله على الحضور الى مكتبه فى غير موعد العمل .. وتأمل الرئيس الخطاب ثم قال ساخرا :

ـ أحسب أن فن كشف المجرمين قد أصبح يعتمد على المعلومات التى يدلى بها المتطوعون .. لكم يشوقنى أن أعرف مالدى تلك المرأة !

ـ هذا اذا أتت .. ولكنها لن تأتى .. انما هو الذى سيأتى !

ـ «ويلمتن» ؟٠٠ هراء !٠٠ انه فى فرنسا ٠٠ ولسوف تشهد فى الساعة الثامنة خطأ حدسك ٠٠

◆ وبالفعل ، كانت الساعة الثامنة ولم تأت المرأة !٠٠ وانقضى ربع ساعة آخر ٠٠ وبدأ رئيس « ريتر » يتثاءب ٠٠ وفجأة ، سمع أزيز ، تناثر على أثره زجاج اطار كان مثبتا الى الجدار المقابل للنافذة المفتوحة ٠٠ وكانت ثمة «رصاصة» قد مرقت الى الغرفة وان لم يصحبها صوت أو فرقعة ٠٠ وقفز الرئيس الى النافذة ، فاذا رصاصة أخرى تصيب حافتها ، فتحدث ثغرة فيها ، وتمرق الى سقف الحجرة ٠٠!

وقال «ريتر» لرئيسه فى رفق وهدوء : « يحسن أن تبتعد عن النافذة ، فقد قيل لى انه ماهر فى الرماية ٠٠ وكنت أتوقع أن توافينى رصاصاته من ناحية أخرى غير تلك المركب التى أثقلها جر الصنادل ٠٠ انها فكرة رائعة حقا !٠٠ »

وكان الشحوب يسود وجه الرئيس وهو يصيح : « لقد حاول أن يقتلنى ! »

ـ بل كان يقصدنى أنا ٠٠ وأرجو أن يكون رجالنا قد أحدقوا به !

وفى تلك الاثناء كان زورقان بخاريان مليئان بالجنود قد مرقا من ظلال ضفة النهر واندفعا الى المركب ٠٠ فأردف «ريتر» وهو يتنفس الصعداء : «الآن حصلنا على دليل يدينه ! »

◆ وقال «ريتر» يشرح القصة للرئيس الاعلى لسكوتلنديارد :

ـ كانت خطة محكمة هذه التى دبرها «ويلمتن» لاغتيالى !٠٠ فقد عرف شغفى بالهواء الطلق ، وحرصى على ابقاء نافذتى مفتوحة ٠٠ وتوقع أن قلقى لتأخر الزائرة الموعودة سوف يغرينى بالوقوف أمام النافذة ، سواء بدافع الضجر أو التطلع الى الطريق لمراقبة المارة والقادمين !٠٠ أما علمى بوجوده فى انجلترا ، فيرجع الى سبب بسيط ٠٠ فقد رآه أحد رجالى حين هبط فى « سوثهامبتن » من الباخرة القادمة من فرنسا ٠٠!

قصة المؤلف

◆ والآن ، هل تريد أن تعرف شيئا عن مؤلف هذه القصة : ادجار والاس ؟

لوكنت فى أوربا أو أمريكا ، وأتيح لك أن تتتبع برامج محطات «التلفزيون» ، للاحظت أن من أشهر البرامج المحبوبة التى تذاع بكثرة كل حين ، والتى تتهافت محطات الاذاعة على شراء حقوق اخراجها بأجر باهظ : قصص « ادجار والاس »

البوليسية !٠٠ وقد اخرجت منها اخيرا قصته الطويلة المشهورة « الاربعة العادلون » ، فسهرت آلاف العائلات - على جانبى الاطلنطى - الى جوار أجهزتها مبهورة الانفاس ، وقد تعلقت ابصارها وأعصابها بشاشة التلفزيون !

ومايقال عن التلفزيون يقال عن السينما ، التى تتنافس شركاتها المختلفة على اخراج روايات ادجار والاس المثيرة ، مقابل مبلغ طائلة تدفع لورثته عن كل رواية - وقد كان آخر انتاج سينمائى لقصص والاس ، فيلم « التقويم » ، الذى عرض أخيرا فى لندن ونيويورك وباريس فى وقت واحد !٠٠

◆ والى جانب السينما والتلفزيون ، تمتلىء مقاعد المسارح الانجليزية والامريكية عن آخرها كلما قدمت لروادها مسرحية من مسرحيات هذا الكاتب الكبير ٠٠ كما تزخر واجهات المكتبات فى كافة أركان المعمورة بكتبه المترجمة الى كافة اللغات ! بل لقد نشرت احدى قصصه اخيرا مسلسلة فى احدى كبريات الصحف الفرنسية المسائية ٠٠ وفى سنة ١٩٢٨ بلغ مابيع فى انجلترا من قصصه وحدها ربع مجموع المباع من الكتب الانجليزية كلها ، فى شتى الموضوعات (باستثناء الانجيل والتوراة) ٠٠ هذا بخلاف عشرات الآلاف من النسخ التى بيعت وتباع كل عام فى كافة البلاد من أمريكا الى الصين !

الكاتب الذى امتع ملايين القراء ٠٠ يموت مفلسا !

◆ لذلك كانت دهشة العالم لاتوصف حين مات « ادجار والاس » سنة ١٩٣٤ ، فاذا هو يخلف وراءه ديونا بلغت مائة وعشرين ألف جنيه ٠٠ أما رصيده فى البنوك فكان ٠٠ صفرا !٠٠ بل لقد اضطرت زوجته - التى تركها لتواجه الفقر المدقع - الى أن تبيع أثاث مكتبه كى تسدد بضع فواتير تافهة للمحلات التجارية !٠٠ كما عرض بيته الرائع الكائن فى « مارلو » ، للبيع بالمزادالعلنى ، لكن ثمنه لم يكف الالسداد نسبة ضئيلة من الديون !

◆ على أنه لم تمض سنوات ، حتى حصل دائنو «والاس» على باقى ديونهم عن آخرها ٠٠ فبعد موته ، بلغ ايراد مؤلفات هذا الرجل الذى بدأ حياته بائعا للصحف فى ركن متواضع منشارع الصحافة بلندن (فليتستريت) : ١٢ ألف جنيه كل عام !٠٠ وابتاعت شركات السينما حقوق اخراج أكثر من ثلاثين رواية من مؤلفاته ٠٠ بل لقد حصلت مصلحة الضرائب من ورثته على خمسة آلاف جنيه كضريبة ايراد على أرباح كتبه منذ وفاته !

◆ بقى أن تعلم أن سر هذه المفارقة الصارخة بين ديون والاس فى حياته ، وأرباحه الضخمة بعد وفاته ، يكمن فى حقيقة مفجعة : هى استغلال الناشرين لحاجته وشراؤهم حقوق أكثر كتبه الاولى بثمن زهيد لايتجاوز الثمانين جنيها للكتاب ، بحيث عاش لايجنى منها أرباحا تذكر الى مابعد سن الخمسين ٠٠ وحتى بعد هذه السن ظلت دور الصحف تحتكر كل وقته فتستغله وترهقه بالعمل الكثير والجزاء القليل ، حتى مات فى النهاية من فرط الاجهاد ٠٠ تاركا وراءه - لزوجته وابنته وابنيه - تلك التركة المثقلة بالديون ، التى انقلبت بعد وفاته الى منجم للذهب لاينضب معينه !

لكنه ترك للانسانية والاجيال ثروة أدبية ٠٠ لاتقدر بمال !

معقول !

◆ ماتت زوجة الخطيب والمفكر الرومانى الشهير «كاتو» ، فتزوج من فتاة حسناء فى مقتبل العمر ٠٠ وعندئذ جاءه ابنه يسأله : «ماذا فعت لك يا ابى حتى تجلب الى بيتنا «زوجة أب» ؟

فأجاب الشيخ الفيلسوف فى تخلص ظريف : «بالعكس ، بل انى راض عنك يا ابنى كل الرضى ، لهذا أريد أن أنجب أولادا آخرين مثلك ! »

الطول ٠٠ والعلو !

◆ كان نابليون يبحث فى مكتبه عن كتاب ، فرآه موضوعا على رف فوق مستوى قامته ٠٠ فتقدم منه الماريشال «مونسى» - وكان من أطول الرجال قامة - وقال للامبراطور : «اسمح لى أن أحضر لك الكتاب يامولاى ، فانى أعلى من جلالتك ٠ ٠»

فأجابه نابليون متجهما : « بل قل انك «أطول»منى ياماريشال ! »

الخالدون



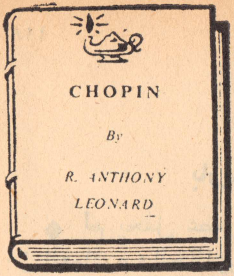
عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : « ديفاليرا » .. و« غاريبالدى » .. و«لويس باستير» .. و«أميل زولا» .. و«ماركونى» .. و«تشايكوفسكى» .. «فمصطفى كمال» .. وهم من هم من العظماء فى السياسة ، والطب ، والادب ، والاختراع .. والموسيقى .. الخ

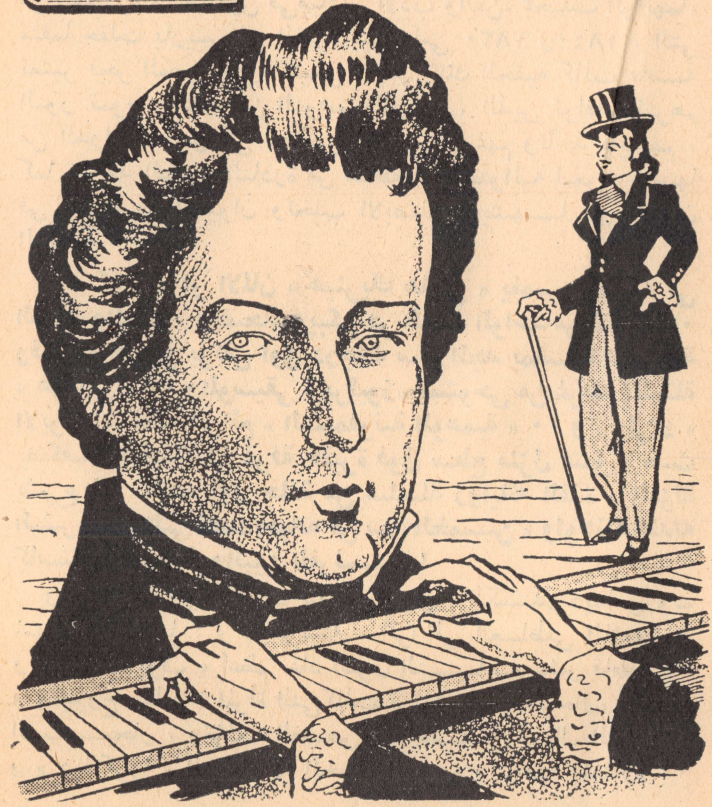
واليوم اقدم لك هذه السيرة الشائقة التى تصور حياة عظيم آخر – من رجال الفن هذه المرة – هو الموسيقى البولونى الاشهر شوبان ، الذى كانت حياته بدوره مزيجا من الاشواك والورود ، من الالم .. والمجد !

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، شيللى ، براوننج ، دانتى .. بيتهوفن ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشة ، ارسطو .. بوذا ، كونفوشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جوته ، روكفيلر ، أديسون ، فورد .. بلزاك ، ديكنز ، والتر سكوت ، ديماس ، دستويفسكى ، موباسان .. كولمبوس ، الاسكندر المقدونى ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. مايكل انجلو ، رفاييل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم



شوبان

أعذب لحن في سمع الزمان !



باريس فى العصر الرومانتيكى

◆ **لم** يحفل عصر من العصور أو بلدة من البلدان بمجموعة من العباقرة والخالدين فى ميادين الادب والفن، بمختلف ألوانهما، مثلما حفلت باريس فى الفترة بين عامى ١٨٣٠ و١٨٤٠ ، التى تعتبر فجر العصر الرومانتيكى • ففى تلك الحقبة كانت عاصمة النور تموج بحشد من النوابغ الملهمين ، الذين توافد أكثرهم من الدول الاخرى كى تحتضن باريس نبوغهم وتأخذ بأيديهم ، كما تتوافد الطيور النادرة من مناطقها الاستوائية لتعرض نفسها فى حديقة الحيوان وتخلب الابصار بريشها ذى الالوان الزاهية ••!

•• كان شاعر الالمان « هينريك هاينى » يغمس قلمه فى الشهد والعلقم ، ويضحك ويبكى فى البيت الواحد من شعره!•• وفيكتور هوجو يرتقى أولى درجات سلم المجد بمأساته المسرحية « هرنانى » •• والموسيقى « برليوز» يستوحى من غرامه بالممثلة الايرلندية لحنه الرائع « السيمفونية الوهمية » •• و « بلزاك » يعتكف كالناسك فى غرفة حقيرة فوق سطح منزل عتيق ، حيث يشرع فى تأليف أول حلقة من سلسلة رواياته الفذة « المهزلة البشرية » ، التى أفنت حياته فى سن الخمسين ، ولو انها خلدته كأستاذ لجميع الروائيين الفرنسيين !

والى جانب هؤلاء كانت باريس تأوى « الكسندر ديماس » ـ شهرزاد فرنسا ! و « جوتييه » الروائى العاطفى اللامع •• و « سانت بوف » أعظم نقاد القرن التاسع عشر قاطبة •• و « جورج صاند » المرأة التى كانت ترتدى ثياب الرجال، وتدخن السيجار ، وتؤلف القصص ، وتعشق رجال الفن !•• و « ديلاكروا » الرسام ذا الخيال الجرىء والموهبة الممتازة ••

ثم ستندال ، وميريميه ، ولامرتين ، وموسيه ، وشاتو بريان ٠٠ الخ ـ أما من عباقرة الموسيقى فالى جانب برليوز كان هناك « ليست » ذو الشباب البركانى ، الذى كان يغزو الموسيقى والنساء بنفس السهولة واليسر !٠٠ و « روسينى » أكسل الموهوبين ، الذى كف عن الانتاج وهو فى قمة مجده فى سن السابعة والثلاثين ، ثم عاش الى سن السادسة والسبعين !٠٠ وأخيرا كان هناك صاحبنا البولونى « فردريك شوبان »

افراط فى العواطف ٠٠ واخلاص مثالى !

◆ **وكان** العصر عصر افراط وتطرف ، يقتضى كل فنان رائد للرومانتيكية أن يكون شاذا غريب الاطوار ، حتى ان نصف هؤلاء الرومانتيكيين كان معتل الفكر ، يملأ رأسه كابوس الوساوس والاوهام ، وأمراض الجسم والنفس ٠٠ وفى ظل هذه العلل بلغوا جميعا قمة المجد ٠٠ وقد كتب ديماس فى هذا يقول : « **كانت (الموضة) الشائعة فى هذا العصر هى مرض ذات الرئة ٠٠ فكان الكل مصدورا ، وخاصة الشعراء ٠٠ وكان من المألوف أن يبصق الفنان دما عقب أى انفعال عاطفى ، ويموت قبل أن يبلغ الثلاثين !** » ٠٠ **كما كان العرف السائد أن يبكى المرء أو يغمى عليه فى المسارح ودور الاوبرا** ٠٠ فحينما سمع « ليزيور » ـ أستاذ برليوز ـ سمفونية بيتهوفن الخامسة أصابه من فرط تأثره دوار لم يستطع معه عند انتهائها أن يعثر على رأسه ليضع عليه قبعته !٠٠ وبينما كان ألفريد دى موسيه يحضر احدى مسرحيات « راسين » بلغ به التأثر مبلغا جعله يعتمد رأسه بين يديه وينشج بالبكاء ٠٠ وعندما انتهى غرامه مع جورج صاند بوقوعها فى أحضان عشيقها الايطالى « دكتور باجيللو » قضى دى موسيه أربعة أشهر معتكفا فى غرفته يذرف الدمع السخين ٠٠!

ذلك ان طابع العصر كان الثبات على حب حبيب واحد والتدله فى هواه الى درجة الجنون أو الانتحار ، اقتداء ببطل قصة جوته المشهورة « فرتر » ، أو سعيا الى احتـذاء المثالية الرومانتيكية التى أنهى بها اللورد بيرون حياته، حين مات ـ وهو الانجليزى ـ من أجل قضية حرية بلاد اليونان !

ذلكم هو العصر الذى لمع فيه نجم الموسيقى : فردريك شوبان .

الفتى الساهم

◆ **كان** شوبان فى الحادية والعشرين من عمره حين هبـط باريس ـ قادما من وطنه بولونيا ـ فى منتصف سبتمبر سنة ١٨٣١ .. وكان فتي نحيلا عليلا شاحب الوجه ، ذا أنف طويل مقوس وشفتين ممتلئتين تنبضان بالشهوات الحسية .. لكنه كان مكتئبا ، حائرا ، وحيدا ، مفلسا فى مدينة غريبة لا تعرف شيئا عن مواهبه كمؤلف موسيقى وعازف على البيانو .. وضاعف من وحدته ووحشته حنينه القوى العنيف الى وطنه ، الذى كانت قد دهمته قبل أسابيع محدودة كارثة كبرى ، هى احتلال الروس لعاصمته وارسو .. فلما هبط الفتى عاصمة النور الزاهرة كان يمضه القلق على وطنه ، وعلى مصير أهله وأصدقائه ، فيختلط فى وعيه بالانفعال الذى أثارته فيه باريس .. فكتب يقول فى وصفها : « **هنا يلمس المرء غاية الترف ، وغاية الفاقة .. أقصى الفضـيلة ، وأقصى الرذيلة .. فى كل شبر اعلان عن مرض تناسلى ، وصخب ، وضجيج ، ولغط وضوضاء ، ووحل يفوق كل ما يمكنك أن تتصور !.. يستطيع الانسان أن يهلك فى هذا الفردوس ، فان أحدا لا يسأل الآخر كيف يعيش ، ولا يهمه أن يعرف ذلك !.. فى وسعك أن تسير فى الشارع فى أسمال مهلهلة ، جنبا الى جنب مع نخبة المجتمع الرفيع .. وأنت يوما تستطيع أن تتناول أفخر عشاء فى مطعم يموج بالمرايا المذهبة والاضواء الباهرة ، مقابل اثنين وثلاثين فلسا .. وفى اليوم**

التالى تدفع ثلاثة أضعاف المبلغ فيقدمون اليك وجبة لا تشبع العصافير ! »

واستقر الفتى فى باريس وهو لا يعلم انه سوف يجد فيها وطنه الروحى ، وانه سيقيم فيها حتى آخر حياته .. حتى يغدو واحدا من أقوى الموسيقيين الخالقين تأثيرا فى جيله والاجيال التالية !.. بل يغدو المؤلف الاول لالحان البيانو فى العالم .. وعبقريا من أعظم من أنجبت بولونيا فى العصور الحديثة !

نشـــأته

◆ **ولد** فردريك شوبان فى قرية مجاورة للعاصمة « وارسو » فى ٢٢ فبراير سنة ١٨١٠ ، من أم بولونية وأب فرنسى كان قد هاجر الى بولندا عام ١٧٨٧ واشتغل بتجارة التبغ ، لكن تجارته فشلت فاضطر الى قبول العمل كمعلم خاص عند أسرة من البولنديين المشتغلين بقضية حرية وطنهم .. ولم يلبث أن التقى بالفتاة الارستقراطية التى صارت زوجته ! واستقر بالزوجين المقام فى بلدة « زيلا زوا وولا » التى تبعد ستة أميال عن وارسو ، وهناك رزقا ثلاث بنات ثم طفلا ذكرا هو فردريك، الذى كان ضئيل الجسم ضعيف البنية ، يوحى مظهره وطباعه بأنه أكثر أنوثة من اخواته الاناث !.. وبعد حين انتقلت الاسرة الى العاصمة حيث عين الاب أستاذا للغة الفرنسية بالجامعة.. وكبرت البنات الثلاث فبدأن يتلقين دروسا فى البيانو ، وللفور أظهر أخوهن فردريك ميلا شديدا الى الموسيقى ، فجلب له أبوه معلما يلقنه أصولها وينمى موهبته النادرة .. فاكتشف فيه معلمه استعدادا مزدوجا ، يؤهله من ناحية لان يبز « موتسارت » (موزار) فى التأليف والخلق : ويؤهله من الناحية الاخرى لان يصير من أشهر العازفين على البيانو !.. فلما بلغ التاسعة عشرة وأتيح له أن يسمع « هاميل » أشهر عازفى البيانو فى عصره ، و « باجانينى » عازف الكمان الذى كان ينطقه بأعذب

الالحان ، رجحت كفة اتجاه شـوبان الى أن يكون عازفا ٠٠ وعزف بالفعل فى عدة حفلات ناجحة فى وارسو ، وفينا ، وبراج ، ودرسدن ٠٠ الخ

علة فى الجسد ٠٠ وعلة فى النفس

◆ **ولكن** ضعف بنية الفتى كان مصدر قلق دائم لاهله ، فكانوا يحذرونه كلما تأهب للخروج من البيت بقولهم : « احكم سترتك حول جسمك يا فردريك ! » ٠٠ وبمضى السنين صار يحكم التدثر بمعطفه أكثر فأكثر ٠٠ لكنه كان احتياطا عقيما ، ففى داخل المعطف أو السترة كان الداء الوبيل يستشرى فى صدره تدريجيا ، والموت البطىء يسعى اليه سعيه الحثيث ٠٠ ولم يكن هو يجهل ذلك !

وقدكانت علته من أسباب اكتئابه الذى طبع حياته وموسيقاه بطابعه الحزين ، بحكم اقامة روحه المرهفة الاحساس بين جدران جسد مريض ٠٠ لكن العلة لم تكن سبب كآبته الوحيد ، فالى جانبها كان يمضه تعلقه الشديد الشاذ بوطنه الجريح ، الذى تركه فى سن العشرين الى غير رجعة ، موطنا مستباحا لنعال جنود الاحتلال الروسى !

والى جانب هذا السبب وذاك كان يعتمل فى أعماق شوبان صراع نفسانى ثالث ، مبعثه فشله المتوالى فى مغامراته الغرامية، التى كان أولها غرام شاذ بينه وبين شاب من جنسه !٠٠ وقد تبودلت بينهما رسائل حب حارة تقطع بأنه كان ـ فى فترة على الاقل من حياته ـ فريسة للشذوذ الجنسى الذى لا شك فيه ٠٠ ويبدو انه قد وجد فى قوة بنية صديقه العملاق وعقليته الايجابية تكملة لا بد منها لبنيته هو الهشة ونفسيته المرهفة ٠٠!

٠٠ وهكذا لم يبلغ فردريك طور المراهقة حتى صار يكن احتقارا عميقا لنزعات الشباب المألوفة وانغماسهم فى الملذات ٠ بل صار مجرد تناوله كأسا من الخمر يصيبه بدوار خطير ٠٠ أما ثيابه فكانت أميل الى ذوق النساء ، حتى قال أحدهم فى

وصفه : « ان شخصه ـ كموسيقاه ـ كان قصيدة رائعة من الشعــر ..! »

.. لكن شذوذه الجنسى هــذا لم يحرمه من أن يستمرىء اعجاب النساء بموهبته ، فقال فى صدد ذلك متفاخرا : « ان طريقتى فى العزف تعجب النساء الى أقصى حد » .. وكان ذلك مبعثا لارتياحه العميق ، حتى انه كان لا يفتأ يقول لاصدقائه : « أعتقد انى أتقنت تأديتها أمس » .. فيسألونه : أتقنت ماذا ؟ » فيجيبهم : « أتقنت الانحناء للجماهير فى رشاقة بالغة ، فقــد علمنى « برايدت » الاصول الصحيحة لهذه الحركة . »

ذلك كان مبلغ اعتداده بنفسه أو تباهيه ، وقد كان تباهيا مبعثه علة جسده ـ فلقد قيل ان كل رجل فان تتقمصه روح امرأة ! ـ وقد كان شوبان يحمل فى كيانه بذرة فنائه . ظهر يوما على خشبة المسرح كى يعزف ألحانا من وضعه ـ وقد وضع من الالحان عددا كبيرا قبل أن يبلغ العشرين ـ فلم تملك امرأة عجوز أن هتفت : « وا أسفاه .. انه لا يكاد يقوى على حمــل جسمه ! » وذلك من فرط ما كان مخلوقا ضئيلا مخنثا ..

ولئن كان الاسى أليفا غير مألوف للشاب فى سن العشرين ، فانه كان أليف شوبان فى تلك السن ، بل غريمه الذى لا ينفك يصارعه فيسلبه متع شبابه الغض ويحطم أعصابه ، فقد صيره « السل » حطاما ممزقا وهو بعد فى تلك السن ..

لكن أساه لم يكن من ذلك اللون الحاد ، الذى تخلفه التجارب، وانما كان أقرب الى الاسى الغامض الذى يصادفه الانسان فى الحلم !.. كانت تخالطه « بهجة » اليأس التى لا يستطيع أن يستشعرها غير مصدور سابح فى خياله .. فان ادراك شوبان لخطورة علته ، وتوقعه لنفسه الموت الباكر ، قد دفعاه الى محاولة اختزال متع الحياة فى سنواته الباقية المعــدودة .. ولم تكن

تجاربه حتى ذلك الحين تتجاوز غرامه الشاذ بصديقه الشاب ، ثم حبه الطبيعى لفتاة من تلميذات معهد وارسو الموسيقى تدعى « كونستانتيا جلادكوفسكا » ٠٠ وقد بلغ من خجله انه لم يكن يجرؤ على مقابلتها ، أو مفاتحتها بحبه ، وانما قنع بالانطواء على نفسه واستمراء حرمانه واجترار وحدته وعزلته ٠٠!

ولكنه لم يلبث أن تورط ، وهو فى الرابعة والعشرين ، فى حب آخر كانت هدفه فتاة فى التاسعة عشرة، ابنة كونت بولونى تدعى « مارى ودزنسكا »، وقد كانت فتاة عابثة لعوبا استدرجته الى حبها بجرأتها وخفة روحها ٠٠ لكن أسرتها وقفت عائقا فى طريق حبها « لموسيقى » ، وموسيقى مريض بوجه خاص !٠٠ فانتهى حبهما بعد سنوات الى غير نتيجة (وقد وجدت - بعد موت شوبان - جميع خطاباتها اليه وخطابات أسرتها ، فضلا عن وردة مجففة كانت قد أهدتها اليه ٠٠ محفوظة كلها بعناية داخل ظرف كتب عليه « أحزانى » !)



على أن تلك المغامرات لم تكن الا بمثابة المقدمة لحبه العظيم الذى بدأ فى باريس فى سنة ١٨٣٨ - وهو فى الثامنة والعشرين - والذى استمر ثمانى سنوات ، وكانت شريكته فيه الاديبة العاشقة جورج صاند ٠٠ فلما انتهى بالقطيعة كانت نهايته ايذانا بنهاية انتاجه الفنى ، ثم بنهاية حياته ! ٠٠ كما سنرى

حفنة من تراب الوطن !

◆ **أشرنا** فيما سبق اشارة عابرة الى شدة تعلق شوبان بوطنه الجريح وما أحدثه من أثر فى نفسيته ·· ولذلك قصة :

عند ما انتهت حروب نابليون بمعاهدة « فينا » كان من شروط تلك المعاهدة ترك بولونيا غنيمة لروسيا ·· لكن الشعب البولندى ، الذى عرف فى جميع مراحل تاريخه بتأجج وطنيته ، عقد العزم على طرد المستعمر الغاصب من بلاده بأى ثمن !·· واستشرت نار الحماسة فى صدور الطلاب بصفة خاصة فألهبت قضية الحرية الدماء فى عروقهم ، بحيث صار من الواضح أن بولونيا مقبلة على فترة تمرد وقلقلة اجتماعية وجيشان عاطفى ، وهو الجو الذى لا يصلح بحال لفنان ينشد الهدوء وحياة الاستقرار ·· ومن ثم نصح الاصدقاء شوبان بأن يهاجر الى أية دولة أوروبية تروقه ، فى الوقت الذى كان فيه جميع زملائه يتأهبون لحمل السلاح ·· **فكان ذلك مبعث قلق نفسى شديد للفتى المرهف ، عانى من جرائه عذاب توبيخ الضمير ، وأرجأ سفره أشهرا طويلة ·· كيف ؟ أيترك وطنه فى وقت محنته ؟ ان مواطنيه يمرون بفترة « هستيريا » وطنية ، أنستهم الفن والعلم ، والقيم الروحية ، وسكينة التأمل والانتاج والخلق ·· فالوقت وقت عمل لا وقت تأمل ، فكيف يترك أهله وأصدقاءه يواجهون المحنة ويلوذ هو بالامان فى دولة أجنبية ؟**·· وهكذا لبث يقلب الامر على وجوهه زمنا ، قبل أن ينتهى الى اعتزام اتخاذ الخطوة الحاسمة : « لم يعد أمامى غير أن أحزم متاعى ، فان معدات السفر قد كملت ·· وبنطلونى الجديد قد كوى ·· ومناديلى قد ميزت بالاحرف الاولى من اسمى ·· »

ورغم ذلك فانه ظل مترددا !·· وكان أهله يعرفون ما يجول بخاطره : انه يكون جبانا لو لم يبق الى جانب مواطنيه ، فهو حتى لو لم يستطع حمل السلاح فى الكفاح الاعظم ، مستطيع أن

يخدم قضية بلاده على وجه آخر ٠٠ وفى أعماقه آلمه الشعور الموجع بعدم صلاحيته جثمانيا للقتال الفعلى ، وخاصة فى وقت يحتاج فيه الوطن للرجولة الحقة والبطولة الجبارة ٠٠ فما نفعه اذن ؟ ولم قضت عليه الاقدار أن يغلف بهذا الغلاف الهش من اللحم والعظم ؟ زملاؤه كلهم يستطيعون أن يحاربوا ، وتتفصد أجسامهم عرقا ، ويموتوا فى معركة المجد ٠٠ أما هو فحتى روحه محدودبة الظهر !

◆ **وفى** صبيحة يوم رحيله زاره أصدقاؤه فى جمع كبير ٠٠ من يدرى؟ لعلهم لن يلتقوا مرة أخرى!! لعله لن يبلغ باريس حتى تحمل اليه الانباء أن بولونيا قد صارت حطاما من الاشلاء !٠٠ ولكن ، مع هذا فليرحل على بركة الله ، فمهما كانت نتيجة الصراع المقبل فان قطعة من بولونيا سوف تخلد الى الابد فى موسيقى هذا الفتى ابن العشرين الذى يودعونه ٠٠

وقدموا اليه كأسا فيه حفنة من تراب الوطن ، تذكارا صغيرا للايام السعيدة التى انقضت ٠٠ « وان لم يكن ثمة ألم أشد مرارة من ذكرى أفراحنا الماضية، فى أيام أحزاننا » ، كما قال « دانتى » !٠٠ لكن أمام الفتى المغترب واجبا صارما عليه أن يؤديه ، واجبا أعظم وأخطر من واجب أى جندى يخوض المعركة بالسلاح ٠٠ هو الذى عبر عنه صديق للعائلة فى خطاب أرسله الى شوبان وهو على أهبة الرحيل: « ضع دائما نصب عينيك فكرة القومية ٠٠ القومية ، ولا شىء غير القومية !٠٠ نعم، فكما أن



لكل وطن طقس قومى يميزه ، كذلك هناك أناشـيد والحان قومية ٠٠ فان جبالنا ، وغاباتنا ، ومياهنا، وبرارينا، وأحراشنا ٠٠ كلها تتكلم لغتنا البولونية ، وتغنى اغانينا البولونية ٠٠! »

٠٠ وسافر الفتى الى فينا ، يحمل فى جيبه الملاصق لقلبه صورة لوارسو تحت ضوء القمر !٠٠ لكنه لم يكد يصل حتى بلغه النبأ الرهيب، الذى كان ينتظره بعقله ويستبعده بوجدانه: ان الروس قد سحقوا الثورة واحتلوا وارسو ، بعد أن صيروا ضواحيها هشيما !٠٠ وأهله ، وأصدقاؤه ٠٠ ماذا جرى لهم ؟٠٠ لعل « جون ويللى » قد مات فى المعركة ٠٠ « ومارسيل » ربما جرح ٠٠ و « سوفنسكى » قد يكون وقع أسيرا فى قبضة أولئك الانذال ٠ أما أسرته فمصيرها ـ شأن سـائر أسر بولونيا التعسة ـ أن تجرفها أمواج مستقبل مجهول !٠٠ ان الحضارة تبدو من حوله كأنما تحتضر ، وعصر البربرية موشك أن يهبط من جديد على الارض : « وها أنذا بلا حول ولا طول ، أصوغ يأسى فى أنغام رنانة ، بينما موسكو تحكم العالم ! »

الفتى المرهف فى مدينة النور

◆ **وكانت** موهبة شوبان فى صياغة ألحان البيانو من أعظم وأندر المواهب فى تاريخ هذه الآلة الموسيقية ، لكنه رغم براعته فى الصياغة الفنية كان يتجاهل هذه الناحية من فنه فى سبيل مراعاة التأنق والرشاقة فى ألحانه٠٠ وعلى العكس من « ليست » ـ الذى كان أحيانا يحطم البيانو تحت وقع قبضته القوية، كأنما من فرط اعتزازه بقوته الجسمانية ـ **كان شوبان يتميز بالرقة والسلاسة ، سواء فى صياغة ألحانه أو فى عزفها ، حتى لم تكن لتجاوز حد « الهمس! »٠٠ وقد عاب عليه النقاد ذلك فى البداية، لكن جماهير المستمعين أعجبت بهذا الاسلوب الفريد فى التأليف الموسيقي ، فانها لم تسمع قبل شوبان أنغاما تكاد ترقص وتغنى**

وهى تعزف ، أو أنغاما تقتطف من هذه الآلة الموسيقية القديمة بمثل هذه اللباقة « والخفة الاثيرية » !

لكن الفتى صدم فى أشهره الاولى بباريس بفشل بضع الحفلات الموسيقية التى أقامها ، من الوجهة المالية ٠٠ وان ظفر منها باعجاب نخبة من الموسيقيين المحترفين ذوى النفوذ ، وعلى الاخص « مندلسـون » و « ليست » اللذين قدماه للدوائر والاوساط الفنية والاجتماعية الهامة !٠٠ وبعد أن كاد الفشل يدفعه الى هجر باريس الى أمريكا عاد فعدل عن الفكرة بمجرد أن ذاعت شهرته « كمدرس » للبيانو فتقاطر عليه الطلبـة من الطبقـة الباريسية الارستقراطية ، التى تحسن الدفع !٠٠ وسرعان ما ضمن لنفسه ايرادا كافيا ، فبدا يعيش وفق ما كان يشتهى ٠٠

وكان شوبان بطبيعته يميل الى الترف ، الى حيـاة البذخ والثياب الانيقـة والمجتمع الرفيع ٠٠ فكان اذا انتقى مسكنا حرص على أن يختاره فى أحسن موقع ، بعيـدا عن الدخان والضجيج والاحياء الشعبية ٠٠ وصار ينفق بسخاء على أثاث بيته وعلى تزيينه بالتحف ، فينتقى منها ما يلزمه بذوق الفنان الخبير ٠٠ وكان يحب الزهور ، ويمتعه ألذ المتعة أن يتضوع فى حجراته أريج البنفسج !٠٠ والى جوار فراشه لم يكن بد من بضعة دواوين من الشعر ٠٠ وهكذا افتن فى احاطة نفسه بجو من الجمال المثالى ٠٠ ولم يكن يحب أن يقتحم عليه جنته الصغيرة أحد من الدخلاء ، فكان كل روادها بضعة من تلاميذه المقربين وأصدقائه الخلصاء ٠٠

وكان دقيقا فى نظام حياته ، يعطى دروسه فى ساعات محددة لا تتغير ، بشغف ينم عن ميله الى التدريس ٠٠ أما الثياب فكانت بالنسبة اليه متعة ومشكلة فى وقت معا ، يؤثر منهـا السترة المصنوعة من القطيفة الفاخرة ــ وغالبا ماتكونسوداء ــ والاحذية

المصنوعة من الجلد المصقول « اللميع » ، والقفاز الابيض أو الاصفر ٠ أما بقية ثيابه فكانت تميل الى الالوان القاتمة ٠٠

واقتنى لنفسه عربة فاخرة تحميه من وحل الشارع ، وتليق « بجنتلمان » مثله ! وكانت دائرة الاماكن التى يرتادها محدودة نسبيا ، لا تتعدى دار الاوبرا ، ودور الاغنياء وأفراد المجتمع المترف التى كان عزفه الممتع بمثابة جواز المرور له الى داخل أسوارها ٠٠ وكان يحس بالارتياح الخالص فى هذه الدور ، لسببين : أولهما ميله الطبيعى الى الارستقراطية ، الامر الذى نتبينه من عدد الاميرات ، والدوقات ، والكونتات ، والبارونات، اللواتى وجه اليهن عبارات اهداء ألحانه !٠٠ والسبب الثانى انه لم يكن يحتمل السوقية فى مخالطيه من الناس ــ مثل ماكان ينفر منها فى ثيابه ــ فكانت حساسيته ، فى حضرة السيدات الارستقراطيات المهذبات ، أقل تعرضا لان تخدش بالالفاظ أو الحركات البذيئة ! بل انه كان انسانا محتشما الى حد انه كاد يقطع صلته بصديقه « ليست » ذات مرة لمجرد علمه بأنه قد استخدم مسكنه أثناء غيابه فى موعد غرامى مع غانية !

٠٠ وكان شوبان أسيرا للعادة، بحيث أن أى تغيير فى حياته ــ مهما بلغت تفاهته ــ كان يحدث له اضطرابا شديدا ٠٠ وفى هذا قالت عنه جورج صاند : « انه كان يرتجف رعبا كلما اضطر للتفكير فى ترك باريس ، والابتعاد عن طبيبه ، وأصدقائه ، بل عن غرفته ومعزفه !٠٠ وهكذا عاش أشبه بالنبات الحساس فى بيت من الزجاج ، الامر الذى ناسب طبيعته المرهفة وبنيته الضعيفة ٠ وقد كان ذلك من حسن حظ عشاق موسيقاه ، فقد سمح له بتكريس طاقة نشاطه الضئيلة بأكملها للانتاج الفنى ووضع الالحان ٠٠

وفى العدد القادم باذن الله نتابع قصته ، وغرامه بجورج صاند ٠٠



زواج الاقارب من المشكلات التى كثيرا ماتعترض حياتنا ٠٠ فمن الناس من يقول انه يساعد على ظهور العيوب والعاهات الوراثيــة فى الاسرة ٠٠ ومع ذلك فقد كان الفراعنة يتزوجون أخواتهم وينجبون نسلا قويا !٠٠ فماهى الحقائق العلمية بين كل هذه الاقاويل ، وأين الصواب وأين الخطأ ؟٠٠ اليك خلاصة وافية لاحدث بحث نشر أخيرا فى هــذا الصدد :

صحب « جورج موريسون » ابنته الى الطبيب وهو بادى القلق ، ولـكن الطبيب لم يكد يرى الفتاة حتى صاح بأبيها : « ما أحسبك تزعم أنها مريضة ٠٠ انها خير صورة للصحة ٠٠ بل انها مثال الجمال المشرق ، ان جاز لى هــذا القول !»٠٠ فتضرجت وجنتا الفتاة ، بينما استطرد الاب : « ان الامر أهم من هذا ٠ لقد وقعت « باميلا » فى هوى ابن أختى ، وترانا جميعا غير مطمئنين الى الموافقة على زواجهما ، فأنت تعرف كيف يوجس الناس عادة من التزاوج بين الاهل ٠ ومن ثم جئت لاستشارتك فى هذا الموضوع ٠٠»

وببضعة أسئلة لبقة استطاع الدكتور «براون» أن يتبين أن « باميلا » فى العشرين من عمرها ، وانها كانت دواما موفورة الصحة ، لم تعرف من الامراض سوى الامراض العادية التى تصيب معظم الاطفال فى حداثتهم ٠٠ أما ابن عمتها فكان شابا ســليما ، فى الحادية والعشرين من عمره ، لم يصب قط بأمراض خطيرة قاسية ، فيماعدا حصوة الكلى التى ألمت به مرة فى نوبة حادة ولكنها لم تطل أوتتكرر ٠٠ وهكذا خرج الاب والابنة من عيادة الطبيب يحملان موافقتـه على مشروع الزواج المقترح !

توارث الصفات الجسمية والذهنية

◆ ولقد بنيت معظم الآراء الشائعة عن تبادل الزواج بين أبناء العمومة والخؤولة على آيات فى التوراة ، وعلى معتقدات تقليدية مأثورة ، وليس على معرفة علمية .. ويتلخص مايقال بشأنها فى أن الزواج المتبادل بين ذوى القربى الوثيقة قد يؤدى الى توارث الابناء أخطار الاصابة بأنواع الامراض المتأصلة والعاهات أوالصفات السيئة التى قد تكون مشتركة فى الاب والام اللذين من أسرة واحدة .. ومعروف أن الصفات البارزة فى الوالدين تنتقل الى الطفل بوساطة أجسام دقيقة خاصة تعرف بالجزئيات النوعية ، توجد فى الخلايا الجنسية لكل من الذكر والانثى .

وهناك صفات معينة يرثها الطفل عن الوالدين مباشرة ، وتلك هى الصفات المتعلقة بالطول ، وملامح الوجه ، وتركيب الشعر ولونه ، ولون البشرة والعينين ، وما الى ذلك .. فضلا عن الصفات الخلقية والاستعداد الذهنى وخلافه . وطبقا لنظرية «مندل» فى الوراثة ، لو رزق زوجان أربعة أطفال ، يجىء واحد منهم مشابها للاب تماما ، وآخر مشابها للام تماما ، واثنان وسطا بين الاب والام .. وهذا المبدأ ينطبق أيضا على وراثة ضعف البصر ، فاذا كان هذا الضعف صفة ظاهرة فى «أحد» الوالدين ، تحتم أن يظهر فى طفل واحد من كل أربعة على الاقل .. أما اذا كان « كلا » الوالدين ضعيف البصر ، فان أغلبية أولادهما تكون ضعيفة البصر !

أمراض تنتقل بالوراثة

◆ هذا عن توارث «الصفات» الجسمية والذهنية .. أما «الامراض» التى تنتقل بالوراثة ، فمنها « الهايموفوبيا » ، أو انبثاق الدم فى نزيف غزير اذا أصيب الجلد بجرح ولو بسيط ، وذلك لخلل فى التفاعل الذى يؤدى الى تجمد - أو تجلط - الدم فى مواضع الجروح . والمصابون بمثل هذا المرض لايجب أن يتعرضوا للعمليات الجراحية . والغالب أن يظهر هذا المرض فى الذكور ، ولكنه لاينتقل الا عن طريق الاناث فقط ..

على أن الامراض الشائعة التى تنتقل بالوراثة ليست كثيرة .. فالسرطان والسل لاينتقلان ، ولكن الاستعداد للاصابة بهما قد ينتقل من الوالدين الى الابناء . وليس من الشاذ أن ترى عددا من أفراد أسرة واحدة يموتون بالسرطان ، أويصابون بالسل ، حتى فى حالة تباعدهم واختفاء خطر العدوى فيما ينتقل من الامراض بالعدوى ..

أما الزهرى فينتقل من الام الى الطفل وهو لايزال فى بطنها ، ومن الاب عن طريق الام الى الجنين ٠٠ ومن الامراض التى تنتقل بالوراثة ، داء السكر ، وبعض الامراض العصبية المبهمة ٠٠ على أنه فى حالة المرض الاول لايتحتم أن يصاب بالسكر جميع نسل الوالدين المصاب أحدهما به ٠٠

متى يكون زواج الاقارب ضارا ؟

◆ ويقول « البروفيسور روبرتس » ـ الاستاذ بجامعة « بريستول » ـ ان التزاوج بين أبنـــاء العمومة والخؤولة لايكون ذابال ، من حيث توريث نواحى النقص الوراثية ، الااذا كان «كلا» الطرفين المقدمين على الزواج مصابا بنقص من هذه النقائص ، وهى حالة بالغة الندرة ٠٠ ويخلص البروفيســور من ذلك الى القول بأن أى شخص « عادى » يكون صالحا للزواج من أى شخص عادى آخر ، سواء كان من أبناء عمومته أوخؤولته أو لم يكن ٠٠ وانه حتى بالنسبة للصفات والامراض غير المرغوب فى توارثها ، فانه مالم يكن أحدهما أو كلاهما قد ورث الصفة و «ظهرت» فيه ، فانها لاتظهر ايضا فى نسلهما ، ولكن هذا لايمنع من ظهورها فى بعض أحفادهما ٠٠

◆ ومن أهم الحالات المتصـــلة ببحثنا حالة ذكرها الطبيبان الامريكيـــان «مونتفورت» و « سوركين » ـ بمستشفى كمبرلند بالولايات المتحدة ـ فى تقرير لهما عن زواج تم بين رجل ايطالى وابنة عمه ، أثمر أحد عشر حملا : انتهى ثلاثة منها الى اجهاض ، واثنان الى طفلين من الاقزام ، وخمسة الى أطفال طبيعيـين ، والاخير الى توأمين مشوهين بصورة مخيفة ، ماتا كلاهما فى طفولتهما ٠٠ وحين شرحت جثتاهما وجد مخ كل منهما ناقص التكوين ، واســتنتج الطبيبـان فى تقريرهما أن الطفلين جاءا نتيجة اندماج منويات وارثة لبعض النقص من الاب ، ببويضات وارثة للبعض الآخر من الام ٠٠ فاكتمل النقص وتفاقم فى الطفلين !

ومن الاختلالات العقلية التى تنتقل بالوراثة مايسمونه « ببلاهة الاطفال» ، وقد يحدث أن يحمل فرد بذرتها عن طريق الوراثة من أحد الابوين دون الآخر ، فاذا قدر له أن يتزوج من امرأة ورثت بذرة المرض مثله عن أحد أبويها ، كان من المحتمل أن ينجب هذان الزوجان طفلا مصابا بالمرض اصــابة كاملة !٠٠ والحكم نفسه يسرى على المرض العقلى النفسى المسمى « بالشيزوفرانيا » أو انفصام الشخصية ٠٠

◆ ويقول « ت ۰ ۱ ۰ مونرو » ـ الاستاذ بهيئة أبحاث كولشيستر ـ ان المرء يتعرض لان يلقى زوجا يحمل أحد نواحى النقص الموجودة فيه ، اذا كان الزوج من أفراد أسرته ، أكثر ممايتعرض لذلك اذا اختار زوجه من خارج نطاق الاسرة ۰۰ كما ذكر الباحث «لوكاس» ـ فى سنة ١٨٤٧ ـ أن التجربة تؤكد أن التزاوج المتبادل فى نطاق السلالة الواحدة يؤدى الى انحدارها وانحطاطها ۰۰

ومع ذلك ، فقد كان زواج الاخ من أخته شائعا بين الفراعنة فعلا ، بل كان تقليدا متبعا ، وبالرغم من هذا فقد أنتجت تلك الزيجات شخصيات عرف أصحابها «بالتفوق» العقلى المشهود به !۰۰ ومن الناحية الاخرى اعتاد المعنيون بتربية الحيوان أن يكثروا من تهجين الفصائل الممتازة بفصائل من أسرتها ، سعيا الى تحسين نسلها ۰۰!

حذار من نسل الشيخوخة !

◆ ومادمنا بصدد الحديث عن صحة النسل ، فيحسن أن ننتقل من الفروض الاحتمالية الى القاعدة المقطوع بها ، وهى ان كبر سن الزوجين أو أحدهما من أكبر عوامل ضعف النسل ، بغض النظر عن انتمائهما أو عدم انتمائهما الى أسرة واحدة ۰۰ فالطب يجزم بأن حالات الشذوذ والنقص تزداد ظهورا فى الاطفال الذين ينجبهم الوالدان فى شيخوختهما ۰۰ ومن ثم يحسن بالطبيب الذى يستشار فى أمر زيجة بين قريبين أن يدخل فى حسابه سن الطرفين المقدمين على هذه الزيجة ، وأن يعنى ببحث التاريخ المفصل لاسرتهما ، وحالات الاصابة بالعاهات والنقائص الواجب تجنبها ، وظروف كل منها ۰۰

الحب أقوى من هذه العوائق ۰۰

◆ والخلاصة أنه من المسلم به أن الاطفال المشوهين أوالعاجزين أكثر ظهورا فى الزيجات التى تتم بين أقارب من أسرة واحدة ، لكن من المسلم به أيضا أن الشواذ قد يولدون أحيانا لابوين غريبين ، سليمين من كل نقص !۰۰ ومن ثم ينبغى أن يكون مقياس الحكم أو البت فى مثل هذه الحالات هو هذا : طالما كان القريبان الراغبان فى الزواج شابين متحابين ، فأمامهما فرصة فسيحة لحياة زوجية سعيدة ۰۰ وليس لانسان أن يعارض فى زواج كهذا مالم يكن لديه دليل مؤكد ثابت على وجود علة وراثية خطيرة مشتركة فى الطرفين ، لامجرد حدس أوارتياب لايقوم على أساس أوقرينة لها احترامها ۰۰

ولنذكر قبل كل شىء أن انسجام القلب والعقل هو ـ فى أكثر الحالات ـ العامل الاول فى توفير السعادة الزوجية ۰۰!

عزيزى القارىء ...

استخرجت لك فى كتابى الاول من كنوز الكتب القديمة كتاب «ديكاميرون» لبوكاشيو .. وفى كتابى الثانى «دون كيشوت» لسرفانتس .. ثم انتقلت بك فى العدد الذى يليه من ايطاليا واسبانيا الى «اثينا» القديمة فاستخرجت لك «الياذة» هوميروس الخالدة .. ثم صحبتنى الى فرنسا القرن الثامن عشر حيث تعرفنا الى فيلسوفها الخالد «جان جاك روسو» فى كتابه المشهور «اميل» .. ومن هناك انتقلنا فى العدد الذى تلاه الى بلاد العرب وجزائر الهند ، فاستمتعنا بصحبة «حى بن يقظان» و «روبنسن كروزو» .. ثم استأنفنا سياحتنا عبر الاجيال الى مصر الفرعونية فقرأنا «غرام الاخوين» .. ومنها انتقلنا الى الجزيرة المثالية «يوتوبيا» .. واليوم اقدم اليك دولة اخرى مثالية هى «جمهورية افلاطون» المشهورة ..

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله من هذه الكنوز القديمة : البطولة وعبادة الابطال (لكارليل) ، الكوميديا الالهية (لدانتى) ، الاوديسه (لهوميروس) ، الامير (لمكيافيللى) السياسة (لارسطو) ، رباعيات عمر الخيام .. البخلاء (للجاحظ) ، كليلة ودمنة (لابن المقفع) .. الخ

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة


نحو عالم مثالي
الجمهورية
تراث "أفلاطون" الخالد للإنسانية
THE REPUBLIC
By
PLATO
الشهوات
والجهل

كتاب الساعة ..

◆ من أهم الاهداف التى قامت حركة الجيش لبلوغها ، اعادة بناء الدولة على أسس قوية صالحة ، ترفعها من وهدتها السحيقة الى المكانة الشامخة التى يتطلع اليها كل مواطن .. سواء فى ظل النظام الملكى أوالجمهورى

ولقد كان خلق الدولة المثلى غاية يسعى اليها الفلاسفة والمفكرون منذ أقدم العصور .. ولعل أقدم المحاولات التى من هذا القبيل على الاطلاق هذه المحاولة التى بذلها « أفلاطون » لتحديد مقومات الدولة المثالية . وسواء كانت الآراء التى تضمنتها هذه المحاولة مأخوذة حقا عن محاورات « سقراط » فى مجالسه العامة ـ كما تعمد « أفلاطون » أن يوقر فى الاذهان وهو يسجلها فى كتبه المختلفة ـ أو كان لافلاطون نفسه نصيب كبير فيها ، فان أهل الرأى فى كافة العصور والدول لم يجمعوا على تقديرعمل أدبىشامخ ، اجماعهم على تقدير «جمهورية أفلاطون »، التى تقف وحدها فى مكان الصدارة من كتبه جميعا ، والتى تعتبربمثابة الاساس لكل فلسفة مثالية ، فى كل زمان ومكان .. فانها قد تناولت كثيرا من المسائل والمشكلات التى لاتزال محتفظة بأهميتها حتى اليوم ، والتى لن تفقد جدتها أبد الدهر ..

وقد يبدو فى بعض الآراء التى وردت فىهذه المحاورات ما لايتمشى مع الاوضاع فى عصرنا ، لكننا يجب أن نذكر دائما فعل التطورات والاتجاهات الفكرية والفلسفية وتأثيرها فى المذاهب السياسية على مر الاجيال .. ثم لنذكر أن كل فكرة وردت فى سياق هذا السفر الخالد لايكتمل لها معنى الا اذا فحصت على أضواء ماسبقها ومايلحق بها من آراء خلال الحوار ، الذى لم يتسع المجال لايراده فى هذه الخلاصة بطبيعة الحال ..

وثمة شىء آخر ، هو أن من آراء أفلاطون مايشذ عن العرف ، بل ويغرق فى الشذوذ .. على أننا يجب أن نذكر دائما أن الفيلسوف انسان من البشر ، وان البشر غير منزهين عن الخطأ والخطل ، برغم « العصمة » التى أسبغها عليهم أفلاطون فى جمهوريته هذه ..!

قصة المؤلف

(٤٢٧ ـ ٣٤٧ قبل الميلاد)

◆ نحن فى أثينا القديمة ، عام ٤٠٧ قبل الميلاد ، فى مأدبة أقامها الشاعر الاثينى «أجاثون» لاخلص أصدقائه ، احتفالا بفوزه بالجائزة الاولى لتأليف « الدراما » المسرحية ...

وبين أحاديث السمر وتبادل الانخاب ، انتقلت دفة النقاش الى موضوع من أحب الموضوعات التى يحلو فيها الحديث للسامرين : «الحب» !.. فبدأ كل يدلى برأيه فيه وفق فلسفته الخاصة . قال (فيدراس) : « الحب هو أقدم الآلهة ، وواحد من أقواها وأعظمها نفوذا .. انه الذى يخلق من الافراد العاديين أبطالا ، بدافع خجل العاشق من اظهار الجبن فى حضرة محبوبته .. فلتعطونى جيشا من العاشقين وأنا الكفيل بأن أغزو به العالم ! »

فقال المتحدث الثانى (بوسانياس) معلقا : « هذا صحيح ، لكنكم ينبغى أن تفرقوا بين الحب الارضى والحب السماوى .. بين الجاذبية بين جسدين ، من ناحية ، والتجاوب بين روحين ، من الناحية الاخرى .. فعندما تذبل زهرة الشباب يتخذ الحب الجسمانى الزائل لنفسه أجنحة ويطير الى غير رجعة .. أما حب الروح النبيل فهو باق ، دائم »

◆ وهنا يدخل الشاعر الفكه «أريستوفان (١) » فى الحديث فيأتى بنظرية جديدة فى الحب ، اذ يقول : « فى سالف الزمان كان الجنسان متحدين فى جسم واحد ، مستدير كالكرة ، وله أربع أياد وأربع أقدام ووجهان ! وكان هذا الجسم سريع الحركة الى درجة خارقة ، يستخدم أطرافه الثمانية فى الدوران الدائب كالعجلة . وكانت قوته رهيبة وطموحه لايحد ، فبدأ يدبر الخطة لمحاصرة السماوات ومهاجمة الآلهة !.. لكن «زيوس» ـ كبير آلهة جبل الاوليمب ـ أحس بالخطر المقترب ففكر فى أن يشطر ذلك الجنس شطرين ، الى رجل وامرأة ، كى تضعف قوته وينشغل كل نصف منه بالسعى الى نصفه الآخر !.. وقد كان ، ومنذ ذلك اليوم صار يلهب كلا من النصفين شوق مضن الى الاندماج فى شطره الثانى .. وهذا الشوق الذى يجذب كلا من الجنسين نحو الجنس الآخر هو مانسميه بالحب ! »

---

(١) مؤلف كوميديا « سلاح المرأة » التى نشرناها فى «كتابى» الرابع

وتلت هذا التفسير الهزلى للحب آراء وتعريفات أخرى طريفة ٠٠ حتى سئل ضيف الشرف « سقراط » أن يدلى بدلوه فى النقاش ، فقال : « بعد كل هذه الفصاحةلاأجد ما أقوله ، اذ كيف يتأتى لغبائى أن يحاجج مثل هذه الحكمة ؟! »

الحب والجمال ٠٠ فى رأى سقراط

◆ وبعد أن يلقى سقراط عن كاهله العبء بهذا التمهيد المنطوى على تواضع ساخر ٠٠ يستأنف حديثه ، «لينسف» بغبائه كل حكمة القوم ، ويمزق حججهم الواهية بسلسلة من أسئلته المحيرة التى لا جواب عليها ـ والتى كان هو أول من ابتدعها فى المناقشة وبرع فيها ، فصارت اليوم أساسا من أسس التربية والتعليم ـ وبعد أن يتم له هدم بنائهم المتداعى ، يشرع فى التشييد والبناء على أنقاضه ، فيطلع على مجالسيه بهذه النظرية الجديدة فى الحب :

« الحب هو جوع النفس البشرية للجمال الآلهى ٠٠ فالعاشق لايشتاق فقط الى العثور على الجمال ، وانما يشتاق أيضا الى « خلقه » ومواصلته ، ببذر بذرة الخلود فى الجسد الفانى ٠ وهذا هو سر حب كل من الجنسين للآخر ، لرغبتهما فى اعادة انتاج نفسيهما من جديد ، واطالة فسحة الزمن أمامهما الى الابد ٠٠ وهذا هو أيضا سر حب الآباء لاطفالهم ، فكما يستمرىء جسم الوالد لذة خلق طفله ، تستمرىء روحه متعة خلق روح جديدة تواصل بعدها حمل مشعل البحث الخالد عن الجمال ! »

ولكن ، ماهو هذا الجمال الذى نسعى جميعا الى استمراره عن طريق الحب ؟ انه الحكمة ، والفضيلة ، والشرف ، والشجاعة ، والعدل ، والايمان ٠٠ وبالاختصار فان « الجمال هو الحق ، والحق هوالطريق الذىيقود رأسا الىالله ٠٠»

◆ ويصفق الضيوف للفيلسوف الحافى القدمين ، ثم يواصلون برنامج سهرتهم العادى فيقيمون فيما بينهم « مباراة » فى الشراب تستمر بقية الليل ٠٠ ثم ينسحب بعضهم من المباراة ، واحد فى اثر الآخر ، حتى لايبقى منهم عند صياح الديك فى الفجر غير ثلاثة : اريستوفان ، وأجاثون ، وسقراط ، الذين يشربون خمرهم من كأس كبيرة يتبادلونها فيما بينهم ٠٠ ثم يغلب النعاس أريستوفان فينام ، ويعقبه رب البيت أجاثون ٠٠ فيحملهما سقراط فى رفق الىفراشهما ، ويتناول كأسا أخيرة نخب اله الخمر «ديونيسوس» ٠٠ ثم يخرج ليبدأ جولته اليومية لنشر الحكمة بين أهل أثينا !

وكان بين الضيوف الذين حضرواتلك المأدبة التاريخية تلميذ شاب من



تلاميذ سقراط ، قدر له فيما بعد أن يخلد جبروت أستاذه العقلى والجسمانى ..
وكان اسم ذلك الشاب : أفلاطون !

انسان محظوظ !

◆ كان أفلاطون ، مثل «جوته» ، أحد الذين حبتهم السماء بكل هبة يمكن أن تخلعها الآلهة على انسان : فقد اجتمع له نبل الاصل وعراقة المحتد ، وثراء الوالدين ، وجمال الصورة ، ورجاحة العقل ، وقوة الجسم (حتى لقد لقبوه بأفلاطون - ومعناها باليونانية «عريض» - كناية عن عرض كتفيه !.. أما اسمه الاصلى فكان « اريستوكل »)

على أن أهم ماحبته به السماء فى الواقع كان شغفه الشديد بالحكمة والمعرفة .. الشغف الذى قاده ، فى سن العشرين ، الى التتلمذ على المعلم الاكبر سقراط ، وكان وقتئذ فى الثانية والستين ..

ومن البداية تعلق افلاطون بسقراط ، وانضم الى حلقة حوارييه ومريديه النابهين الذين كانوا يتبعونه فى شوارع أثينا أينما سار ، مثل ظله ، ويصغون الى مناقشاته وآرائه .. وأسئلته العسيرة التى لاتنتهى : ماهى الفضيلة ؟ ماهى الشجاعة ؟ ماهى الامانة ؟ ماهى التقوى ؟ ماهى الديمقراطية ؟ ماهو العدل ؟ ماهو الحق ؟.. ماهو .. ماهو .. وماذا تعرف عن ..؟ - الخ

وبهذه الاستجوابات الفاحصة اللحوحة رفع سقراط من أمام أعين الاثينيين مرآة الغرور ووضع لهم مكانها مرآة الحقيقة .. فأفزعتهم النتيجة ! فانهم لم يروا فى المرآة صورة آدميين ، بل صورة وحوش !.. وفى قسوة الوحوش بدأ الاثينيون يضطهدون سقراط .. حتى انتهى الامر بهم الى محاكمته بتهمة « افساد الشباب » ، ثم الحكم باعدامه (١) !

◆ وأفلح بعض تلاميذ سقراط - ومنهم أفلاطون - فى رشوة حارس السجن كى يتيح لسجينه فرصة الهرب ، وطالبوا معلمهم بانتهاز الفرصة المواتية ..

---

(١) اقرأ القصة التفصيلية لمحاكمة سقراط فى «كتابى» الخامس

لكنه أبى فى اباء : لقد حلت ساعته ، فليواجههـا بشجاعته المألوفة التى طالما واجه بها الموت فى شتى مراحل حياته ، وتحداه !٠٠ ولخير له أن يموت الآن ، وهو بكامل قوته ، من أن يعيش حتى تدهمه الشيخوخة والعجز ٠٠ وهو الذى لايطيق الحياة بغير قوة وصحة ونشاط ٠٠ والذى ينفرد دون مواطنيه جميعا بالقدرة الخارقة على السير حافى القدمين فوق الجليد فى زمهرير الشتاء !

ويحل يوم الاعدام ، فيزوره فى سجنه عدد من تلاميذه الاوفياء ٠٠ فاذا هو يحدثهم عن الموت فى هدوء ، وهو يبتسم : « لاتحزنوا يا أصـدقائى ولاتبتئسوا ٠٠وحين توسدونى قبرى اعلموا أنكم تدفنون جسدى وحده ، دون روحى!»

ثم تأتى الساعة ٠٠ وقت الغروب ٠٠ فيدخل عليه السجان بالسم فى العسل ٠ ويقدم الكأس اليه ثم يشيح بوجهه باكيا ٠٠ ويستطرد أفلاطون : «وبكينا جميعا ، برغمنا٠٠ولم يبق هادئا فينا غير سقراط ، الذى قال معاتبا : «ماهذا السخف؟لقد أبعدت النساء خصيصا كى أتجنب هذا المنظر ٠٠هدوءا! يارفاقى،ودعونى أرحل بسلام ٠٠»

« وجرع كأس السم ، وتمدد على فراشه يعانى سكرات النزع ٠٠ ثم انطلقت روحه ! وكانت تلك نهـاية معلمنا الذى أعتبره بحق : أحكم وألطف وخير البشر الذين عرفتهم على الارض ! »

يجمع الحكمة من مصر وجاراتها ٠٠

◆ عندما مات سقراط ـ سنة ٣٩٩ ـ رأى أفلاطون من الاوفق أن يغـادر أثينا ، فان جهوده لانقاذ سقراط جعلته فى نظر السلطات رجلا « موصوما » !٠٠ فبدأ رحلة له حول العالم ـ العالم الذى كان معروفا وقتئذ ! ـ زار خلالهـا ايطاليا ، وصقلية ـ حيث صدمته حياة الشهوات والمجون التى يحيـاها أهل تلك البلاد ـ ومنها عرج على مصر ، وفلسطين ، مهد الحضارات العريقة ٠٠ فلما عاد الى أثينا بعد اثنى عشر عاما ـ سنة ٣٨٧ ـ كان قد اختزن فى ذهنه حكمة العالم القديم بأسرها ٠٠ فافتتح « مدرسة » للفلسفة فى حدائق أثينا الجميلة ، وسط اطار من التماثيل والاشجار والمعابد الاثرية ، أطلق عليها « الاكاديمية » ـ (وقد كان من تلاميذه فيها خلفه الفيلسوف أرسطو) ـ وآلى على نفسه ان ينشر عن طريقها تعاليم أستاذه الاعظم سقراط ، القائمة فى أساسها على فكرة تقديس « العدالة » !

وفى سبيل توكيد معنى العدالة كتب أفلاطون سلسلة محاوراته الخالدة ، التى قال فيها المفكر امرسون : « فلنحرق جميع المكتبات ، فان كل محتوياتها يتضمنها هذا المؤلف ! » •• والواقع أنه يندر أن يوجد موضوع انسانى لم يتعرض له أفلاطون خلال سعيه الدائب طيلة حياته بحثا عن العدالة •• فقد تعرض – فى مؤلفاته الستة والخمسين – لمسائل : الاشتراكية ، وأخوة بنى الانسان ، وتحسين النسل ، وتحديده ، وحرية الحب ، وحرية الخطابة ، وخلود الروح ، وطبيعة المعرفة ، وطبيعة العالم المادى ، ومقاييس الاخلاق ، والملكية « العامة » للثروة ، بل والملكية العامة للنساء والاطفال !•• الخ – لكنه وهو يبحث كل هذه المشكلات كان يهدف الى هدف واحد لايحيد عنه : أن يرى البر والخير والصلاح موطدة الدعائم على الارض •• يرى صلاح الفرد وصلاح الدولة •• يرى دولة لا تقتل (سقراط) وانما تختاره ملكا !.. وقد صور جنته الموعودة هذه فى أعظم حلقات محاوراته : « الجمهورية » ، أول « يوتوبيا » فى تاريخ البشرية !

◆ واذ فرغ أفلاطون ، هذا الكاهن الاعلى لديانة الجمال ، من وضع حلمه الفلسفى العتيد ، وبناء تصميم مدينة (الانسان الاسمى) ، أهداها الى راعيه « ابوللو » رب النور ، ورفعها الى مسرى النجوم •• حتى يتطلع اليها «مهندسو المستقبل من المفكرين والمشرعين باعتبارها نموذجا مثاليا لمحاولاتهم الخاصة لتقريب الارض الى السماء ! »

السياسة •• وأهوالها !

لكن أفلاطون لم يقنع مع ذلك بمجرد وضع تصميم « حلم » على الورق ، وانما حاول – مثل فيلسوف الصين (كونفوشيوس) – أن يضع نظرياته الفلسفية موضع التطبيق والاختبار العملى • فلما دعاه أمير صقلية الجديد الى زيارة بلاده (وكان سلفه قد تعرف به فى رحلته السابقة) ، عمد أفلاطون الى اختبار أفكاره هناك ، فشرع يوحى الى الامير بآرائه فى كيفية حكم البلاد حكما مثاليا •• لكن الامير لم يلبث أن أساء تأويل أفكاره ونواياه ، فحكم عليه بالموت !•• لولا أن تدخل بعض أصدقائه فأقنعوه بتعديل الحكم والاكتفاء ببيع أفلاطون الى تجار الرقيق !•• وباعه بالفعل الى واحد منهم كان لحسن الحظ من طلاب الحكمة بل وطلاب العدالة ، فجعل منه معلما لاولاده •• ثم لم يلبث أن أعتقه وسمح له بالعودة الى أثينا !

واقتنع أفلاطون منذ ذلك اليوم بأن أى انسان له ضمير لن يجد لنفسه مكانا فى ميدان السياسة مادام يسيطر عليه الغوغاء وغير المفكرين .. فقنع بأن يستأنف القاء تعاليمه الفلسفية الهادئة فى حديقة ((اكاديميته))، وكانت تلك التعاليم من السمو والنبل بحيث قال احدهم : ((لو أن رسولا من السماء هبط الى الارض لما تحدث بغير أسلوب أفلاطون !))

لكن أفلاطون كان رسولا من البشر ، تسرى عليه نواميس البشر ، ففيما كان حاضرا فى حفل عرس تلميذ من تلاميذه ـ يوم العيد الحادى والثمانين لميلاده ـ أتعبه صخب المحتفلين وضجيجهم فاستأذن فى الانتقال الى حجرة أخرى ليأخذ قسطا من النوم .. وحين طالت غيبته ، تسلل العريس الى الحجرة ليطمئن على معلمه ، فوجده مستغرقا فى نعاسه الابدى !.. لم يعد ضجيج الدنيا الفارغ يزعج الفيلسوف الحكيم ، فقد دعى أخيرا ليدخل وينعم بالسكينة فى .. « جمهورية » الموت !

والآن ، تعال معى نزور جمهورية أفلاطون :

١ ـ كيف بدأ الحوار والجدل؟

◆ نحن فى مدينة ((بيريه)) ـ ميناء أثينا القديمة ـ ذات مساء .. وموكب الاحتفال بعيد الالهة ديانا (١) ((ربة الغابات والصيد)) يأخذ طريقه على شاطىء بحر ((ايجه)) ذى المياه الصافية الزرقاء .. وبين المارة المتجهين صوب المدينة رجل ضخم الجسم ، متوسط العمر، قبيح الخلقة، له حاجبان عريضان يوحيان بقوة الشخصية ، ووجه مفرطح ينم عن رقة الحاشية .. انه ((سقراط)) حكيم اثينا العظيم و((معبود)) شبابها ، أو على حد تعبيرهم : ((مرشدهم)) ، وفيلسوفهم ، وصديقهم)) .. والى جانبه يسير معه تلميذه (جلاوكون)

أسطورة « ديانا »

◆ كانت ديانا ابنة كبير الآلهة زويس (أو « جوبيتر » باللاتينية) من زوجته «لاتونى» .. وكان والدها قد أوصاها بأن لاتتزوج قط ، وزودها بقوس وجعبة سهام ، وحاشية من الحوريات .. ثم توجها ملكة على الغابات ، مهمتها الرئيسية هى الصيد والقنص .. وذات يوم ، فيما هى عارية فى حمامها ، فاجأها فيه الشاب((اكتيون)).. فسحرته الى (وعل) وأطلقت عليه كلابها فالتهمته !.. أماهى فقد تحولت الى حبيبها الراعى « انديميون » تطارحه هواها ..


سـقراط

ويلمحه نفر من الشباب من بعيد ، فيشقون الصفوف ويهرعون نحوه ، ثم يحكمون حوله نطاقا منهم يحول بينه وبين مواصلة المسير .. ويقنع احدهم ـ ويدعى «بوليمرقص» ـ سـقراط وجلاوكون بان يعودا معهم الى منزل أبيه ، ليعقـدا حلقة من حلـقات مناقشاتهم ومحاوراتهم المحببة

وهناك ، فى البهـو الرخامى للفيلا الريفية الانيقة التى يملكها والدالداعى، وهو بهو ذو اعمدة ضخمة يشرف على البحر العريض اللانهائى .. يخـال افلاطون معلمه العظيم (سقراط) جالسا وسط تلك الجماعة من مريديه المتعطشين للمعرفة ، يشرح لهم أفكاره الخالدة عن الدولة المثالية والانسان المثالى !

ولندع أفلاطون يكمل قصته ، على لسان سقراط :

متاعب الشيخوخة ٠٠ وفوائد الثراء !

◆ **تلقانا** صاحب الدار فى ود صادق ٠٠ ووجدنا فيه ـ برغم تقدمه فى السن ـ رجلا مرحا ، لا يرى للشيخوخة أية متاعب ، مادمنا نتلقاها بروح طيبة رضية ٠٠ وهو يعترف بأن الثراء يؤثر حقا على نظرات الناس الى الشيخوخة ، فيخلق الاختلاف فى آرائهم بصددها ، غير انه ليس مبعث الاختلاف كله ٠٠ وخير ما فى الثراء انه يجعلك فى غنى عن ارتكاب ما يغضب الآلهة ، ويوجب العقاب فيما بعد الحياة ٠٠ يغنيك مثلا عن الكذب ، وعن كل ما يدينك ازاء الآلهة أو البشر ٠٠ وهذا الشعور منك بأنك على حق ، هو خير عزاء وراحة لنفسك ٠٠

قلت : « ولكن ، ما هو الحق ؟ ٠٠ أهو أن تقول الصدق دواما ، وأن تعطى للشخص حقه ؟ »

وهنا انصرف الشيخ ، تاركا لابنه النقاش ٠٠ فقادنا هذا الى الجدل حول طبيعة الحق والعدل ، واذ ذاك انبرى « جلاوكون » يمسك بقياد الحديث بعد محاورات أولية مع أحد الحاضرين ٠

قال : لو اننا سلمنا بأن العدل والحق مرغوبان ، فهل هما مرغوبان لذاتهما ، وحبا فيهما ٠٠ أو من أجل نتائجهما ٠٠ أو للسببين معا ؟ ان الدنيا بأسرها تضعهما فى المرتبة الثانية ، كضرورة ممضة !٠٠ فمعاناة الظلم شر ، ولكى يحمى الضعفاء أنفسهم من هذا الشر ، نراهم يتكاتفون ضده وينادون بالعدل !

ولكن ٠٠ لو ان امرؤا أوتى خاتم « جايجس » (١) ، بحيث صار فى وسعه أن يختفى عن الابصار وأن يفعل ما يشاء دون أن يعترضه عائق أو تصده عقبة ٠٠ لما أحجم هذا الشخص عن أن يغترف من الحياة كل المتع التى تتيحها له ، دون أن يشغل باله بمبلغ مطابقة ذلك للعدل والحق او مجافاته لهما !

واذن فالعادل والظالم اذا وجدا فرصة آمنة للظلم ٠٠ يستويان !

اسطورة خاتم جايجس

◆ **كان « جايجس » راعيا للاغنام ، عثر ذات يوم على خاتم يجعل صاحبه غير منظور !٠٠ فكان أول خاطر منى به نفسه لاستغلال هذا المفعول السحرى أن يمضى الى قصر الملك الظالم فيغوى زوجته ويقتله هو !٠٠ وبعد أن أتم مهمته بشطريها عاد من حيث أتى دون أن يراه أو يعتقله أحد !**

ومنذ ذلك اليوم صار خاتم جايجس رمزا للسلاح المقوت الذى يهدر العدالة ٠٠ (وهو يقابل عندنا خرافة طاقية الاخفاء !)

المال يخفى السيئات ٠٠

◆ **ثم** ، تصور هذا الرجل الذى اكتمل خبثه حقا ، والذى يستحل لنفسه ـ رغم ماذكرنا ـ أن يوصف بكل الفضائل ، ويعيش محوطا بكل العوامل المادية للسعادة ٠٠ تصوره فى جانب ، وفى الجانب الآخر رجل اكتملت استقامته ، ولكن

الظروف اجتمعت على أن تدمغه بالاثم !٠٠ ألا ترى أن هذا الرجل الاخير ينبذ ، ويضطهد ، ويصلب ، بينما يظل الاول ينعم بالمال والشرف وكل شيء ، ويملك ما يمكنه من أن يساوم الآلهة على كسب رضائها ؟٠٠

وهنا تدخل « اديمانتس » فى الجدال ليعزز رأى أخيه فقال: **« ان الشعراء يتشدقون بما للفضيلة من مثوبة فى هذه الحياة وما بعدها ٠٠ ولكنا نرى الرذيلة تستفحل وتطغى ، والمتسولين باسم الدين يسعون الى الاغنياء يعرضون عليهم أن يبيعوهم المغفرة والتسامح بشروط سهلة ميسرة !٠٠ ان أى فتى لماح القريحة ، كفيل بأن يحاججك فى أن المرء لا يعوزه من الحق غير مظهره كى يثرى ٠٠ أما الآلهة ، فما أسهل أن يترضاها الانسان بثمن زهيد!** ٠٠ وهذا التكالب على الجزاء المؤقت ـ أو العاجل ـ للحق ، خليق بأن يفضى الى التهلكة ٠٠ والذى ننشده منك هو أن ترينا القيمة الحقيقية للحق فى ذاته ، لا فى مظهره ٠٠؟

٢ : الدولة المثالية ـ ((يوتوبيا)) ـ فى رأى سقراط

◆ **قلت :** « أحسنت قولا، اذ ناقضت نفسك بما انتهيت اليه فى جدلك ٠٠ ولست أملك سوى أن أحاول اجابتك على سؤالك، **فلنبحث عن الحق أو العدل فى الدولة أولا ، ثم نتلمسه بين الافراد ٠٠ ذلك أن هذا العدل ، أو الحق ، فضيلة يجب أن تتسم بها الدولة ، كما يتسم بها الفرد ٠٠ فكلما ازدادت توافرا فى الدولة، ساعدنا ذلك على أن نجدها ـ مهما قلت أو ضؤلت ـ فى الفرد ٠٠**

ولنبدأ بتتبع قصة تطور المجتمع والدولة منذ نشأتهما ٠٠

ينشأ المجتمع فى العادة حين يتوفر اناس مهرة ، فى شتى مرافق الحياة ، يتفقون فيما بينهم على توزيع العمل وتبادل الانتاج ، سدا لحاجاتهم جميعا ٠٠ فاذا تضاعفت الحاجات ، وازداد المجتمع نموا ، اتجه الى استبدال انتاج أجنبى بانتاجه ٠٠

ومن ثم ينضم الى المنتجين عنصر التجار ، وحيثما وجد التجار تنشأ الاسواق ، فتنشط المعاملات ، وتنعقد الصلات ، فيزداد الرقى والتمدن ٠٠ حتى اذا شرع الناس فى الاستعانة بخدم أجراء ، غدت لدينا مدينة او دولة كاملة . .

بداية المطامع ٠٠ ونواة الجيوش !

◆ **وكلما** اضطرد النمو ، حصلنا على كل ما تتيحه المدنية من ترف ورفاهية ، واذ ذاك يسرى الطمـــع الى كل من مدينتنا والمدن المجاورة لها ، فتهفو كل الى أراضى الاخرى !٠٠

ومن هنا تدعونا الضرورة الى حشد الجنود ٠٠ وخير الجنود والحراس من كانوا نخبة مصطفاة من ذوى الطبـاع الحسنة ، والمران الكامل ، كى يكونوا قساة على أعدائنا، رحماء بأصدقائنا! مثلهم مثل الكلب ، الذى له فى التمييز بين الصديق والعـــدو فلسفة صادقة ، مبنيـــة على التجربة ، فكل من يعرفهم هم فى نظره أصدقاء ، أما من لا يعرفهم فأعداء !٠٠

فاذا فرغنا من اعداد جنودنا ، فلندعهم يقيمون معسكرهم للدفاع ٠٠ وليعلموا أن شغلهم الشاغل هو العسكرية لا جمع المال ٠٠ وان عليهم أن يعيشوا معا عيشة مشتركة ، على أن تكفل الدولة لهم المعاش الكافى ، دون أن يكون لهم أن يقتنوا ثروات خاصة ٠٠

◆ **وحكام** دولتنا المثالية ، أو رعاتنا والاوصياء على أمورنا ، ينبغى أن يكونوا مثقفين واسعى المعرفة ٠٠ ومن ثـم يجب أن نعلمهم ونلقنهم ثقافتنا القومية : الذهنى منها والبـدنى ، أى الموسيقى والرياضة ، كما يجب أن نجعل للآداب المكانة الاولى٠٠ وقد درجنا فى الواقع على أن نلقن النشء الامور غير الحقيقية قبل الحقيقية ، الخرافات قبل الحقائق !٠٠ ولكى نتلافى ذلك كله يجب أن نفرض على مانلقنه لتلاميذنا رقابة صارمة، لنستبعد كل ما هو زائف بطبعه ٠٠

الدستور الثقافى والتربوى للجمهورية

◆ **لذلك** ينبغى أن لا نسمح بالقصص والموضوعات التى تنطوى على تجديف فى حق الآلهة ، ولا نصور « الله » الا على حقيقته : مصدر كل الخير دائما ، الذى لا يصدر عنه شر أبدا .. والذى لا يتغير قط ، أو يتبدل ، أو يعتوره أتفه تحول .. فهو لا حاجة به الى أن يلبس غير حقيقته أو يبدو فى غير صورته .. وهو يمقت الكذب ، والزيف ، وكل ألوان الملق والخداع التى قد تبدو للبشر أحيانا بريئة محببة .. وبالاختصار فاننا يجب أن نصور الله دائما فى صورة الصدق المجسم والحق المطلق !

كذلك ينبغى ألا نسمح بالقصص التى توحى بالخوف من الموت وما بعد الموت .. لا ولا نصور الابطال - ومن باب أولى الآلهة - فى صور من يستسلمون للجزع والنواح ، أو تستبد بهم الانفعالات ، أو حتى يجرفهم الضحك فى اسراف بلا سبب ! .. وانما ينبغى أن نحتفظ لهم دائما بوقارهم الذى يكفل لهم الاحترام ..!

◆ **ويجب** أن نزرع تقديس الحقيقة فى النفوس بكل الوسائل .. فالاكاذيب المخدرة - التى يراد بها تطمين النفوس - وقف على حكامنا وحدهم ، ولا يجب أن تباح لاحد سواهم !.. والاعتدال - **أى ضبط النفس وطاعة السلطان - من الضرورات اللازمة للجميع ، لا للآلهة والابطال وحدهم ، كما زعم « هوميروس » !.. ومن ثم يجب أن نستبعد الكثير من الاباطيل التى من هذا القبيل ..**

◆ **وما دمنا** لم نصل بعد الى تعريف الحق والعدالة ، فلا ينبغى أن نبت برأى بصدد الصور التى تبين الاستقامة محفوفة بالمكاره والمحن ، وتظهر الظلم فى مظهر المستفحل المنتصر!.. أما القصص فعلينا أن نصوغها فى الاساليب الشعرية . وأيسر هذه الاساليب ما كان منها وصفيا ، وما كان منها تصويريا ، وما

كان منها مزيجا من الاثنين ٠٠ أى المآسى الروائية والروايات التي يتخللها الحوار ٠٠

وخليق بحكامنا - أو أولى الامر فينا - أن ينأوا عن التقليد والمحاكاة نأيا تاما ، أو فليقتصروا على تقليد كل ما هو طيب ونبيل فحسب ٠٠ اذ أن تقليد الشر والخبث مدعاة للانحلال الخلقى ٠٠ ومن ثم وجب تقييد التقليد - والتمثيل - فى أضيق الحدود الممكنة !

◆ **ولكن** ٠٠ من هم الجديرون حقا بأن نوليهم الحكم فينا ؟

هم خيرة الشيوخ ممن صمد حزمهم واستقامتهم أمام كل امتحان وغواية ٠٠ وهم الذين نخلع عليهم لقب « الاوصياء » أو « الرعاة » أو « أولى الامر » ٠٠ على أن نسمى من يصغرونهم سنا بالمساعدين ٠٠

وعلينا ان نحاول اقناع جميع الافراد والمواطنين ، بأنهم اخوة واخوات اختلفت معادنهم ٠٠ منهم من صب من ذهب ، ومن صيغ من فضة ، ومن صنع من نحاس أو حديد ٠٠ وليس حتما أن يأتى الابناء من عين المعدن الذى صيغ منه الآباء ٠٠ وعلى أية حال فعلينا أن نضعهم فى المراكز والمراتب التى تتفق وتتمشى مع معادنهم ٠

الحق والعدل ٠٠ والفضائل الاربع

◆ **والآن** ، لنبحث عن الحق ٠٠ ولكى نستبينه يجب أن نتعرف أولا على الفضائل الرئيسية الثلاث الاخرى ، التى تقوم الى جواره :

وأول هذه الفضائل « **الحكمة** » التى يجب أن تتوفر بصفة خاصة فى الرعاة الذين يرعون سلامة الدولة ٠٠ فهم اذا كانوا حكماء ، شاعت الحكمة فى الدولة كلها ٠٠ !

وثانية الفضائل «**الشجاعة**» ، وينبغى أن يتحلى بها الجنود ٠٠ فالشجاعة هى التقدير الصائب للخطر ، وهو ما يبثه التعليم والتربية في نفوسهم ٠٠

أما الفضيلة الثالثة فهى « الاعتدال » - أو ما نسميه ضبط النفس - وهو فى الواقع سيطرة الطيب من الصفات على خبيثها، كسيطرة الطبقة النابهة فى دولتنا على الطبقة الخاملة .. وقد يبدو أن الاعتدال يكمن فى تناسق الصلات المتبادلة التى تربط بين مختلف الطبقات ..

من هذا يتضح ان الفضيلة الباقية - من الفضائل التى يجب أن تتحلى بها الدولة - هى أن يعكف كل فرد فى دأب على أداء مهمته الخاصة فى الدولة ، لا مهمة جاره أو سواه ..

العقل والعاطفة والشهوة

◆ **فلنر** كيف تنطبق هذه الفضائل على الافراد ..

نحن نجد فى الفرد ثلاث صفات متباينة ، تؤدى كل مهمتها من زاويتها الخاصة .. تلك هى الصفات « الذهنية » ، و « العاطفية أو الروحية » ، ثم « الحسية » التى تتعلق بالمتعة وارضاء الشهوات ..

ويجب أن تكون كل منها منفصلة عن زميلتيها ، اذ ليس لشىء أن يؤدى وظائف متناقضة فى آن واحد : **فشهواتك تدفعك الى ما يحرمه عليك عقلك .. وعواطفك الروحية تخالف فى نزعاتها كلا من اتجاه الشهوة والعقل ، وان كانت أقرب الى الاخير منها الى الاولى ..**

واذا ما طبقنا صفات الدولة على الفرد ، ألفينا « الحكمة » و « الشجاعة » تقابلان الصفتين الذهنية والروحية، و«الاعتدال» يتمثل فى سيطرتهما على الشهوة !.. أما الحق أو العدالة ، ففضيلة شاملة تتسم بها الروح فى مجموعها ، وتمارسها كل صفة من الصفات الثلاث الى جانب مهمتها الاصلية ..

وهكذا نجد أن التساؤل فيما اذا كان العدل أنفع للانسان أو الظلم ، ضرب من السخف ..!

أقدم دعوة الى المساواة التامة بين الرجل والمرأة !

◆ **وعند** هذا قاطعنى «جلاوكون» و «اديمانتس» متسائلين عن مركز النساء فى دولتنا المثلى .. وهنا يقتضينا الانصاف أن نتمثل بفضيلة من فضائل الحيوان هى الكلاب ، التى تنطلق ذكورها واناثها معا للصيد ، دون ما تفرقة !.. **ولست أرى سببا يمنع من أن تتولى المرأة أعمال الرجل ، اذا استطاعت بنيتها تحمل مشقة تلك الاعمال . بل لست أمانع فى أن تتدرب معه فى المعسكرات على فنون القتال ، وتحمل السلاح مثله فى الميدان .. ولم لا ؟.. ان منشأ التفرقة بين الجنسين ان النساء يحملن الاجنة فى أرحامهن ، والرجال هم الذين يبثون بذور هذه الاجنة .. أما فيما عدا ذلك فالفوارق بينهما لا تعدو اختلافا فى مدى الطاقة والقوة ، وهذه الفوارق توجد بين فئات الرجال أنفسهم ! - ثم اختلافا فى الثقافة - التى نزود نحن بها كلا من الجنسين ، وهذا أمر فى يدنا معالجته ، اذا أتحنا للنساء نفس فرص الثقافة الرياضية والذهنية ، وبرامجهما ، التى نتيحها للرجال** .. والخلاصة ان الفوارق بين الجنسين ليست بالفوارق الاصيلة أو الطبيعية الهامة ، وما دامت طبيعة المرأة هى نفس طبيعة الرجل ، فقد حق لها أن تتلقى نفس ما يتلقى من تعليم ، وأن يفسح أمامها الطريق لتتولى نفس ما يتولى هو من مهام .. !

٣ - الصلات الجنسية والسيطرة على النسل !

◆ **وأطفال** «الجمهورية» يجب أن يولدوا نتيجة تزاوج تنظمه الدولة ، فيختار أقوى الرجال والنساء وأذكاهم وأطيبهم عنصرا ، **ثم تختار لكل رجل امرأة - بطريق القرعة - كى تنجب منه نسلا ممتازا ، وتعيش معه فترة مؤقتة من الزمن ، هى الفترة الكافية للتناسل والانجاب .. أى لايكون هناك زواج فردى ولاعائلات خاصة !.. وبمجرد ولادة الاطفال يؤخذون منوالديهم**

ويربون فى دار للحضانة المشتركة تديرها الدولة ٠٠«على أن لايعرف الآباء والامهات بعد ذلك أبناءهم ، ولايعرف الابناء والبنات والديهم !٠٠ وبهذه الطريقة وحدها يمكن جعل « الاخوة العالمية » حقيقة واقعة بدلا من كونها محض نظرية بل أسطورة ٠٠ وهكذا ينشأ أطفال الجمهورية على اعتبار أنهم «جميعا» اخوة لبعضهم البعض ، لايفسد أخوتهم هذه اعتزاز بأب أو أم ٠٠ كما لايفسد علاقات الوالدين من الرجال والنساء عموما ، شعور بالاثرة ، أوالحسد ، أوالتنافس ، أو الاعتزاز « بابنى » أو «ابنك» ٠٠ وينتفى تبعا لذلك كل ماينشأ عنه من مشكلات وخلافات ، واغراء ، وضعة ، ونعرات ذميمة ٠٠!



الزواج المؤقت ٠٠ بالقرعة !

حرية الحب !

على أن الوالدين لايلزمون بقصر علاقاتهم الجنسية على رفقائهم الذين اختيروا لهم بالقرعة ٠٠ فاذا أرادوا ـ بعد انجاب الاطفال للدولة ـ أن يستردوا حريتهم الجنسية فيخالطوا من شاءوا من النساء ، فلهم ذلك ٠٠ **بشرط أن يتكفلوا باجهاض أى جنين يتكون عن طريق هذه الصلات الحرة الخارجة عن نطاق فئة «المختارين» من أفراد الجنسين !**

وهكذا يترك أمر هذا « الحب الحر » الى فطنة وحصافة كل من الرجل والمرأة ، فان الحياة الخاصة للمواطنين لاتهم الدولة فى شىء ٠ كل ماتطلبه الدولة من المواطن أن لايؤذى مواطنا آخر أثناء سعيه الى سعادته الشخصية ٠٠

برنامج تعليمي واحد ٠٠ حتى العشرين

◆ **ولنعد** الى الاطفال الذين أنجبهم أولئك المختارون ٠٠

قلنا انهم بمجرد مولدهم يسلمون الى الدولة ، كي تسهر على تنشئتهم في دور الحضانة التابعة لها ، ثم في مدارسها المختلفة بعد ذلك ٠٠ وهم يتلقون جميعا برنامجا واحدا للتربية والتعليم ، حتى يبلغون سن العشرين ، لا فرق في ذلك بين فتى وآخر أوبين فتى وفتاة ٠٠

وأهم مادتين في برنامج التعليم الابتدائي هما : الرياضة والموسيقى ٠٠ الرياضة كي تنمي تناسق الجسم ، والموسيقى كي تنمي تناسق النفس والروح ٠٠ « فالرجل الذى لاتنطوى نفسه على « موسيقى باطنية » لايمكن الوثوق به ، لان عقله يكون كسيحا ، وعواطفه غير متوازنة ، واحساسه بالصواب والخطأ يكون ملتويا معوجا الى الابد ! »

والموسيقى عند أفلاطون هي كل تناسق أو انسجام ، سواء كان مسموعا أم صامتا !٠٠ وهي في رأيه العامل الرئيسى أو المبدأ الواقى الذى يصون العالم من الوقوع في الفوضى الشاملة ٠٠ بل انها روح الكون ، كما أن الكواكب والنجوم هي جسمه ٠ وبدونها تصبح الارض جمرة خامدة ، والسماء حفنة من الرماد المتخلف ٠٠!

فالموسيقى اذن عنصر أساسى في تعليم كل انسان من أبناء « الجمهورية » ٠٠ أما المدارس التى يتلقى فيها هؤلاء تعليمهم فمختلطة ، يدرس فيها الشباب من الجنسين جنبا الى جنب ، ويلعبون ويمارسون رياضتهم معا ٠ وأثناء ممارسة تمريناتهم الرياضية تتجرد الفتاة من ثيابها كما يتجرد الفتى ! ٠٠ « فان أبناء الدولة المثالية وبناتها مدثرون برداء كاف من الفضيلة » ٠٠ وينبغى أن لايكون ثمة شعور سخيف بالعار ، أو سخرية وتهريج ، لدى رؤية الجسم البشرى الذى خلقه الله !

التعليم متعة لاتعذيب !

◆ **وكما** ينبغى أن تنزه تربية النشء من الحفر المصطنع ، كذلك ينبغى أن تعفى أيضا من الكد والعناء .. فالتعليم يجب أن يكون متعة لاتعذيبا . واذا توفر المعلم الصالح كان الصبى الطبيعى خليقا أن «يستمتع» برياضة ذهنه ورياضة جسمه على السواء .. **ومن ثم ينبغى أن تكون المدرسة ملعبا (جمنازيوم) عقليا ، وساحة للمباريات الذهنية يتنافس فيها التلاميذ على التفوق فى رياضتهم الممتعة : رياضة تبادل الافكار !**

هذا عن البرنامج التربوى فى الجمهورية حتى سن العشرين . ثم تتلوه فى هذه السن عملية «فرز» كبرى ، ينحى فيها العاجزون عن مواصلة التعليم الاعلى ، فتتألف منهم الطبقة «الدنيا» من الجيل الجديد : طبقة الزراع والعمال ورجال الاعمال .. أما الباقون فيواصلون الدراسة لمدة عشر سنوات أخرى ، حتى سن الثلاثين ، وفى هذه المدة يتلقون علوما ثلاثة رئيسية : الحساب والهندسة والفلك ..

◆ **فاذا** انتهت دراسة العلوم ، فى سن الثلاثين ، تمت عملية فرز جديدة .. ينحى فيها العاجزون عن مواصلة التعليم أكثر من ذلك ، **وتؤلف منهم الطبقة المتوسطة : طبقة «الجنود» ، الذين تناط بهم حراسة الدولة .. وللجنود دور هام للغاية فى «الجمهورية» ، فهم لايعدون كى يكونوا قوة للعدوان ، بل قوة للدفاع .. فالحرب شيء بغيض الى الجمهورية** ، وماكان ليلزم للدولة جيش لولا الرغبة فى جعله أداة ترد عن حدودها تهديد الغزاة الطامعين ..

٤ : اعداد طبقة الحكام

◆ **نعود** الى طبقة الممتازين من أبناء الثلاثين ، الذين أظهروا كفاءة تؤهلهم لمواصلة الدراسة بعد هذه السن .. وهؤلاء

يبدأون الآن فى دراسة أرفع فرع من العلوم اطلاقا : الفلسفة ! تمهيدا لتولى شئون الحكم فى الدولة . وقد رأينا أن فى الجمهورية مساواة كاملة بين الرجال والنساء ، فى التعليم وتكافؤ الفرص لشغل المناصب العامة وتولى جميع المهام بلا استثناء .. فاذا ماقضى هؤلاء النوابغ من الرجال والنساء خمس سنوات فى دراسة الفلسفة ، آن أوان اكتفائهم بماتلقوا من دراسة نظرية ، ووجب تزويدهم بالخبرة العملية ، فى قسم خاص من أقسام الحكومة معد لهذا الغرض ...

انهم ينبغى أن يهبطوا الآن من قمم تأملاتهم ، الى دنيا الحياة اليومية الصاخبة .. ويلمسوا حقائق دنياهم عن كثب قبل أن يسمح لهم بالاشتراك فى توجيه أمورها . فكم من الزمن يلزمهم فى هذه المرحلة كى يتقنوا المهمة التى سوف تناط بهم بعدها ؟

خمسة عشر عاما ، لأقل !.. خمسة عشر عاما يقضونها بعد الخامسة والثلاثين فى التمرس بالشئون العامة .. حتى يتخرجوا آخر الامر ، فى الخمسين ، أصلح مايكونون لان يقوموا بدور « الحكام الفلاسفة » !.. ذلك ان الفيلسوف وحده هو الجدير بتولى منصب الحكم فى الجمهورية المثالية .. « ومالم يصبح الفلاسفة حكاما ، أو يدرس الحكام الفلسفة ، لن تقف متاعب البشر عند حد ، أو تبدو لها نهاية ! »

وهكذا نرى الفلاسفة فى الدولة المثالية هم أرفع طبقة بين أبنائها ، سواء من حيث درجة تعليمهم وثقافتهم أو من حيث مواهبهم الطبيعية التى أهلتهم لهذا التعليم الاسمى .. فهم زبدة الممتازين الذين استطاعت الدولة انجابهم من الرجال أو النساء .. ومن ثم وجب على أفراد الطبقتين الاخريين - المتوسطة والدنيا - أن يطيعوهم طاعة عمياء فى كل أمر . ومقابل هذا الحق الذى منحته الدولة للفلاسفة الحاكمين ، فرضت عليهم

واجبا صارما : أن يكونوا فى مناصبهم نماذج للامانة والنزاهة والزهد فى المال !

• فماذا أعدت الدولة من وسائل لبلوغ هذا الهدف المنشود ؟ انها قد حرمت هؤلاء الموظفين العموميين من حق الملكية الخاصة ، فهم يملكون كل شيء على الشيوع ، بل ويتناولون حتى طعامهم معا فى قاعات عامة فسيحة ·· وينامون سويا فى « ثكنات » مشتركة ·· واذ لاتكون لهؤلاء الحكام أية مصالح خاصة فانهم يصبحون فوق الرشوة واستغلال النفوذ ، ولايكون لهم غير مطمع واحد : أن يوطدوا العدالة ويرفعوا لواءها بين مواطنيهم على الدوام !

سر ذهول الفلاسفة وشذوذهم !

◆ **ولكن** ، قد يسأل سائل : اذا كان الفلاسفة على هذا النحو الممتاز من رجاحة العقل فى شئون الحكم ، فلماذا يبدون غالبا ألوانا من الحماقة ، بل البلاهة ، فى تصرفاتهم بازاء الكثير من المسائل العادية التافهة ؟

والرد على هذا بسيط : فالملاح الذى لايفقه أن فن الملاحة يتطلب دراية بالكواكب والاجرام السماوية ، يرى فى الربان الكفء الذى يتطلع الى النجوم ويرصدها ، معتوها أبلها ·· ولو استطاع لمنعه من قيادة السفينة !·· وهكذا يفسر الجهال تصرف الفيلسوف الذى يمليه عليه ادراكه للحقائق التى تخفى على سواه ، على أنه شذوذ وغفلة منه !·· ولفهم الفارق الكبير بين ادراك كل من الفيلسوف والجاهل ، لحقائق الامور ، نستطيع أن نستعين بالمثل التالى :

لنفترض أننا ــ معشر البشر ــ نعيش فى كهف معتم ، حشرنا فى داخله مكبلين بالاغلال ، بحيث تكون ظهورنا نحو مصدر النور · ومن خلفنا نار موقدة فى الخارج ·· فى هذه الحال نحن لانستطيع أن نرى من الاشخاص الذين يمرون خارج

الكهف ، خلال المسافة التى تفصل بينه وبين النار الموقدة ، سوى «ظلالهم» التى ترتسم على الجدار المواجه لنـــا !٠٠ فاذا فرضنا أن بعضنا قدر لهم أن يستديروا ليواجهوا النـــور ، ويروا الاشكال الحقيقية ، فلاشك أن الضوء يبهرعندئذ أبصارهم فى البداية ، ويعشيها فترة من الوقت ، لايلبثون بعدها أن يروا كل شىء بوضوح ، ويستمتعوا بنشوة الابصـــار كاملة ٠٠ لكنك لو قدتهم الى داخل الكهف ثانية ، لصاروا أقل قدرة على الابصار فى الظلام من زملائهم الذين لم يخرجوا قط من الكهف٠٠ ولعجزوا عن مجاراة هؤلاء فى حركاتهم وسكناتهم وتصرفاتهم ٠٠

لذلك لا عجب اذا رأينا أولئك الذين أبصروا النور ـ أى الفلاسفة ـ زاهدين فى العودة الى الكهف المعتم (أى الحيـــاة العامة فى دنيانا) ، عاجـزين عن أن يجـــاروا فى تصرفاتهم اخوانهم الذين تكبلهم أغلال الجهل والشهوات البدنية فى داخل الكهف ، وتستبقيهم و «ظهورهم» الى النور ـ نور المعرفة ! ـ فلا يرون من الحقائق غير ظلالها ٠٠ ولو تحرر هؤلاء من أغلالهـم فحـولوا أبصارهم صوب النـــور ، لرأوا مارآه اخوانهم ٠٠ ولصاروا بدورهم فلاسفة ، وطاب لهم العيش !

واذن فالفيلسوف هو أسمى طراز من البشر ، هو الذى استطاع التحرر من جهله وشهوات بدنه واســتدار ليواجه النور (نور المعرفة ، والحق ، والعدل) فى رزانة وثبات وجرأة على مخالفة المعتقدات الشائعة والآراء المتعارف عليها !

محـاربة الخــرافات

◆ **أما** وقد فرغنا من بناء جمهوريتنا المثالية ، فلنكتب على أبوابها : « هنا دولة العدالة !»٠٠ ولندخل اليها كى نتعرف الى بعض فئات أبنائها : وأول مانلاحظه أن حكامها الفلاسفة قــد طردوا منها شاعرهم المشرك « هوميروس » ، بملاحمه الوثنيــة

وخـرافاته . فانه ممايهين ذكاءهم أن يؤمنـوا بتلك القصص الصبيانية عن آلهة جبل الاوليمب الذين يخطرون على صفحات « الالياذة » كالطواويس ، **متباهين بنقائصهم البشرية المرذولة : من قتل ، وغيرة ، وزنا ، وانتقام ، وجشع ... الخ ـ بينمـا الدين ينبغي أن ينزه من كل هذه الاساطير الضارية والمعجزات الخرافية ، فلايكون لنا غير دين يهضمه العقل البشرى ..**

فاذا ما انتقلنا من نطاق العلاقات بين البشر وآلهتهم الى العلاقات بين البشر وبعضهم البعض ، رأينا هـذه العلاقات الاخيرة قائمة كلها على مراعاة مبادىء الشرف بكل صرامة .. لذلك اعتبر رجال الاعمال فى الجمهورية من أبنـاء الطبقة الوضيعة ، واعتبرت أعمالهم من التى تحط من قدر مزاولهـا « لانه يستحيل على رجل الاعمـال أن يكون ناجحا وأمينا فى الوقت نفسه ! »

المجرم لايعاقب .. بل يعالج !

◆ **والمجرمون** فى « الجمهورية » هم موضع الرثاء والاشفاق، لا موضع السخط واللعنة !.. فهم لايعاقبون ، وانما يحـال بينهم وبين ارتكاب الجرائم ! ذلك لان الدولة تدرك أن شرورهم هى نتيجة للجهل ونقص التعليم والتهذيب ، الامر الذى جعل منهم مخلوقات تعسة لاتفهم أين مصلحتها ولامصالح اخوانهـا من البشر . **وكما اننا لانستطيع ترويض حصان جامح بالهابنا ظهره بالسوط ، أو تلطيف حدة نفور شخص منطو بمعاملتنـا اياه كمنبوذ .. كذلك المجرم ، ينبغي أن نأخذه بالحكمة لابالشدة، فهو اذا اعتبرناه مخبولا وجب أن نشفيه من خبـله .. وان اعتبرناه جاهلا كان من حقـه علينا أن نعلمه !..** لذلك كان شعار جمهوريتنا فى هذا الصدد : ابادة داء الجـريمة بدواء الحكمة ، لاالتنكيل بالمجرم بسوط الانتقام !

القتل الرحيم

◆ **والمرض** الجسمانى ـ كالمرض الخلقى أو النفسـانى ـ مرده أيضا الى الجهل !٠٠ فمتى تيسر التعليم القـويم تضاءلت الامراض الى حد كبير ٠٠ أما أولئـك الذين لايرجى شفاؤهم فينبغى معاونتهم على الموت بطريقة رحيمة ، فان الموت السريع أفضل لهم من عذاب المرض الطويل !

والمحامون فى الجمهـورية شر لالزوم له ٠٠ فحيث تعم المعرفة لاتبقى حاجة الى مقاضاة ومنازعات ٠ والقـوانين التى تنظم علاقات أبناء الجمهورية محدودة العدد سهلة التفسـير ، فان حكام الدولة الحكماء يدركون ان كل قانون جـديد يخلق ، أو «يلد» ، طبقة جديدة من الخارجين عليه !٠٠ والحكام يتداركون ذلك بتعليم مواطنيهم كيف يحكمون أنفسهم ، بحيث تتضـاءل الحاجة الى فرض رقابة البوليس عليهم الى أدنى حد ممكن ٠٠

مهمة الحكومة الرئيسية : اسعاد المحكومين

◆ **ومهمة** الحكومة الرئيسـية فى « الجمهورية » هى توفير السعادة للمحكومين ، بمنحهم الصحة والرضا والفراغ ٠٠ وفى هذا يقول «امرسون» ـ تلميذ أفلاطون الحديث : « أعطنى صحة ويوم راحة ، وأنا الكفيل بجعل خيلاء الملوك والاباطرة مثـارا لسخرية العالمين ! »

الصحة ٠٠ والقناعة ٠٠ ويوم الراحة ـ اليوم الطـويل اللانهائى من الجمال الذهبى المصفى ! ـ تلك فى رأى أفلاطون خلاصة السعادة البشرية ٠٠ وماحيـاة «الجمال » ، حيـاة « العدالة » ، حياة «الحب» ، الا ثلاثة ألفاظ مترادفة فى قاموس حلمه المبتغى لبنى الانسان ٠٠

والانسان الخير ، الانسان السعيد (فالسعادة والخير عند أفلاطون مترادفان !) هو الانسان العادل ٠٠ الانسـان ذو النفس المتناسقة النغم ، ذو الشخصية السليمة التى تعزف دائما

اللحن الصحيح فى « سمفونية » التعاون الاجتماعى ٠٠ !

وهذا الانسان المثالى الذى يعيش فى جمهورية أفلاطون ، مكرس لخلق الجمال : سواء فى نسله الحى أو فى أعماله الفنية أوأفعاله النبيلة ٠٠ فالجمال هو كلمة السر أو جواز المرور الى الخلود ٠٠ ونحن بخلقنا شيئا جميلا انما نغزو الموت ذاته !

٠٠ وهانحن قد وصلنا الى باب الخروج من جمهورية أفلاطون ، فلنجتازه الى حيث كنا ٠٠ لنخرج من حيث دخلنا ٠٠ كى نستأنف طوافنا المضنى ، العقيم ٠٠ وبحثنا الشاق السقيم ٠٠ عن هذا الحلم القديم : العالم المثالى !

رسالة المواطن الصالح

◆ من أبلغ ماوراه أفلاطون فى شرح واجب المواطن الصالح فى الدولة هذا المثل الرمزى : قيل ان أرواحا من العالم الآخر جاءت الى دنيانا لتتقمص الاجساد التى تروقها وتؤدى الاعمال التى تعجبها ٠٠ وذات يوم جاءت روح « عولس » (بطل ملحمة الاوديسة) فلما لم تجد بغيتها قالت محتجة : « ان كل الاجسام الجميلة والاعمال العظيمة قد ظفر بها غيرى ، فلم يبق لى منها نصيب !»٠٠

فاجابه صوت مجهول : «بل لقد ترك لك أفضل نصيب بين جميع الاجسام والاعمال : ترك لك أن تتقمص جسد مواطن عادى ، لتؤدى عملا عاديا ، من أجل جزاء عادى ! »

الشقاء يخلق الفيلسوف ٠٠

◆ كان سقراط تعسا فى زواجه ، وكانت متاعبه مع زوجته الشرسة السليطة اللسان لاتكاد تنتهى !٠٠ وقد خرج منها سقراط بهذه النصيحة الرائعة لشاب محجم عن الزواج : «فلتتزوج على أى حال : فان حصلت على زوجة صالحة غدوت رجلا سعيدا ٠٠ وان كانت من نصيبك امرأة سيئة الخلق غدوت فيلسوفا ٠ وكلا النتيجتين نافعة للانسان ! »

الزواج ٠٠ شر لابد منه !

◆ سئل سقراط يوما عما اذا كان الافضل للرجل أن يتزوج أو يظل أعزب ؟٠٠ فكان جوابه :

ـ فليتخذ الطريق الذى يروقه .. فلسوف يندم فى كلا الحالين!

شعوب العالم .. وكيف تعيش - ٢

تعال معي .. الى اليابان

للرحالة العالمية «كاثلين جرين»



٤٠٠٠ جزيرة فى احضان المحيط

◆ لعل اليابان أحق البلاد بأن تسمى ببلاد الجزائر، فهى تتألف من اكثر من أربعة آلاف جزيرة ، تمتد من الشمال الى الجنوب موازية للساحل الشرقى لآسيا ، كما لو كانت قوسا يحميه من عوادى المحيط الهادى .. على انها لم تحاول فيما مضى أن تستغل المحيط الذى يحتضنها، كما فعلت انجلترا بالنسبة للبحار المحيطة بها، بل كانت تعتبر البحار «حواجز» بينها وبين العالم .. حواجز تحد عالما صغيرا تعيش فيه هذه الجزر بمعزل عن بقية القارات ، ويتعرض كل من يجتازها ، خارجا من هذا العالم أو وافدا عليه ، للموت الزؤام ..

ثم كان ان جرؤ قائد بحرى أمريكى على ان ينفذ الى موانىء اليابان فى سنة ١٨٥٣ ، فى اسطول من البوارج الحربية ، عارضا باسم رئيس الجمهورية الامريكية مشروع أول اتفاقية للتبادل التجارى بين اليابان ودولة اجنبية .. فاذا بهذه الاتفاقية تجتذب اليابان من عزلتها ، ومن حياة القرون الوسطى التى كانت تعيش فى غمارها ، لتدفعها الى معترك الحياة الدولية وما يسودها من مدنية حديثة ..

وكالاسفنجة اذا اشتد بها الجفاف ثم القيت فى الماء ، امتصت اليابان سراعا تلك الآراء الاجتماعية والسياسية والمخترعات والاكتشافات

التى قضى الغـرب قرونا فى السعى اليها .. وتخلت عن كثير من تقاليـدها وأساليب حياتها العتيقة ، لتجارى أحـدث أساليب الحضارة الغربية ، دون أن تعنى بتفهم الاسس الروحية والسياسية التى قامت عليها تلك الحضارة !..

عجائب الطقس فى اليابان

◆ ولا يكاد جو اليابان يعترف بشىء اسمه الاعتدال ، أو بحال تكون وسطه بل هو ميال الى التطرف .. ففى الصيف ، يكون حارا قائظ الحر ، حتى يكاد يخنق الانفاس .. وفى الشتاء يغدو باردا حتى تكاد تتجمد لقسوتـه الاطراف .. ثم هو فى الصيف رطب مسرف فى الرطوبة ، وفى الشتاء جاف ممعن فى الجفاف .. ولولا البرد القارس ، لكان الشتاء فى اليابان أجمل منه فى أى بلد آخر ، اذ تنعكس أشعة الشمس المشرقة على الجليد الذى يكسو كل شىء ، فتبدو المدن وكأنها نماذج من وحى الاحلام والخرافات .. ولولا الرطوبة لكان الصيف هناك محتملا ، اذ أنه فصل الامطار فى اليابان ، ومن شأن الامطار ان تخفف من القيظ المرهق ..

وليست هذه كل عجائب تناقض الطبيعة فى اليابان .. ذلك أن أفظع الرياح التى تهب على تلك الجـزر ليست رياح الشتاء الجليـدى ، وانما هى رياح الاعاصير .. الزوابع العاتية ، والعواصف الجبارة ، التى تكتسح ما يعترض طريقها من دور ومنشئات ، وتقتـلع ماتصادف من أشـجار ، وتثير الانهار فتدفع المياه لتغرق ما حول ضفافها من عمران !.. وليت المصائب تقتصر على هذا الحد .. بل أن الطبيعة لا تفتأ ترزؤ اليابان بزلازل عنيفة ، تصحبها الحرائق والطوفانات .. ومن ثم نجد القوم يحرصـون على ان لا يشيدوا بيوتهم فى الغالب من الاحجار والطوب ، بل هم يقيمونها من الخشب .. ليهون الخطب ، وتسهل النجاة ، اذا ما صبت الطبيعة نقمتها !..

جدران متحركة ونوافذ من الورق !

◆ ومع ذلك ، فان هذه البيوت الخشبية تعتبر تحفا جميلة .. لاسيما فى داخلها ، حيث تكون الجدران حواجز متحركة ، تنزلق فى مجار رفيعة .. وبذلك ، يمكن دفعها فيتعرض داخل البيت للهواء الطلق والشمس المشرقة ، أو تزول الفواصل بين الحجرات ، فيغدو البيت قاعة واحدة رحبة فسيحة .. أما النوافذ ، فمن ورق مقوى متين يسمح للضوء بأن ينساب خلاله ، ولكنه يصون حرمة البيوت ، فلا يكشف ماوراءه لناظر ..

ولا يعترف البيت اليابانى بسرير أو مقعد ، ولعل أخطار الطبيعة هى السبب فى ذلك .. ومن ثم نرى الارض تفرش بحصر مبطنة ، تتناثر عليها الحشيات .. كما تتناثر فى جوانب البيت الزهور ، التى لا يكاد يخلو منها

بيت يابانى ، مهما بلغ فقر أهله !.. وتزين اكثر البيوت اركان حجراتها بصور نقشت على قطع من الحرير يسمونها «كاكيمونو» ..

ومن عادة القوم هناك ان يحتفظ رب الاسرة بالمقتنيات الثمينة التى يعتز بها ، فى مخزن حصين على مسافة من داره ، يبنى من الطوب أوالصخر البركانى ، وذلك خشية الحريق .. فما أقل الليالى التى تنقضى على مدن اليابان دون أن يصلصل فيها جرس الحريق ، وما أسرع ما تسرى النار هناك فى البيوت المصنوعة من الخشب والورق !.. ومع ذلك ، فان البرد القارس يضطر أفراد كل أسرة الى أن يجتمعوا كل ليلة حول مدفأة من الفخار - كتلك التى تستخدم فى قرى مصر ..

ازياؤهم القومية واطعمتهم التقليدية

◆ واكثر الازياء شيوعا هناك ، هو «الكيمونو» المعروف ، يلبسه الرجال والنساء على السواء .. و«الجيتا» ، أو الصندل الخشبى الذى يثبت الى القدم بشريط من الجلد بين الاصبع الكبرى والتى تليها .. أما الازياء الغربية فلا تستعمل هناك الا عند ممارسة الالعاب الرياضية - التى انتشرت فى اليابان خلال الثلاثين عاما الاخيرة - والا عند الذهاب الى المدرسة ، أوالعمل الحكومى ، أو المناسبات الرسمية ..

وتراعى المرأة المتزوجة عادة ان يكون «الكيمونو» ذا الوان باهتة ، فى حين يباح للفتاة ان ترتدى ألوانا زاهية فيها لمعة وبريق .. ولا تزال اليابانية تعقص شعرها على النمط التقليدى القديم ، وتضمخه بزيت زهور «الكاميليا» ليحتفظ بتناسقه ..

◆ وطعام اليابانيين غريب .. فهو وسط دائما ، ليس فيه من الاصناف ما يقدم ساخنا ، ولا ما يقدم باردا .. وليس فيه ما تلذ حلاوته ، ولا ما تساغ ملوحته .. والمائدة اليابانية تكاد تخلو من الخبز واللبن والزبد والجبن وما اليها ، فطعام القوم فى مجموعه عبارة عن بعض أصناف تلتقط بملاقط خشبية شبيهة بالاقلام .. واهم هذه الاصناف واحبها عندهم «الارز» ، الذى يصنعون منه أيضا شرابا مخمرا يسمى «الساكى» .. وفيما عداه يعتبر الشاى هو الشراب الشائع المفضل ، ويعدونه خفيفا يتناولونه بغير لبن ولا سكر ..

« الكاتاكانا » .. و « الهيراجانا »

◆ وقد كانت وسيلة الانتقال الشائعة هناك هى مركبات «الريكشو» التى يجرها آدميون ، الى أن ادخلت قطارات الترام الى البلاد .. ثم قضى انتشار السيارات على البقية الباقية من «الريكشو» ..

واليوم المدرسى فى اليابان أطول منه فى أى بلد آخر ، وذلك لان تعلم

القراءة والكتابة هناك من أشق العمليات .. اذ ليست لديهم حروف تمثل النطق ، وانما هم يستخدمون رسوما مصغرة لتصوير الكلمات ، وقد أخذ عدد هذه الرسوم يزداد على مر القرون .. ومع أن رسمها تعرض لكثير من التبسيط ، الا أن كتابتها لا تزال لونا من الفن ، تستخدم فيه الفرشاة بدلا من القلم والريشة .. وقد تعتبر كلمة رسمت بريشة خطاط مشهور ، لوحة فنية تقتنى للزينة !

وهناك نوعان من الكتابة : «الكاتاكانا» ، وهى التى يعبر فيها عن كل كلمة برسم تصويرى .. و«الهيراجانا» ، وهى قريبة فى أساسها من الحروف لدى الشعوب الاخرى ، اذ تعبر عن النطق ذاته .. والكتابة عندهم تبدأ من اليمين ، ولكنها لا تستطرد الى اليسار ، بل تمتد الى أسفل .. أى أن سطورهم رأسية لا أفقية !

قرى فى احضان الحدائق !

◆ والمدن اليابانية مفرطة فى الكبر ، حتى أن «طوكيو» تأوى ما يزيد على ستة ملايين نسمة ، ولذا فهى ثالثة مدن العالم من حيث التعداد .. وتتألف كل مدينة من عدد من القرى تلفها معا مجموعة من الحدائق والمتنزهات .. وقد أدت كثرة الزلازل الى اقامة المنازل متباعدة لتخفيف اضرار الانهيار وسريان الحرائق

أما فى خارج المدن الكبرى فان اليابان تكاد تبدو مقفرة ، اذ تكثر فيها الجبال والغابات .. ومن ثم نرى سكان المدن يختلفون كثيرا عن سكان الريف فى العادات والطباع .. فالفلاح الريفى يتوفر على زراعة الارز ، يعاونه فى مراحل هذه الزراعة الشاقة جميع افراد اسرته .. ويلى الارز فى قيمته — كغذاء — السمك ، ولذلك يعتبر صيده من أهم الحرف القومية فى اليابان .

◆ والصناعة اهم ما أخذته اليابان عن الغرب ، وقد نبغت فيها بحيث سرعان ما باتت تنافس الصناعات الغربية وتهددها ، لاسيما بفضل ضآلة اجور العمال الذين يعملون فيها ، واكثرهم من الريفيين . ولكن كان من نتائج سوء الاحوال التى يعيشون فيها ان تفشى بينهم مرض السل ، الذى يتهدد اليابانيين دائما ..

نظام « الخاطبة » فى اليابان !

ورؤساء العشائر فى اليابان كانوا — قبل سريان المدنية الغربية فيها — أشبه بملوك ذوى سلطان ونفوذ هائلين ، لم تحد منهما تلك المحاولات التى تبذل لخلق نظام نيابى هناك .. والواقع أن «وحدة الاسرة» — التى تستطرد الى وحدة العشيرة — هى المبدأ الذى يسود الحياة فى اليابان .. ولا يزال

للاب هناك نفوذ كبير على حياة الابناء ، حتى انه صاحب الرأى الاول والاخير فى زواج الابن أو الابنة .. فالزواج ـ لدى اليابانيين ـ ليس مسألة شخصية بين الشاب والفتاة ، وانما هو مسألة عائلية ، يتولى السعى فيها عادة «وسيط» أو «خاطب» من أصدقاء والدى الشاب أو والدى الفتاة ..

وتعتبر الزوجة بعد الزواج ملكا لاهل زوجها .. حتى أن ثوب العرس الابيض يعتبر رمزا الى أنها قد ماتت يوم عرسها ، بالنسبة لوالديها .. اذ أن اليابانيين يرتدون البياض فى الحداد بدلا من السواد !

أعيادهم لا تنتهى !

◆ وحياة اليابانيين حافلة بالاعياد ، وعلى رأسها عيد «رأس السنة» .. ففى هذا اليوم ، لاتقع العين على بيت ـ مهما صغر حجمه أو هان شأن أهله ـ الا رأته مزدانا بشجيرات الشربين (كشجيرات عيد الميلاد) وبالغاب والحبال ، وكلها فى عرفهم تمائم لجلب السعد .. وترى الخيل والعربات التى تنقل أول محصولات العام ، فى أبهى زينة .. ويرتدى الناس الجديد من الثياب ويكثرون من التزاور .. أما الاطفال ، فيقبلون على اللعب بالخذروف (النحلة) والكرة والمضرب ..

وتبدأ أعياد الزهور فى شهر مارس ، حين تزهر الاشجار ، فيتجمع القوم ليشهدوا ظهور البراعم .. ويعتبر اليوم الثالث من الشهر الثالث ـ مارس ـ من كل عام ، عيدا للبنات ويسميه الاجانب عيد «الدمى» .. اذ تعرض فيه دمى تمثل الاباطرة وزوجاتهم وحاشياتهم .. ولا تتخذ البنات من هذه الدمى لعبا كما قد يتبادر الى الذهن ، بل أنهن لا يجرؤن على لمسها ، فهى تراث ينتقل من الامهات الى بناتهن جيلا بعد جيل ..

اما الاولاد فيستمتعون بعيدهم فى الخامس من خامس شهور السنة ، أى مايو .. وفى هذا اليوم يباح لهم اللعب بالطائرات الورقية ، أو بطائرات محشوة بالقطن تصنع على شكل سمكة .. كما تعرض فى الدور دمى تمثل المحاربين بكامل دروعهم وتروسهم وسيوفهم وحرابهم .. وتبث فى هذه المناسبة زهور السوسن فى أرجاء الدور ..

على أن حب اليابانيين للازهار لا يقتصر على الاعياد الخاصة ، بل هو عادة قومية شائعة ، حتى أنك لتجد باعة الزهور منبثين فى كل مكان ، حتى فى أفقر الاحياء .. وتجد الفتاة اليابانية تنشأ من صغرها على الذوق الرفيع فى تنسيق الازهار .. كما ان البيوت الكبيرة تستعين بمنسق أو منسقة تتردد عليها فى أيام معينة لتعد زينات من الزهور تحت الصور المثبتة الى جدران غرف البيت .. ومعارض الزهور متوالية طوال الربيع هناك ، حيث تمنح الجوائز للمبدعين فى الاستنبات والتنسيق ..

◆ وفى شهر يوليو من كل عام يحتفل اليابانيـون بعيد «الموتى» ، فهم يعتقدون ان أرواح الموتى تزور فى ذلك اليوم أسراتهم وقراهم ومعابدهم ،

ولذلك توضع لها القرابين والاطعمة فى المقابر ، وتطلق قوارب محملة بالاغذية فى البحيرات والانهار لتحمل تلك الارواح فى رحلتها عائدة الى «عالم الارواح» !

◆ ومن أعظم المناسبات فى اليابان موسم الحج .. فلا يكاد يوجد فى تلك البلاد جبل الا وله قيمة قدسية ، وموسم خاص يسعى فيه الناس الى تسلقه فى ثياب بيضاء ، تعقد أطرافها عند أعلى سيقانهم كى يسهل عليهم التسلق .. وبينما تعلو رؤوسهم قبعات واسعة من الخوص ، نراهم يلتفون فى حصائر من الخوص الطرى للوقاية من المطر ، ويمسكون بعصى من الخشب يتكئون عليها فى تسلقهم تجنبا للسقوط ..

العابهم ومسارحهم ..

◆ واليابانيون شعب محارب بفطرته ، ولذلك فان روح الصراع تنعكس حتى على العابهم وملاهيهم .. فترى المبارزة والمصارعة شائعين بكثرة ، ويليهما فى الشيوع بعض الالعاب الغربية كالجولف ، وكرة القدم ، والكرة الطائرة ، والانزلاق على الجليد ..

وللمسرح أثر كبير فى الحياة اليابانية .. ولهم مسرحيات عريقة تشبه الدرامات الكلاسيكية الاغريقية ، تستمد أصولها من الدين .. وفى هذه المسرحيات يشترك أفراد الفرقة التمثيلية فى «انشاد» الموضوع ، ويقتصر التمثيل فيها على الممثلين ـ دون الممثلات ـ وحتى هؤلاء يظهرون مستخفين وراء اقنعة تغطى وجوههم !.. اما المسرحيات الحديثة هناك فطويلة جدا ، حتى انها تبدأ من العصر فلا تنتهى الا فى منتصف الليل .. ولذلك تتخللها فترة استراحة طويلة للتسرية عن النظارة

٤ حروب فى خمسين سنة !

◆ وما درى قائد الاسطول الامريكى الذى أخرج اليابان من عزلتها فى سنة ١٨٥٣ ، انه انما أطلق قوة ذات خطر فى معترك الحياة الدولية .. فان روح القتال والحرب جعلت اليابان تتقرب الى المانيا وتأخذ عنها أحدث أساليب الحرب .. وقد خاضت اليابان منذ سنة ١٨٩٤ حتى الان غمار أربع حروب كبرى .. اولاها ضد الصين (فى سنتى ١٨٩٤ و١٨٩٥) ، وثانيتها ضد روسيا (من سنة ١٩٠٤ الى ١٩٠٥) ، وثالثتها ضد المانيا (فيما بين ١٩١٤ و١٩١٨) ، ثم الحرب العالمية الثانية مع المانيا ضد الحلفاء .. وقد سبقت هذه الاخيرة ، اعتداءات متوالية على ممتلكات الصين واراضيها ..

وقد استطاعت اليابان فى الحرب العالمية الثانية أن توقع بالحلفاء أشنع الهزائم ، حتى انكسرت ايطاليا والمانيا ، فأتاح ذلك للحلفاء أن يحشدوا قواهم ضدها ، ويشنوا عليها غارات جوية مروعة كان هدفها تدمير مدنها الصناعية . ولولا ذلك لصارت اليابان اكبر دولة مسيطرة فى الشرق ، ولغدت قوة عالمية يخشى بأسها !

الحياة قصة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة من «كتابى» قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص: «أموك» أو (غرام تحت سماء الشرق) لستيفان زفايج .. و«شجرة التفاح» أو (قلب عذراء) لجون جالزوورثى .. ثم «مرتفعات وذرنج» لاميلى برونتى .. و«التلميذ» أو (عندما يضل الشاب) لبول بورجيه .. و«أحدب نوتردام» لفيكتور هوجو .. و «جريمة حب» لبول بورجيه .. و«جين اير» لشارلوت برونتى .. ثم «ايام بومبى الاخيرة» للورد ليتون .. تليها «مانون ليسكو» للاب بريفو .. و«حديقة الله» لروبرت هتشنز ..

واليوم اقدم اليك فيما يلى هذه القصة العصرية التى يتنبأ لها النقاد بخلود القصص الكلاسيكى، وهى «دين الحقد» (بفتح الدال فى «دين») وقد آثرت ان أسميها «عندما تحقد المرأة» .. يليها فى الاعداد التالية من كتابى باذن الله: ايفانهو (والتر سكوت) صورة دوريان جراى (اوسكار وايلد) اوليفر تويست (تشارلس ديكنز) سافو (الفونس دوديه) البؤساء (فيكتور هوجو) غادة الكاميليا (ديماس) مدام بوفارى (فلوبير) نانا (اميل زولا) تاييس (اناتول فرانس) الجريمة والعقاب (دستويفسكى) الحرب والسلم (تولستوى) ... الخ



من نماذج الصراع الرهيب بين الحب والبغض :

عندما تحقد المرأة !

قصة كبرى للروائي الفرنسي المعاصر : "جورج أونيه"

القسم الاول

◆ **في** منزل واقع فى طريق السين ، فى مدينة (طولون) بفرنسا ٠٠ وفى يوم من أيام ديسمبر الباردة الملبدة بالغيوم ٠٠ اجتمع الى جـــوار المدفأة الموقدة بمنزل « الدكتور هوشار » ـ الطبيب فى البحرية ـ سبعة أصدقاء من ضباط الاسطول ، تتراوح سنهم بين الخامسة والعشرين والاربعين ، يسمرون ويدخنون ويلعبون الورق ٠٠ فى انتظار فراغ مضيفهم من أعداد وجبة سمك « البويابيس » الفاخرة التى دعاهم لتناولها ٠٠

ثم فتح الباب وظهر مدعو آخر يدعى « بوريل » ، يبشرهم بضيف عزيز مفاجىء صادفه فى الطريق فجاء به اليهم ليكمل أنسهم وحبورهم ، بعد أن طال شوقهم اليه منذ سافر للقتال في جحيم الهند الصينية !

واستقبل الضيف الجديد ـ المدعو « بلوارنيه » ـ بعاصفة من التهليل والترحيب ، والتهنئة بسلامة العودة ٠٠ وانهالت عليه الاسئلة عن المعارك البحرية الرهيبة التى خاضها ، وأوسمة الشجاعة التى تزين صدره ، والجرح البليغ الذى كان قد أصيب به ٠٠ وعلم المجتمعون منه أنه على أثر الصدمة النفسية التى أحدثها له موت قائده أميرال الاسطول بين ذراعيه ، قرر ترك الخدمة وقدم استقالته فورا ٠٠ وهو قد عاد اليوم الى وطنه ليستقر فيه ، ويتزوج ٠٠ من أجمل حسناء فى الوجود !

وانهال عليه غمز الاصدقاء ولمزهم ، ومداعبتهم « للعاشق » الذى ضحى من أجل فاتنته بالمستقبل اللامع الذى كان ينتظره في البحرية ، وبحياة البحار التي « كان » شغوفا بها! ٠٠ وهنا كان الطعام قد أعد فانتقل الاصدقاء الى حجرة المائدة ، حيث لم يلبثوا أن انهمكوا فى التهام السمك الشهى وهضمه بالنبيذ المعتق ، فى جو من الفوضى المرحة المحببة ٠٠ واذا أحدهم يصيح فجأة مهللا ونظره الى الباب :

ـ أوه ٠٠ أهذا أنت يا « جيرانى » !

وانضم النبيل الايطالى الشاب « المركيز جيرانى » الى مائدة أصدقائه ، بعد أن حيا « بلوارنيه » ـ وكان الوحيد الذى لا يعرفه ـ بايماءة رقيقة ٠ وجاءت جلسته فى مواجهته ، فأخذ الضابط يختلس النظرات المتحفظة الى الضيف « المدنى » الوحيد بين جماعة من العسكريين ، والاجنبى الوحيد بين مواطنين ، وكأنه يرتاب فى أنه « جاسوس » قد دس عليهم ! فمنذ اندلع القتال فى الشرق الاقصى تفشى الجواسيس ضد فرنسا فى كل مكان ٠٠

لكن «جيرانى» كان أبعد البشر جميعا عن الاشتغال بالسياسة، أو حتى التفكير فيها ، **فقد كان شابا مرحا عابثا ، لا هم له غير رفقة النساء ٠٠ وكان له من شبابه ونبل محتده وجمال مظهره ما جعل منه رجلا « خطرا » على جنسهن ، تتداعى لسطوة رجولته مقاومة أعز المحصنات ، وأكرم العقيلات ، وأطهر الفتيات ! كان شابا رائع الوسامة ، فارع القامة ، فاتن السمرة ، فاحم الشعر ٠٠ تجذبك اليه عينان سوداوان نفاذتان ، وفم دقيق يفتر عن أسنان جميلة ناصعة البياض ، ويظلله شارب صغير رشيق ٠٠**

وانتهى الاصدقاء من وجبتهم الشهية ، فطلبوا الى « بلوارنيه » أن يقص عليهم طرفا من أنباء القتال فى بحار الصين ٠٠ فأسهب صاحبنا فى وصف الويلات التى تعرض لها المحاربون ، من قذائف ورصاص وبارود ، الى أوبئة وكوليرا وتيفوس ٠٠ واذا أحد الحاضرين يصيح به محتجا :

ـ كفانا حديثا عن الحرب والاوبئة ٠٠ فحدثنا عن النساء فى تلك البلاد !

ـ النساء هناك ؟ انهن يا صديقى بشعات الخلقة ، أقرب شبها الى المردة بأسنانهن السوداء المسنونة وشفاههن النهمة الغليظة ٠٠

وبدأ بين الرفاق حديث طويل عن النساء ، تطرق من الجد

الى الهزل ٠٠ فراح كل منهم يقص مغامراته العابرة مع نساء الموانىء المتبذلات ، وفتيات مارسيليا وطولون « السهلات غير الممتنعات » !!٠٠ أما « بلوارنيه » فقد ظل صامتا ، مشمئزا من هذا الحديث الرخيص الذى أوغل فيه أصدقاؤه ٠٠ **فقد كان خياله يحلق فى تلك الساعة فوق ضاحية (فيل فرانش) القريبة من مدينة نيس ، ثم يهبط ليستقر فى الفيلا البيضاء الجميلة التى تكتنفها الخضرة والازهار من كل جانب ، حيث يعيش - فى عزلة وهدوء - ثلاث نساء ينتظرن عودته بصبر ذاهب** : احداهن خالته المسنة مدام دى سان موريس ، التى كان كل أملها أن تعيش حتى تراه يعود من الميدان سالما٠٠ والاخريان ابنتها وابنة أختها المتوفاة ، وهمـــا زهرتان فى اشراقة السادسة عشرة ، احداهما مشوقة اليه بشعور المحبة الاخوية المنزهة٠٠ وأما الثانية فتنتظره باحساس يلهبه الحب المشتعل !

وفى حجرة الاستقبال حيث اجتمع الاصدقاء بعد الغداء لاستئناف حديثهم الماجن ، انزوى بلوارنيه عنهم ليطل على البحر من خلال النافذة الزجاجية المغلقة ، ويتخيل وقع المفـاجأة على النسوة الثلاث اللواتى لم يكن يتوقعن عودته قبل عامين آخرين !٠٠ ورأى نفسه يدلف الى حديقة الفيلا البيضاء ، كى يفاجئهن ٠٠ ورن فى سمعه صياح الخادم الزنجية « ليلى » اذ تلمحه ، فتهلل فرحة ثم تعدو لتبشر ٠٠ الفتاتين !

ترى من منهما سوف تكون قبلتها له أحر من الاخرى؟ أصديقة طفولته العذبة الرائعة ، التى فى طهر الملائكة ٠٠ أم خطيبتـــه الفاتنة ذات الجمال الخمرى الساحر ؟٠٠ انه ليذوب شوقا الى انهاء ما بقى من مشاغله كى ينهب الارض نهبا الى حيث يختطفهما الى صدره ٠٠!

وفيما هو غارق فى هذه الخيالات والاحلام الممتعة ، اذا به يفيق منها على صوت أصدقائه يصخبون ويتصايحون ٠٠ فقد بدأ المركيز جيرانى يقص عليهم قصة آخر مغامرة غرامية وقعت

له ، بينما انهالوا هم عليه بالاسئلة الماجنة يستوضحونه ما دق من تفصيلات تلك المغامرة وما استتر ٠٠ فلما اكتفى فى الرد عليهم بابتسامة خبيثة ، وغمزة من العين ، أصيبوا بنوع من « السعار » فاندفعوا يلحون عليه كى يفصح ٠٠ واذا هو ينزلق رويدا رويدا فيميط اللثام عن كل المستور !٠٠ قال :

◆ « **بدأت** القصة فى « موناكو » منذ شهور ، خلال حفلة أقيمت بقصر الامير جريمالدى ، حيث وقع بصرى لاول مرة على حسنائى الخلابة ، وكانت تصحبها فتاة أخرى فى سنها ، وسيدة عجوز تحيط الفتاتين برعاية دافقة وحراسة دقيقة ٠٠ ورغم ذلك فقد ظللت أراقبهما وأتعقبهما طيلة الوقت وقد بهرني جمالهما الذى ينطق بالطهر والبراءة ، وحيرتنى المفاضلة بينهما ٠٠ لم أدر أيهما أشد فتنة وأعظم سحرا من الاخرى : الشقراء منهما أم السمراء ؟ أما الفتاتان فلم يبد عليهما أنهما شعرتا حتى بوجودى !٠٠ الى أن حانت ساعة الانصراف فتعمدت أن أكون قريبا منهما أثناء نزولهما السلم وسارعت الى مد يدى لمرافقتهما العجوز لاعينها على النزول ، فلما وصلنا جميعا الى أسفل الدرج استدارت الفتاتان فأومأتا الى ايماءة رقيقة ثم انصرفتا مع العجوز ٠٠ الى حيث لا أعلم !

« غير أن المصادفة البحتة شاءت أن تقودنى مرة أخرى الى لقاء تلك الفتاة ، التى قدر لى أن أعشقها فيما بعد عشق الجنون ، وأن تبادلنى هى هذا العشق ٠٠ فأثناء سيرى ذات يوم فى حدائق ضاحية « فيل فرانش » الغناء ، اذا بى أجد نفسى فجأة أمامها ، وكانت تجمع الزهور بصحبة خادمة



زنجية تحمل عنها السلة فى ذراعها ٠٠ فما كادت أعيننا تتلاقى حتى عرف أحـــدنا الآخـــر ، فحييتها ٠٠ وردت هى تحيتى بابتسامة رقيقة ، ثم سارت فى طريقها تتبعها خادمتها الزنجية ٠٠ حتى دخلتا الى فيلا بيضاء تكتنفها الخضرة والازهار من كل جانب ، وهناك اختفت عن ناظرى ٠٠ للمرة الثانية !

استرعت القصة انتباه « بلوارنيه » بشدة ، فان وصـــف أشخاصها ينطبق انطباقا دقيقا عجيبا على أسرة خالته : ثلاث نساء ، احداهن سيدة عجوز ، والاخريان فتاتان ساحرتان ، واحدة منهما شقراء ، والاخرى سمراء ٠٠ وخادمة زنجية ٠٠ وفيلا بيضاء تكتنفها الخضرة والازهار ٠٠ فى ضـــاحية « فيل فرانش » ٠٠؟!!

انتابه شعور مبهم بأن مغامرة جيرانى كانت مع احـــدى الفتاتين اللتين تربطه بهما صلة وثيقة : **فالفتاة التى يعنيهـــا الايطالى الماجن ، اما رفيقة صباه ، واما خطيبته !٠٠ وشعر بألم الشك القاتل يكاد يشطره شطرين ٠٠ كل ذلك دون أن يكون فى يده دليل مادى واحد يبرر شكوكه المروعة!٠٠** فلما استأنف جيرانى قصته أصغى بلوارنيه الى كل حرف ينطق به ، بجماع سمعه وقلبه وأعصابه :

«وأعيتنى الحيل فى الاتصال بالفتاة ٠٠ كتبت اليها فلم أتلق ردا !٠٠ وأخيرا خطر لى أن أنفذ اليها عن طريق خادمتها الزنجية، فبدأت أتودد اليها ٠٠ وما زلت بها حتى تواطأت معى فمهدت لى السبيل الى أول لقاء ، وقد تم فى الحديقة ٠٠ ثم تعـــددت مقابلاتنا حتى توثقت عرى الصداقة بيننا ، **وانزلقنا من الصداقة الى الحب شيئا فشيئا ٠٠ واذا بى أصل معها الى نهاية الشوط !! نعم يا أصدقائى ، فقد أحب كل منا الآخر حبا جنونيا ٠٠ فلم تبخل على تلك الفتاة الفـــاتنة بشىء ٠ منحتنى كل ما كنت أشتهى !!** »

لم يعد عند بلوارنيه بعد هذا أدنى شك فى أن واحدة من

ابنتى خالتيه هى التى أصبحت عشيقة جيرانى وانحدرت معه الى حضيض تلك الهاوية ! ولكن من منهما التى اقترفت هـذا الاثم ؟ صديقته ، أم خطيبته ؟ أحس الشاب بنار تغلى فى صدره حتى لتكاد تحرقه ، فكاد يهم بالانقضاض على هذا الفاسق لولا انه كظم غيظه ، ليدعه يتم قصته ، وقد عول على محاسبته عند انتهائها على كل كلمة بدرت منه !

وانتهى جيرانى من قصته بين صياح المجتمعين ، ونكاتهم ، وتعليقاتهم الماجنة ٠٠ وأخيرا صاح به أحدهم :

ـ ما دمت مغرما بالفتاة ، وهى مغرمة بك ، الى هذا الحد ٠٠ وما دمت قد ذهبت معها كل هذا الشوط ٠٠ فلماذا لا تتزوجها ؟

ـ ليتنى كنت أستطيع ذلك ٠٠ اذ ماذا عساى أفعل بالمركيزة جيرانى ، المقيمة الآن فى فلورنسا ؟

ـ أنت متزوج ؟! ان هذا ليعقد الامور حقا ٠٠ انك لم تقل لنا من قبل انك متزوج !

ـ نعم ، أنا متزوج ٠٠ لكننى أتعس الازواج !

صمت الحاضرون برهة ٠٠ واذا صوت حاد النبرات يقطع حبل الصمت ، وكان صوت بلوارنيه ، يرتفع فى قوة وغضب موجها الكلام الى جيرانى :

ـ انك ، لكى تتصرف مع تلك الفتاة التصرف الذى أتيته ، يجب أن تكون حقيرا الى أبعد حدود الحقارة !!

خيم على الجماعة صمت رهيب ، واصفر وجه جيرانى ٠٠ بينما وقف بلوارنيه على قيد خطوات منه ، يبتسم ابتسامة صفراء وقد تقلصت عضلات وجهه ٠٠ فأجاب المركيز :

ـ يخيل الى اننى لم أفهم مرمى ما سمعت ، أو أنك تبغى المزاح ياسيدى ! اننا هنا جميعا أصدقاء ، وماتفوهت به يعد نابيا جارحا لا يليق صدوره بين الاصدقاء !!

ـ بل اننى لست أمزح ٠٠ وانما أكرر جادا ما قلت ، وهو ان الرجل الذى يرتكب تلك الخسة ، التى ترويها مزهوا فخورا ،

لهو أحقر خلق الله جميعا !!

فرد جيرانى محتدا :

ـ ولكنك تشتمنى يا سيدى !؟

ـ لقد أبطأت كثيرا فى فهم ما أريد ٠٠!

وعندئذ أومأ جيرانى الى الحاضرين يشهدهم على هذا التعدى الصارخ غير المتوقع ، والذى لا يفهم له سببا !٠٠ بينما استطرد بلوارنيه يخاطبهم مبررا تصرفه :

ـ انى أعرف النساء اللواتى تحدث عنهن هذا الاخرق ، وأقرر هنا انه يلفق عليهن هذه الاكاذيب تلفيقا شائنا قذرا سألقى عليه من أجله أمامكم درسا لن ينساه !

ما كاد بلوارنيه يتفوه بالشطر الاول من العبارة : « انى أعرف النساء اللواتى تحدث عنهن ٠٠٠ » حتى عرا الجميع وجوم رهيب ٠٠ وأدرك جيرانى خطورة المأزق الذى تورط فيه !٠٠ وحين هم بالكلام جذبه أحدهم الى خارج الغرفة ليحول بينه وبين بلوارنيه ، الذى التزم الصمت وارتسمت على وجهه علامات الاقدام على أمر خطير !٠٠ **ان الذى ارتكب هذه الجريمة الشنعاء رجل متزوج ، وذلك مما يزيد فى فداحة وزره ، اذ ليس من سبيل ـ على أحسن الفروض ـ الى رد اعتبار تلك الفتاة التعسة التى زلت معه هذه الزلة الكبرى ٠٠!**

وكانت الدقائق التالية حافلة بالحيرة والاضطراب ، والهمسات ، والمحاولات ٠٠ وبعد أن انفرد رب البيت ، الدكتور هوشار ، بالمركيز جيرانى عاد يقول لبلوارنيه محاولا التخفيف من حدة الموقف : « اطمئن يا سيدى ، لقد ظهر ان جيرانى لم يزعم ما زعمه الا من قبيل التفاخر والزهو الاجوف ، شأن الشباب جميعا فى مثل هذه المناسبات ٠ وهو يعترف الآن بأنه لم ينل من الفتاة أى منال ، بل ولم يلتق بها على انفراد على الاطلاق ، وانما كل الذى كان منه نحوها مجرد اعجاب صامت ٠٠ والآن ، فلنتجاوز نحن عن حقوقنا قبلك بعد الالفاظ النابية التى

صدرت منك ، ولكن لا أقل من أن تسحب أنت تلك العبارات الجارحة ٠٠ وبذلك ينتهى كل شىء ! »

فأجاب بلوارنيه : « **نحن هنا اثنا عشر شخصا ، وقد يحدث ألا يكتم أحدنا ما سمع فيتعرض شرف الفتاة التى أدافع عنها للاذى !٠٠ وعليه فانى لكى أعتبر النزاع منتهيا أشترط أن يدون هذا الايطالى تكذيبه كتابة ويوقعه بامضائه !** »

وقبل الجميع هذه الترضية ، فمضى الدكتور هوشار الى الغرفة الاخرى ثم عاد يحمل التكذيب المطلوب ٠٠ وهنا طالب الحاضرون الشاب بأن يسحب عباراته الجارحة ، فقبل ذلك بشرط أن يتبادل مع جيرانى قبل ذلك حديثا قصيرا ! وحين تم لقاء الغريمين بحضور أصدقاء الطرفين ، جذب بلوارنيه جيرانى بعنف نحو النافذة وهو يكاد يلتهمه بنظراته ، وقال له بصوت حازم خفيض ، لا يسمعه الآخرون :

ـ من من الفتاتين كنت تعنى بما تقول : ليديا أم تيريز ؟ أجب ٠٠ من منهما ؟ ان ما أسألك عنه يساوى عندى الحياة كلها، بل أكثر من الحياة !!

لكن المركيز هز رأسه بهدوء ، وأجابه :

ـ ليس فى استطاعتى أن أجيبك على سؤالك ؟

ـ لماذا ؟

ـ لاننى لو فعلت فانما أقترف باذاعة اسم الفتاة اثما سيكون فى نظرك أخطر من ذلك الذى بدر منى منذ لحظات ٠٠ فأنا أعلم الآن صفتك بالنسبة اليها !

ـ أيها التعس ٠٠ انك لا تقدر عمق الالم الذى يسببه لى مسلكك هذا !٠٠

ثم استدار نحو الجماعة قائلا : « **أيها السادة، انى بعد حديثى مع السيد أقرر بأعلى صوتى على مسمع منكم جميعا بأنه اذا كان فى تصرفه الاول قد دل على أنه رجل نذل ، فهو فى تصرفه الثانى قد أثبت أنه جبان !** »

.. فما كاد المركيز يسمعه يتفوه بهذه العبارة حتى اندفع يبغى الهجوم عليه .. غير أن بلوارنيه كان أسرع منه ، اذ رفع يده اليمنى ولطمه بها على وجهه لطمة قوية !!

وفيما الحاضرون يهرعون لتدارك العواقب ، ارتفع صوت بلوارنيه يقول فى تؤدة وتصميم : « نحن هنا جميعا رجال أيها السادة ، وأحسبكم تقروننى على انه لم يبق من حل يحسم هذا الموقف غير المبارزة .. نعم ، يجب أن نتبارز فى الحال ! وأعتقد ان المركيز يرحب بهذا الحل .. وله أن يختار السلاح الذى يروقه ، على أن يكون ذلك دون ابطاء ، لاننى أعتزم السفر غدا وليس عندى من الوقت ما يسمح لى بارجاء هذا الامر !! »

لم يستطع واحد من الحاضرين أن يفتح فمه بكلمة يتفادى بها المبارزة ، فقد جعلها بلوارنيه أمرا محتوما ليس عنه محيد! .. ومن ثم تقرر أن يكون المسدس هو السلاح ، فأعد مسدسان واتخذت كافة الاستعدادات التى تقضى بها الاصول المرعية فى المبارزات .. ثم اختار كل من الخصمين شاهديه !

وفى جو خيم عليه الوجوم ، قيست المسافات والابعاد .. ووقف كل من الغريمين فى مكانه المخصص له ، يحمل غدارته فى يده متأهبا لتلقى الاشارة باطلاق النار ..

واحتبست الانفاس ، فى انتظار الفاجعة التى كان القدر ينسج خيوطها بسرعة مخيفة !

ثم حانت اللحظة الحاسمة، فصاح الحكم .. بصوت مرتعش:

ـ واحد .. اثنين .. ثلاثة !

وانطلق الموت !

(اقرأ القسم الثانى من القصة فى « كتابى » القادم)


١٩٥٣
ببسى كولا
PEPSI COLA
PEPSI COLA
PEPSI COLA
لذيذة
ببسى كولا
كبيرة
SPMO
كل عام وأنتم بخير

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
صديق العائلة : قصة للمحرر	٧
المنبوذة : قصة قصيرة لبول بورجيه	١٨
سيرانو دى برجراك : قصة تمثيلية كبرى لادمون روستان	٢٧
رحلة الى القمر : كتاب شائق للمفكر الساخر « سيرانودى برجراك »	٤٥
اعترافات قاتل راسبوتين : من قصص المحاكمات التاريخية الكبرى	٥٥
شخصيات تحتذى : للكاتب العالمى « ديل كارنيجى »	٧٥
فن العمل ، للرجل والمرأة : لاندريه موروا	٧٩
قارىء الافكار : قصة بوليسية لادجار والاس	١٠٧
ادجار والاس : قصة المؤلف	١١٣
شوبان ، شهيد الفن والوطنية و « جورج صاند » : من قصص الخالدين	١١٧
زواج الاقارب ، ماله وما عليه : دائرة معارف الزواج ...	١٣٠
الجمهورية : كتاب أفلاطون الخالد .. وقصة حياته	١٣٥
تعال معى .. الى اليابان : شعوب العالم وكيف تعيش ...	١٦٠
عندما تحقد المرأة : قصة كبرى للكاتب المعاصر «جورج أونيه»	١٦٧

كتابي

الحادي عشر

« .. ثم ارتمت زوجتك على كتفي وأخفت وجهها المبتل بالدموع في صدري .. فارتجف جسدي كله كالريشة في مهب اعصار عنيف ! لم يكن قد سبق لامرأة أن التصقت بي على هذا النحو .. لكني انتزعت نفسي من أمانيها وأخذت أهدئ من انفعال المرأة المستنجدة بي .. »

« ومنذ تلك الليلة تغيرت أنا ، تغيرا أثار قلقي الجدي .. فمنذ شعرت بذراعيها الناعمتين حول رقبتي وملأ أنفي عطر شعرها المتضوع .. هوت النجمة في عيني من سمائها ، فلم أعد أرى أمامي غير المرأة !.. المرأة الجميلة التي تفوح حبا .. وأدركت أن نظراتي صارت تنضح حرارة وشوقا .. وعبثا حاولت أن أبعد عن خاطري أمنية الشعور مرة أخرى بذراعيها حول عنقي ، ورأسها فوق صدري .. بل وشفتيها لصق شفتي ، وليكن ما يكون ! »

(من قصة « صديق العائلة » - احدى قصص هذا العدد ..)